علي يحيى معمر

الإباضية في موكب التاريخ

الحلقة الثانية

الإباضية في ليبيا

القسم الأول

مكتبة وهبة
١٤ ش الجمهورية بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يسرنى أن أقدم إليك أيها المسلم الكريم ، الحلقة الثانية من هذا الكتاب الصغير ، الذى سميته « الإباضية فى موكب التاريخ » وفى هذه الحلقة التى أطلقت عليها « الإباضية فى ليبيا » أتحدث عن هؤلاء الناس الذين يسكنون الجزء الواقع بين مصر وتونس من الوطن الإسلامى الشاسع ، هذا الجزء الذى يسميه الناس اليوم « ليبيا » . . .

وما ليبيا ومصر وتونس والمغرب والباكستان وتركيا وغيرها مما يقع بينها أو حولها إلا وطن واحد ، لأمة واحدة ، تنتشر على أغلب ثلاث قارات ، فى عظمة وشموخ ، رغم الحدود التى افتعلها الاستعمار ، فى زمن الاستعمار ، وحافظ عليها الاستغلال ، فى زمن الاستقلال ، ورغم التدويل[1] الذى يدعيه أصحاب المطامع على كل قطعة من هذه القطع ، ورغم الشعارات التى تقسم بها السياسة المستغلة ، وحدة الأمة ، إلى أمم صغيرة يسهل السيطرة عليها ، والتحكم فيها .

وأنا حين أقدم إليك هذا الكتاب الصغير ، لا أقدم إليك كتاب تاريخ ، يعنى بتسلسل الحوادث وترابطها ، ولا أقدم إليك كتاباً يرافق مواكب

---

(١) أقصد بكلمة التدويل فى هذا الفصل جعل كل قطعة من الوطن الاسلامى الكبير دويلة صغيرة منفصلة عن بقية الأمة فى نظام الحكم والسياسة .

السلطان يحصى خطواته ، ويبرر أخطاءه ، ويفرض حكمه على الأمة الكريمة ، وإنما أقدم إليك صوراً من حياة الأمة المسلمة فى أدوار كثيرة من التاريخ ، انتزعتها من سيرة الفرد العادى ، ومن حياة المجتمع الهادئ فى بعض الأحيان ، وأخذتها من مواطن النضال ، وميادين القتال فى بعض الأحيان الأخرى ، وكل ما أرجوه منك أيها القارئ الكريم ، أن تقرأ الكتاب كله ، وأن تتغاضى عما فيه من ضعف الأسلوب ، أو ركاكة التعبير ، أو حدة النقاش ، وأن تتعمق إلى الحقيقة التى أقصد إليها . والمعنى السامى الذى أرمى إليه ، فإن قصر قلمى عن إبلاغ ذلك إليك ، فإن ما أهدف إليه من كل كتاباتى ، أن تذوب الفوارق بين الأمة ، وأن ترجع هذه الأمة إلى كرامة الإسلام ، وأن تعلق أواصرها بالله ، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين .

وإنى أستغفر الله من الخطأ والزلل ، وألجأ إليه تعالى أن يعصمنى من الشيطان ، وأن يطهر قلبى بالإيمان ، من الحقد والحسد والشهوة والغضب والعصبية . . .

على يحيى معمر

تمهيد

عزيزى القارئ ، يسرنى أن أضع بين يديك المنهج الذى اتبعته فى هذا الكتاب ، حتى يتيسر لك السير مع خطواته ، لتتضح لك الصور التى أردت أن أقدمها إليك فى إطاراتها الواسعة ، وفى إمكانك أن تراها كما يأتى :

- صورة لارتباط الدولة بالأمة .
- « لتماسك الأمة المسلمة فى وطنها الواسع رغم الخلافات السياسية والمذهبية .
- صورة مصغرة لدخول المذهب الإباضى إلى ليبيا على يد دعاته الأولين .
- صورة للمذهب الإباضى وهو يقود الأمة الليبية بنظام الإمامة الكبرى المستقلة عن أية تبعية .
- صورة للمذهب الإباضى يرعى الأمة الليبية بقيادة عمال ليبيين ، يتبعون الإمامة الرستمية .
- صورة للمذهب الإباضى يرعى الأمة ، بقيادة أمراء يختارهم ، مستقلين بأنفسهم .

تجد أيها القارئ الكريم هذه الصور حسب هذا الترتيب ، فى القسم الأول من هذه الحلقة ، أما فى القسم الثانى منها فتجد الصور الآتية :

- صورة للكفاح العلمى بعد الفتح الإسلامى ، بإلقاء الدروس ، ونشر المعرفة الإسلامية ، وتأسيس المدارس ، وتكوين البعثات العلمية .

- صورة لازدهار المعارف الإسلامية ونظم التعليم وطرق التربية التى وضعت لتكوين أجيال من المؤمنين المعدين لحمل الرسالة الإسلامية .
- صورة للمنطقة التى عاش فيها المذهب الإباضى ولا يزال يعيش منذ تكونت له الإمارات الخاصة به .
- صورة للمرأة فى المجتمع الإباضى .
- « لأحداث تاريخية مشابهة .
- « للمؤمنين المتعصبين الذين تتحكم فيهم رواسب من الدعاية المغرضة .
- صورة للمجتمع المسلم النظيف .

هذه صور تشتمل عليها الحلقة الثانية من الكتاب فى قسميها ، أرجو أن تساعد القارىء على فهم المنهج الذى اتخذته .

وهنالك فى الكتاب ملاحظة أخرى أرجو أن ينتبه لها القارىء الكريم ، وهى أننى قد تجوزت فى استعمال كلمة ليبيا فى كثير من مواضيع الكتاب ، وأنا أعنى أغلب إقليم فزان ، وأغلب إقليم طرابلس ، فإن برقة لم تكن فى يوم من الأيام تابعة للحكم الإباضى ، لا فى دور الإمامات التى تكونت فى طرابلس ، ولا فى دور تبعيتها للدولة الرستمية ولا فى دور الحكومات المحلية التى كانت غالباً فى بعض جهات من جبل نفوسة ، أو بعض جهات فزان .

التاريخ بين الدولة والأمة

إن تاريخ الدولة ، قد يكون هو نفسه تاريخ الأمة ، وقد يكون جانباً من تاريخ الأمة ، وقد يكون أبعد الأشياء عن تاريخ الأمة ، والمؤرخون فى أغلب الأحيان يندفعون إلى تسجيل حركات دولة ما ، وأعمالها ، على أنها تاريخ الأمة التى تسيطر عليها تلك الدولة .

وفى الأحيان التى تكون فيها الدولة مستبدة أو صاحب السلطان طاغياً فإن المسافة بينها و بين الأمة سحيقة البعد ، ومع ذلك فإن الكتاب الذين يشتهون أن يكونوا حداة للموكب الظالم، أو أبواقاً لدعايته يكتبون وهم يعتقدون أو يتظاهرون بأنهم يكتبون تاريخ الأمة ، وقد وقعت بهذه الطريقة مغالطات كبرى فى تاريخ البشرية . وسوف أضرب أمثلة لما أرمى إليه حتى يتضح فكرى للقارىء الكريم .

يتحدث مؤرخ عن عظمة الأمة المصرية فى عصر الفراعنة ، ويلتمس الشواهد على ما وصلت إليه هذه الأمة من مجد وحضارة ، فيقدم للقارىء الكريم، الشواهد الثابتة التى لا تتغير، يقدم إليه الأهرام ، هذه الجبال الشاهقة التى صنعتها أيدى البشر ، فى فترة من تاريخها الطويل ، فهل كانت الأهرام حقاً من الشواهد على عظمة مصر ؟ أيام كان خوفو يتولى زمام الحكم فيها ؟

قد تكون هذه الظاهرة براقة خادعة، ولكن الإنسان إذا تغلغل إلى حقيقة التاريخ ، سرعان ما يعرف أن هذه الشواهد أبعد شىء عن حقيقة تاريخ الأمة المصرية فى ذلك الحين . إنها قد تكون صورة من تاريخ خوفو ، فرعون مصر المريض بداء الحقارة ، أو دليلا على تمكن هذا المرض من نفسية ذلك الملك الطاغية . ولكنها ليست على كل حال حقائق من تاريخ الأمة المصرية .

إن الناظر الساذج قد ينبهر بعظمة هذا العمل ، وقد يحسبه من أمجاد الأمة ، ولكن هل نجد حقاً فى ذلك العمل عظمة ومجداً ؟

أعتقد أن تلك الحالة كانت أبعد شيء عن حقيقة العظمة والمجد ، وأقصى شيء عن تاريخ الأمة وأعمال الشعب .

مائة ألف من الأجسام الفتية ، والسواعد القوية ، تسخر لنحت الصخر ، ودحرجة الحجر ، مدة لا تقل عن عشرين سنة . لو وجهت هذه الجهود لعمل مثمر ، لشقت مجرى نيل ثان يروى صحراء مصر القاحلة ، فوجد فيه الملايين من سكان مصر جنة على الأرض . ولكن النزوة الحمقاء التى سيطرت على رأس ملك مريض بداء الحقارة — أعوزته العظمة فى نفسه ، فراح يلتمس لها الوسائل فى الخارج — أبت أن توجه تلك القوى إلى الاتجاه النافع للأمة . فإذا بمجهودات الأمة جميعاً تسخر لإرضاء هذه النزوة الطائشة .

وتمضى عشرون عاما من حياة هذه الأمة لتبنى قبر شخصين ، وتصبر وهى تعمل تحت لذع السياط، لتقدم لهذا المجنون قوة البدن وثمرة الانتاج ، والمال القليل الذى تحصل عليه بالكفاح المستمر .

وفى هذا الحين ، الذى تبلغ فيه الأمة المصرية أحط ما تصل إليه أمة من الذلة والهوان ، والاسترقاق والمجاعة تحت حكم طاغية ، لا يجد بعض المؤرخين عنتاً فى أن يشيدوا بالمجد العظيم الذى بنته الأمة المصرية . حين أقامت الأهرام.

إن هؤلاء المؤرخين يحسبون أن السلطان أو الأداة الحاكمة هى الأمة ، وما دام فرعون يعمل فان عمله يعتبر تاريخاً للأمة ، وهم حين ينظرون إلى هؤلاء الآلاف من الناس، الذين يكدسون الرمال ويرصفون الطرق ، ليدحرجوا عليها الصخور ، يرونهم بالعين التى ترى سربا من النمل، يغدو ويروح فى طريق القرية ليحمل نفقة العام ، كأنما كل واحد من هؤلاء جاء بمحض إرادته ليبنى لنفسه

برجاً فى هذا القصر العظيم . ولم يلمحوا الفقر والذلة والمهانة التى تُبلى بها الأمة، ولا العذاب والسياط التى تسلط على هذه الجماهير الكادحة، فى عمل شاق ليست له ثمرة إلا الشهوة ، شهوة فرعون أن يكون عظيما، وأن يكون قويا وأن يكون من الخالدين .

فهل يعتبر هذا العمل حقاً من تاريخ الأمة ؟ هل تعتبر هذه الآلاف من العمال المسخرين الذين يدهدهون الصخر من الصبح إلى المساء ، وأبناؤهم يقتلهم السغب والفاقة ، هل تعتبر هذه الآلاف العاملة تحت السوط والسيف، من الأمة ؟

وهل يعتبر عملها هذا تاريخا للأمة ؟

إننى لا أستطيع أن أتصور ذلك أبداً ، وكل ما أفهمه أن هذا قد يكون صورة من تاريخ فرعون، وأن هؤلاء الآلاف الذين يعملون باستمرار مدة عشرين سنة ، ماهم إلا آلة صماء، يحركها زر فى يد فرعون. فهم فى الحقيقة ليسوا قسما من الأمة ، فيكون عملهم تاريخاً لها ، و إنما هم قوة فى ساعد فرعون ، وسواء كان هذا العمل الذى عملوه والجهد الذى بذلوه ، والجبل الذى شادوه ، سواء كان ذلك عظمة ومجداً ، أم مرضاً وشهوة ، فإنه من تاريخ فرعون وحده ، لا من تاريخ أمته .

ضربت المثل بهذه الحوادث لأننى أعتقد أنها واضحة .

ومن المؤسف أن أكثر المؤرخين فى مختلف العصور — حتى فى هذه العصور التى كادت تتحرر فيها البشرية من طغيان الفرد واستعباده — لم يتحرروا من هذه النظرية التى لا تفرق بين الأداة الحاكمة والأمة ، فتجدهم يلهثون وراء السياسة يحدون لها ويصفقون ، حاسبين أن عظمة التاريخ فى أن يسيطر رجل أو هيئة ، على بقاع كثيرة ، فيتمتع بما لا يتمتع به غيره من شهوات ، ثم يسجلون ذلك على أنه تاريخ الأمة ، أمة ذلك الرجل ، أو تلك الهيئة .

إن هذه الصورة لا يمكن أن يكون فيها تاريخ الدولة تاريخاً للأمة . إن تاريخ الأمة بعيد جداً عن هذه المظاهر السخيفة ، التى تهدر فيها كرامتها، وقوتها وإنتاجها .

أما الصورة الأخرى التى يكون فيها تاريخ الدولة هو تاريخ الأمة ، فذلك عندما تكون الأداة الحاكمة خاضعة لقانون الأمة وشوراها ، فلا تصدر إلا عن رأيها ، ولا تمتاز بشىء عن أى فرد منها ، وفى الفتوح الإسلامية زمن الخلافة الرشيدة أمثلة واضحة لذلك . إن تاريخ الدولة فى ذلك الحين هو نفسه تاريخ الأمة ، وذلك لأن ما يصدر عن الدولة هو ما يصدر عن الأمة راضية به راغبة فيه .

إن الأمة جمعاء كانت تقوم بالغزوات الفاتحة مندفعة إليها ، متسابقة إلى القيام بها ، دون وعود بالمرتبات أو حصر بالدواوين ، أو إكراه بالتجنيد الإجبارى ، وإنما كانت انتفاضات منبعثة عن عقيدة من أمة كاملة ، ليس للأداة الحاكمة منها إلا تنسيق العمل وتنظيم الصفوف . ولذلك كانت هذه الحركات تاريخ أمة لا تاريخ دولة ، وأن الدولة كانت داخلة فى الأمة ، معبرة عنها تعبيراً صحيحا صادقا لأن جميع ما تقوم به من نشاط داخلى أو خارجى كان يصدر عن حقيقتين ثابتتين : حكم الدين ، ورأى الأمة .

أما الحالة الثالثة التى يكون فيها تاريخ الدولة جانبا من تاريخ الأمة ، فأعنى به عندما تقوم دولة فى قسم من أقسام الوطن ، وتحرص هذه الدولة أن تصدر فى أعمالها عن حكم الدين ورأى الأمة ، وفى التاريخ الإسلامى أمثلة من ذلك .

ولم أحسب هذا التاريخ تاريخ الأمة ، لأن الأمة ، أكبر من ذلك وأوسع ، فعمل هذه الدولة الصغيرة تعبير عن قسم من الأمة. وهو وإن كان تعبيراً صحيحا صادقا إلا أنه ينقصه الإجماع أو الأغلبية المطلقة .

الوطن الإسلامي

إننى أعتبر الأرض الإسلامية وطناً واحداً بحدوده الشاسعة ، وعندما أضطر إلى تتبع التقسيمات السياسية الموجودة الآن ، أحس بالمرارة والألم ، ولقد كان تاريخ الأمة الإسلامية فى عصوره المختلفة ، مرتبط الحوادث ، متحد المشاعر ، متوافق العواطف ، مشتبك المصالح ، متصل الأجزاء . ورغم ما اصطنعته السياسة من حدود ، فأنت حين تسافر من الشرق الأقصى إلى المغرب الأقصى تمر بعدد من الدول وتتخطى مجموعة من الحدود ، وتختلف عليك أشكال من الحكم ، وقد تحس بما يعتمل فى نفسية هذه الدول من عداوة و بغضاء ، وحروب حارة أو باردة ، ولكنك فى كل ذلك تشعر أنك تعيش فى أمة واحدة ربطت بينها العقيدة ، التى وجهت قلوب أفرادها جميعاً إلى الإيمان بالله ، ومحبة الإخوان فى الدين ، وتجد التاريخ الحقيقى لهذه الأمة التى تنبسط على أكثر قارات العالم ، فى وحدة الشعور والعاطفة والعقيدة والأمل ، وفى طريقة التفكير والكفاح والعمل . وفى الاتجاه الذى يتجه إليه الأفراد والجماعات ، وفى عدم اعتراف هذه الأمة بالحدود التى تفصلها عن بعضها ، فتخترقها رغم حرس الحدود ، والعقوبات المترتبة على ذلك .

إن تاريخ الأمة يكمن فى الأعمال اليومية من أفراد وطبقات هذه الأمة فى وطنها العام ، بعيداً عن أحداث الدول ، هذه الدول التى تفرض سلطانها لتثبت قواعد حكمها ، وتقر دعائم نفوذها ، وتسخر كل شىء لإرضاء شهواتها ونزواتها ، دون نظر إلى حقيقة الأمة أو مستلزمات الدين .

وحين يذهب بعض المؤرخين يتحدثون عن أعمال هذه الدول المختلفة ، حاسبين أنهم يتحدثون عن تاريخ الأمة الإسلامية ، يغفلون عن حقيقة هامة :

وهى البعدالشاسع بين ضمير الأمة وعقيدتها، وعملها وأملها، و بين مجرى الحوادث التى تجرى عليها تلك الدول المستبدة ، إن حقيقة تاريخ الأمة أعمق من أن يكون أعمالا تقوم بها دولة دون أن تستمد هذه الأعمال من حقيقتين ثابتتين : دين الأمة ، ورأى الأمة الحق . وحتى فى هذه الحالة لا يكون تاريخ هذه الدولة تاريخا للأمة إلا إذا كانت الأمة كلها مجتمعة على اعتبار هذه الدولة واعترافها بها ، وخضوعها لأحكامها ، خضوعا شرعيا ، حسبما قرره الدين لتنظيم الدولة ، مع احترام كرامة الأمة سياسياً ، واجتماعيا ، واقتصاديا ، واحترام كرامة الفرد فى سلوكه مع الدولة والناس ، وفى سلوك الدولة والناس معه .

إننى حين أتحدث فى هذا الفصل وفى هذا الكتاب فإنما أتحدث عن الأمة الإسلامية ، والدولة المسلمة ، وما حديثى عن الفراعنة فى أسطر سابقة إلا مثل عابر، سقته لتوضيح فكرة . . . إن الحروب التى قامت بين الدولة الأموية والخوارج ، أو بينها وبين الشيعة ، أو بينها و بين الدولة العباسية ، أو بين غيرها من الدول التى تعاقبت على الحكم، أو تنازعت عليه فى مختلف العصور الإسلامية، إن هذه الأحداث الدامية لا تكون من تاريخ الأمة الإسلامية ، لأن الناس الذين اشتركوا فيها كانوا محمولين عليها ، إما بالخوف ، وإما بالطمع ، وإما بالتغرير ، فهم ينفذون إرادة واحدة ولذلك اختلفت أنظار الأمة إلى القائمين بهذه الحركات . فأيدت كل قسم من هذه الأقسام طائفة من الناس، من أجل الأغراض السابقة ، أما الأمة فهى تعرف أن تلك الحروب ليست لمصلحة الدين ، وليست لمصلحة الأمة . وعلل من ينطق برأى الأمة أسباب تلك الحروب فجعلها مرة (الثريد الأعفر) ومرة أخرى (بغلات معاوية الشهب) .

إن هذه الحوادث ، ليست تاريخ الأمة ، فإن انتصار الدولة الأموية على الخوارج ، أو قضاءها على ابن الزبير ، أو تغلب الدولة العباسية على الدولة

الأموية ، أو تغلب أية دولة مسلمة على دولة أخرى مسلمة ، لا يحسب مجداً للأمة المسلمة ، أو حقيقة من تاريخها ، فإنه ليس من تاريخ الإسلام ، ولا من تاريخ الأمة المسلمة ، ولا مما يحسب مجداً للإسلام ، أن يقضى بنو أمية على الخوارج والشيعة ، ولا أن ينتصر بنو العباس على بنى أمية ، ولا أن ينتزع بنو فاطمة كراسى الحكم من بنى العباس .

إن هذه الصور وأشباهها قد تكون صوراً من تاريخ رجال بنى أمية ، أو بنى فاطمة أو الخوارج أو ابن الزبير ، أو بنى العباس ، ولكنها ليست بحال من الأحوال صورة من تاريخ الإسلام ، أو تاريخ أمة محمد عليه الصلاة والسلام .

أما هذا العدد الوفير من الناس ، الذين تتكون منهم الأداة الحاكمة ، كالأمراء والوزراء والقواد والأعوان والأجناد فى الدول المستبدة ، فهؤلاء لا يكونون جانباً من الأمة ، وإنما هم عبارة عن جهاز آلى ليس له إرادة ، ولكنه يتحرك بإرادة الحاكم المستبد، سواء كان هذا الحاكم فرداً أو هيئة . إنهم عبارة عن صاروخ موجه ، يبعث به الحاكم للتدمير متى شاء ، ولن يدخل ضمن آلات هذا الصاروخ البشرى ، إلا خائف ، أو طامع ، أو مخدوع ، بالعقيدة ، أو المذهب ، أو الشعار ، وإلا فما هى مصالح الأمة فى نقل أداة الحكم من بنى أمية إلى بنى العباس ، أو بنى فاطمة ، أو بنى تميم ، أو غيرهم من القبائل والأجناس ، وفيم يندفع آلاف من الناس ليحطموا بنى أمية ، أو يحطموا الحسين ابن على ، أو يحطموا بنى العباس ؟

وهب أن شخصاً أراد أن يجرى تصفية على آلات هذا الصاروخ الذى تستعد دولة من الدول المسلمة ، لتضرب به دولة أخرى مسلمة ، فأخرج منه كل من دخل فيه بالخوف ، وكل من دخل فيه بالطمع ، وكل من دخل فيه

بالخديعة والتغرير ، حين صوِّرت له الحقائق على ما هى ليست عليه . هب أن شخصاً فعل ذلك فهل يبقى هذا الصاروخ صالحاً للعمل؟وهل يبقى من هذا الجند شىء يستحق أن يطلق عليه كلمة الجيش ؟ ويمكن أن يدخل معركة مهما كانت هذه المعركة صغيرة ؟ إنه لن يبقى بالتأكيد إلا اليد التى تمسك بزر الصاروخ ، وهى تضغط على فراغ .

والحقيقة التى أرمى إليها من هذا البحث الطويل ، أن تاريخ الدول الإسلامية التى تعاقبت على الحكم ، والتى تنازعت عليه ، والتى اقتسمته ، إن تاريخ هذه الدول ليس هو تاريخ الأمة الإسلامية ؛ لأن تاريخ الأمة الإسلامية إنما ينبع من ذاتها ومن نفسيتها ومن الأعمال التى تصدر عنها برغبة ورضا واقتناع ، دون تخويف أو تطميع أو تغرير . أما تاريخ الدول والأمراء والحكام فهو تاريخ أفراد لا يمثلون أمة ، بل كثيراً ما يكونون أبعد الناس عن الأمة وسيرتها .

ولما كانت الأمة الإسلامية أمة لها دين ، وضع لها نظماً كفيلة بإسعاد الإنسانية ، مجتمعاً وأفرادا ، وهذا الدين يساوى فى الحقوق والواجبات بين جميع أتباعه ، من السلطان أو صاحب الحكم ، إلى أدنى رجل من الأمة ، فإن أولئك الذين يخرجون عن هذا المنهاج ، ويناقضون عن أمر دينهم ، ويحيدون عن سبيله ، لا تحسب أعمالهم على الأمة ، ولا يوضع تاريخهم فى مقام تاريخها ، لأن مسلك الأمة بيّن ، وتاريخها واضح ، وسلوكها على العموم جار فى الطريق الذى اختارته إرادة الله ، ليؤدى بهذه الأمة إلى السعادة . السعادة التى يعلم حقيقتها خالق الإنسان ، لا السراب البراق الذى ينخدع به بصر الإنسان .

إن الله قد اختار لأمة محمد الإسلام ديناً ، وأوجب على الدولة وأداة الحكم

فيه قانونا ، فما سارت على ذلك القانون فهى من الأمة ، وتاريخها وعملها ومجدها للأمة ، وإذا انحرفت بها الشياطين عن سبيل الله ، فحسبها متاع الحياة ، وما متاع الحياة إلا غرور .

ولعل أوضح صورة لهذه الفكرة هى واقع الأمة الإسلامية فى هذا العصر، هذه الأمة التى تنتشر على أفريقيا وآسيا وأوربا ، وتاريخ هذه الأمة هو مجموع سلوك أفرادها وطوائفها ، تلك الأعمال التى تنبعث فى كامل الوطن العام ، أما الأعمال التى تقوم بها هذه الدول المتناثرة فى كثير من بقاع الوطن الإسلامى فليست من تاريخ الأمة . إنها تاريخ رجل ، أو رجال ، وصلوا إلى كراسى الحكم بوسيلة من الوسائل ، ومنهم من هو أبعد الناس عن فهم حقيقة الأمة ، وحقيقة مشاعرها ، وحقيقة أعمالها ومطالبها ، ومع أن الأمة وحدة لا تتجزأ ، فإن أولئك الذين يتولون الحكم ، ويحسبون أنهم أقاموا دولا ، لا ينفكون يقيمون الحدود بين أجزاء الأمة ، ليصنعوا منها أمما مختلفة : هذه عربية ، وهذه تركية ، وهذه فارسية ، وغيرها ، ولم يكف أصحاب المطامع والاستعمار حتى هذا ، فذهبوا إلى تقسيمها دويلات صغيرة جعلوا منها ممالك وجمهوريات .

إن هذه الشعارات الزائفة ، وهذه المبادىء الضالة ، أبعد ما تكون عن الإسلام ، وعن تاريخ الإسلام . إنها جوانب من تاريخ أولئك العدد القليل من الناس ، الذين نادوا بها ، وفصلوا بين أبناء الأمة الواحدة ، والدين الواحد ، ليحققوا لأنفسهم شهوة السلطة ، وشهوة المتعة ، وشهوة المال .

ومن الأخطاء التى أوحى بها الاستعمار ، فتلقفتها آذان السياسيين من هذه الأمة ، فانطلقت بها ألسنتهم وأقلامهم : كلمة الصداقة والأخوة تَزُجُّ بها بين هذه الدويلات المسلمة ، القائمة على قطع من الوطن الإسلامى ، فيقف الخطيب منهم أو السياسى وهو يحسب أنه أوتى فصاحة سحبان حين يقول : الدول الشقيقة ،

والدول الصديقة ، وهو يقصد بالدول الشقيقة : الدول التى تحكمها هيئة عربية أما الدول الصديقة فقد يكون من بينها أعدى أعداء الأمة ، وكم أتألم وأنا أسمع خطبا من أولئك الذين يقدر فيهم فهم القضية الإسلامية فهما صحيحا ، حينما تجوز عليهم هذه الخدعة الاستعمارية ، فتجدهم وهم يتكلمون عن الجزائر (١) ،أو عن فلسطين ، أو عن الكويت ، أو موريتانيا ، فيعبرون عنها بهذه الكلمة التى لقنها الاستعمار لأتباعه — الدولة الشقيقة — حتى يقرر فى أذهان الناس، أن كل دولة من هذه الدول حقيقة قائمة بنفسها ، قد يربطها بالدولة الأخرى ، علاقة القرابة أو الصداقة ، أو المصلحة ، ولكنهما مع ذلك شيئان منفصلان ، وتقطيع الأمة المسلمة إلى أشلاء متناثرة ، هى أعظم غاية يسعى اليها الأعداء بكل ما أوتوا من فكر ومكر .

إن الكتاب الكريم ، يقرر أن الأمة الإسلامية أمة واحدة، فى أندونيسيا وتركيا و إيران والباكستان والجزيرة العربية ومصر والمغرب الأقصى وما بينها ، فقال : « **إن هذه أمتكم أمة واحدة** » .

أما قوله تعالى : « **انما المؤمنون إخوة** » فالمراد به ـ والله أعلم ـ أن الأخوة هى العلاقة التى تربط بين أولئك الذين اتصفوا بالإيمان فى جميع مراحل التاريخ ، إن المؤمنين فى هذا العصر إخوان للمؤمنين الذين سبق بهم الزمن والذين سيأتون مع الزمن المقبل « **ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا** » .

ولعل حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم يوضح هذا المعنى أتم توضيح ، قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : [وددت أننى أرى إخوانى . فقال بعض أصحابه رضى الله عنهم : أولسنا باخوانك يا رسول الله ؟ فقال عليه السلام : أنتم

(١) كتب هذا الفصل قبل أن تتحرر الجزائر ، لكن طبع الكتاب تأخر لأسباب خارجة عن إرادة المؤلف .

أصحابى ، و إنما إخوانى قوم يأتون من بعدى ، يؤمنون بى ولم يرونى] أما قوله صلى الله عليه وسلم : [ترى المؤمنين فى توادهم وتعاضدهم وتراحمهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى] فهو نص فى هذا المعنى ، ولا يوجد أى دليل على قصر معناه على الأفراد دون الدول .

إن المؤمنين الموجودين فى عصر من العصور قوة مندفعة لأداء الرسالة التى أناطها الله بهم ،وليست العلاقة بينهم علاقة الأخ بأخيه يحسن إليه ويهاديه وكل منهم مقيم فى منزله ،ولكن العلاقة بينهم هى العلاقة التى تربط جماعة تشترك فى القيام بواجب، يسأل عنه كل فرد منهم ، ولذلك فليس من الحق أن تعتبر قضية الجزائر للجزائر ، وقضية فلسطين لفلسطين، وقضية أندونيسا لأندونيسيا ، وقضية ليبيا لليبيا مثلا، إن هذه القضايا وغيرها من القضايا ،هى قضية الأمة المسلمة، الأمة الواحدة ، التى تمتد من الشرق الأقصى إلى المغرب الأقصى .

وهذه الجهود الضعيفة التى تقوم بها هذه الدول لتساعد إحدى قضايا الأمة فى جانب آخر، أودولة أخرى، فى صورة مبالغ من المال، تجمع من تبرعات الأفراد، أو فى خطب رنانة تلقى فى مجتمعات حافلة ، أو كلمة حماسية على منبر هيئة الأمم ، إن هذه الجهود الضعيفة ليست هى ما يطلب من هذه الدولة ،أو من هذا القسم من أقسام الأمة .

إن هذا التصرف يدل على أن هذه الدولة التى تقدم مساعداتها على هذا النحو مقتنعة بأن الجزائر ، أو فلسطين أو غيرها ، حقا شقيقة ، لها من الحقوق ما للأشقاء ، مواساة فى المصيبة ، ومشاركة فى الفرح ، وصدقة عند الحاجة وما أشبه ذلك . ويظهر أن الناس مقتنعون بأن هنالك فرقا بين الواجب على أبناء فلسطين فى مدافعة إسرائيل ، وبين غيرهم ، وهذا الاقتناع خطأ كبير فى حقيقة الأمة المسلمة ، إن ما كان يجب على سكان الجزائر فى محاربة فرنسا هو

الواجب على بقية البلاد الإسلامية والدول الإسلامية ، لو أنها آمنت برسالة الله وعملت بها ، وما يجب اليوم على الفلسطينى فى مدافعة إسرائيل ، واستخلاص الحقوق منها ،هو ما يجب على كل مسلم فى كل قطر من أقطار الإسلام . وإنه لحق على الدول المسلمة أن تعرف هذا الواجب ،وأن تعمل له ،وأن تنظم سير الأمة لتحقيقه . ورسول الله صلى الله عليه وسلم حين ضرب مثلا للمؤمنين بالجسد الواحد لم يقل ذلك عبثا ، وانما أراد أن يقرر أن المؤمنين فى كل عصر من العصور حقيقة واحدة ، فى آمالهم وآلامهم وأعمالهم ، وأنه لا يحق لأى واحد منهم أن يعتبر نفسه منفصلا عن الباقى وأنه يقدم له مساعدات .

إن ما قدمته الدول العربية والإسلامية للجزائر وفلسطين وهى تحسب أنها تقدم إليها مساعدات إنما كانت تقوم بواجبها ولكنه قيام هزيل لم تبرهن فيه أية دولة من هذه الدول أو قسم من أقسام الأمة أنها فهمت حقيقة واجبها وأدركت أنها تتساوى فى هذا الواجب مع من تساعده وتقدم إليه الإعانة . وما أسخف الإعانة وأهونها حين تكون عبارة عن كلمة ينثرها لسان ، أو مال تجمعه يدان من عواطف الناس .

يظهر أنى أطلت فى هذا الفصل وساقنى الحديث إلى جوانب لم أكن قدرتها فى نفسى ، ولذلك فها أنا أعود إلى تقديم هذه الصور من تاريخ الأمة فى جزء من الوطن الإسلامى .

هذه الصور التى أعرضها عليك فى هذا الكتاب الصغير ، هى بعض الجوانب من تاريخ الأمة ، وهى صور من تاريخ الأمة الحقيقى ، لأنها أعمال لأفراد من الأمة ، لم ينحرفوا عن سبيل الله إلى سبيل الشيطان ، ولم تسقهم شهوة عارمة ، أو تغرهم ثروة غالبة . ومن هذه الصور وأشباهها يتكون التاريخ الحقيقى للأمة المسلمة .

إن تاريخ الأمة الإسلامية يتضح :

فى هذه القوى المسخرة لنشر العلم ، وإصلاح المجتمع ، وإنارة الطريق أمام السالكين بوحى العقيدة والضمير ...

فى هذه الجهود المبذولة لبناء مجتمع مسلم ، على أسس سليمة ، وضعها الدين الحنيف لإسعاد البشرية ...

فى هذه الأعمال المتواضعة للحياة الحرة الكريمة ، البعيدة عن الارتزاق ، والمتاجرة بمصالح الناس ...

فى هذه الثورات المتتابعة على الظلم والطغيان فى مختلف صوره وأشكاله ..

فى هذا الرباط المتين الذى يربط جميع المؤمنين بالحب ، ويقودهم بالإيمان الخالص إلى العبودية لله وحده ، وإقامة الحرية والعدل والمساواة على النظام الذى أقامته الشريعة السماوية للإنسان ...

فى هذا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، الذى يقوم به المؤمنون الأمناء لنشر الفضيلة والقضاء على الرذيلة فى مجتمع نظيف ...

فى هذه الدعوة الحارة إلى الإيمان بالله ، التى يراها المؤمنون أوجب واجب عليهم ، فلا ينفكون عنها أينما كانوا ...

فى هذا الانبعاث الفردى الذى يرمى إلى أداء الرسالة ، هذه الرسالة التى يحس كل مؤمن صادق الإيمان أنه مسؤول بين يدى الله عن أدائها ...

فى هذا الكفاح المتواصل إلى الارتفاع بالبشرية عن الأوضار والدنس والمادية الجافة ...

هذه الصور وأشباهها ، مما يقوم به الأفراد أو الجماعات أو الطوائف ، هى حقيقة التاريخ الإسلامى .

أما تلك المواكب الفخمة ، وتلك القصور الشاهقة ، وتلك الجوارى الحسان ، وتلك الأموال المكدسة ، وأولئك الجنود المتهيئون للقتل والتخريب فى أية لحظة ، هذه الصور وأشباهها ، وهذه الدماء المسفوكة ، والحرم المنهوكة ، والرؤوس المقطوعة ، والأموال المنهوبة ، والمتع المتاحة لأفراد معينين ، هذه الصور وأشباهها ليست من تاريخ الأمة . إنها صور من تاريخ فرد ، أو أفراد ، يشتركون مع ذلك الفرد فيها ، إما لأنهم وسيلة الوصول ، أو لأنهم آلة الوصول ، وسواء كانوا وسيلة أو آلة فهم لا يكونون جانبا من الأمة .

وإن أملنا فى الله قوى أن يفتح باب الهداية لأمة محمد فيعتبرون بماضيهم وحاضرهم ، فيوحدون صفهم ، ويجمعون كلمتهم ، وينظفون قلوبهم من غير الله ، ويطهرون عقائدهم من آثار الفلسفة البشرية ، ويصرفون عن أفكارهم مجاراة أعداء الله فى الفسوق عن أمر الله . . .

كان أبو مسور يَصْلِيتَنْ النفوسىّ يتحدث مع بنته الطالبة الذكية ، بعد أن غسلت له ثيابه ونشرتها فى الشمس لتجف ، قال أبو مسور : أتمنى أن ينقى الله قلبى مثل هذه الثياب . فقالت البنت الذكية المتعلمة المؤمنة ؛ وددت أن الله جعل تطهير قلبى بيدى حتى أنقيه وأرسله إليه . فقال الشيخ : إنك أبلغ منى حتى فى الأمانى . .

والمسلمون ما لم يطهروا قلوبهم من غير الله ، وما لم يبنوا أعمالهم على الأسس السليمة التى أوضحها دين الله ، فإن سيرهم سيبقى متعرجا ، وأملهم بعيداً ، واتجاهاتهم متفرقة متباينة . . .

دخول المذهب الإباضي إلى ليبيا

إن سريان الأفكار والآراء والعقائد من بلد إلى بلد ، أو من قطر إلى قطر ، لا يمكن أن يؤرخ بالتحديد الزمني . فهي تتسرب تسرباً تدريجياً ، قد يبطىء وقد يسرع ، من فرد إلى فرد ، حتى تتغلب وتنتشر ، وعلى هذه الطريقة نفسها دخل المذهب الإباضي إلى ليبيا .

بدأ المذهب الإباضي يحرر آراءه وعقائده في أواخر النصف الأول من القرن الأول الهجري ، ولم يتم النصف الثاني من هذا القرن حتى كانت الأصول التي تميزه عن غيره من الفرق والمذاهب قد تقررت . ففي البصرة التي كانت من مراكز الإشعاع الإسلامي ، عاش إمام المذهب ، التابعي الكبير ، جابر بن زيد ، ما بين سنتي ٢٢ و ٩٦ هـ .

ومن هذا المركز الإشعاعي ، ومن البؤرة التي كان يستضيء بها هذا الإمام . امتد النور إلى مختلف البلاد الإسلامية ، بصورة تدريجية بطيئة ، على طريقة العقائد التي تحارب الباطل بالحجة لا بالقوة ، وتتسلح بالحق لا بالسيف ، ويعتنقها الناس بالاقتناع لا بالخوف .

ولعل التسامح في معاملة المعتدين من المسلمين ، والبساطة في مظهر السلطة والحكم ، والوضوح في الرأي والعقيدة ، والصراحة في قول الحق والعمل به ، والاستمساك بالواضح من دين الله ، كانت من الأسباب التي ساعدت على انتشار المذهب الإباضي في أكثر البلاد الإسلامية .

وفي ذلك الحين ، الذي كان فيه المعتزلة يشغلون أوقات الناس بالجدل ،

وكان الأزارقة ومن ذهب مذهبهم ينطلقون فى الأوساط الإسلامية المسالمة ، يبتزون الأموال ، ويقتلون الرجال ، ويستحلون سبى النساء والأطفال ، وكان الشيعة عاكفين على وضع الأحاديث فى فضائل بنى هاشم ، وتحبير الخطب البليغة على لسان على بن أبى طالب ، والتغنى بعصمة أهل البيت ، وكان أهل السنة والجماعة(١) من أتباع معاوية منهمكين فى مكافحة ثورات الخوارج وابن الزبير وغيرها ، وفى التقاط العيوب ، وتلفيق الأكاذيب ، لتكون مادة السب واللعن لعلى بن أبى طالب ، فى خطب الجمعة .

فى هذه الأحوال كان الإباضية ومن جرى هذا المجرى من التابعين وتابع التابعين يدعون إلى دين الله فى هدوء واتزان . لا يصخبون صخب المعتزلة حبًا فى الظهور ، ولا يحاربون حرب الأزارقة ، بالخطأ فى تأويل كتاب الله ، ولا يفرطون إفراط الشيعة ، استغلالا للعاطفة الدينية ، ولا يكذبون كذب بنى أمية ليقيموا الدولة ، ويحفظوا الملك .

وبهذه الروح المؤمنة التى تضع كتاب الله عز وجل وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام بين عينيها ، تدعو إليهما متجردة عن عواطف الحب والبغض فى غير الله . عازفة عن زخرف الدنيا وبهرجها ، متأكدة من معنى آيات كتاب الله فى التفريق بين المسلمين والمشركين ، معرضة عن حب الظهور الذى يسعى إليه المعتزلة جاهدين — كان الإباضية يعملون .

وذهبت هذه الدعوة المعتدلة التى لا تحيد عن منهج الإسلام فى البلاد

---

(١) جعل معاوية سب على بن أبى طالب على المنابر سنة . وسمى أتباعه أهل السنة ولما تنازل الحسن عن الخلافة زاد لفظ الجماعة فسماهم أهل السنة والجماعة .

دون جيش أو سيف أو مال ، فانتشرت فى العراق والجزيرة العربية ، ثم امتدت إلى مصر ، ومن مصر دخلت بهدوء إلى ليبيا وما بعد ليبيا من المغرب الإسلامى الكبير .

ولكن اتصال هذه البلاد من الوطن الإسلامى بمصدر الإشعاع فى البصرة ، كان بعد ذلك يتم رأساً بين كل قطر من هذه الأقطار والبصرة . ولم تمض عشرون سنة من القرن الثانى الهجرى حتى كان المذهب الإباضى منتشراً فى ليبيا وتونس والجزائر ، كما انتشر فى العراق والجزيرة العربية وعُمان .

سلمة بن سعد

رجل امتلأ قلبه إيماناً بالله ، ووعى عقله القوى ما دعا إليه الكتاب الكريم ، واتسع فهمه الذكى لما دعا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستحوذ على نفسه وحسه وجوارحه اليقين بدين الله ، فانطلق يدعو إلى الله ، لا يقيم للدنيا وما فيها وزناً ، ولا يحسب للناس وأعمالهم حسابا ، ولا يخشى للتعب والمشقة عاقبة ، ولا ينظر إلى المعارضة إلا على أنها عوارض تعترض طريق المؤمن فيجب عليه أن يتخطاها .

قلبه عامر بالله وحده ، فلا يتردد لأى أثر من مخلوق ، وجسده بما فيه من قوى مادية وروحية مسخر للدعوة إلى الله ، لا يفتر ولا يلين ولا يتوقف .

انطلق من جزيرة العرب إلى أفريقيا وحيداً منفرداً ، يقتحم المجاهل ويدخل القفار ، ويغشى المجتمعات التى لا تعرف له جنساً ولا لغة ، وليس له من سلاح فى كل ذلك، إلا ذلك الإيمان الذى عمر به قلبه ، وتلك المعرفة الشاملة لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وسيرة السلف الصالحين من الصحابة والتابعين ، ولم يمض عليه عشر سنوات حتى كانت دعوته تنتشر ما بين تلمسان وسرت ، وحتى كان المذهب الإباضى مذهباً لأغلب السكان فى ليبيا وتونس والجزائر .

كان يقول فى مبدإ أمره وددت أن يظهر هذا الأمر يوماً واحداً فما أبالى أن تضرب عنقى .

وقد تحقق أمله فى الله فى مدة لم يكن يتصورها ، وأصابه من التوفيق ما يضفيه الله على الأخيار من خلقه ، الذين تعدهم الأقدار لتبليغ رسالة الله بعد

الأنبياء عليهم السلام فينطلقون بالدعوة صافية كما كانت فى عهد النبوة ، خالصة من الشوائب والبدع والخرافة .

كان سلمة بن سعد ينتقل بين بلدان شمال أفريقيا من جهة إلى جهة لا يعتمد على جيش ولا حرس ولا رفيق ، ولم يصحبه فى تلك الرحلات الطويلة من الجزيره إلى العراق ، ومن العراق إلى أفريقيا ، إلا إيمانه بصحة العقيدة وصفاء الفكرة ، وسلامة الدعوة ، ومعرفة واسعة للإسلام وأسراره ، وكانت هذه المميزات هى التى فتحت القلوب والعقول لدعوته وتقبلتها بقبول حسن .

وقد استطاع أن يوصل الدعوة إلى الأماكن التى لم تصل إليها ، وأن يوجه أفهام الناس إلى تفهمها ، وأن يوحد بينهم فى الاتجاه العملى ، حتى استطاع أن يكون منهم بعثة علمية توجهت إلى البصرة مركز الإشعاع فى ذلك الحين .

وقد استطاع أن يجعل أعضاء هذه البعثة العلمية من أماكن متفرقة ، بعيدة عن بعضها ، حتى يكون كل واحد منهم نبراسا يهتدى به فى جهة من الجهات ، وحتى يعملوا جميعاً على توحيد جهود الأمة ، وتوجيهها إلى الخير العام . ونجح سلمة فى إرسال هذه البعثة ، ونجحت هذه البعثة التى أطلق عليها « حملة العلم إلى المغرب » فى دعوتها والقيام برسالتها ، وكان من أعمالها ما سوف تقرأ بعضه فى حلقات هذا الكتاب .

لقد كان سلمة بن سعد بطلا من أبطال الإسلام ، وداعية من دعاة الحق والكرامة ، يتصف بجميع الصفات التى تلزم الداعية ، من معرفة كتاب الله وأسراره ، واستقامة على دين الله ومنهاجه ، وتخلق بآداب الإسلام وفضائله ، ووضوح فى المنطق ، وسلامة فى التعبير ، وقوة فى الحجة . كان مؤمناً من أخلص المؤمنين لدين الله ، فجزاه الله عن جهاده وكفاحه خير الجزاء .

ابن مَعْطِير الجَنَّاوُنِي

كان سكان ليبيا قبل الفتح الإسلامى ، إما وثنيون يعبدون الأصنام ، وإما نصارى يتبعون المسيحية المحرفة ، فلما بلغت الدعوة الإسلامية ليبيا ، فى بساطتها ووضوحها وصراحتها ، وهدايتها بالحق وإلى الحق ، وتقريرها لعلاقة الإنسان بالإنسان ، وعلاقة الإنسان بخالق الإنسان ، على مبدإ تساوى بنى آدم فى حقوق البشرية والعبودية لله وحده . اعتنقها الناس لهذه الأسباب ، حينما قارنوا الحق الواضح فيها بالأباطيل التى كانوا يتبعونها ، ولما كان حاملوا الدعوة جيوشاً مهمتها الفتح ، والجيوش الفاتحة لا تجد الوقت الكافى لنشر الثقافة الإسلامية الواسعة ، لذلك فقد تكونت حركة البعوت العلمية إلى المشرق .

لقد جاء سلمة بن سعد فى أوائل القرن الثانى ، يدعو الناس إلى التمسك بدين الله ، وعدم الانصياع لعبدة الأهواء ، وطلاب الدنيا ، والانخداع لأصحاب البدع ، تلك البدع التى ضل بها ناس عن صراط الله السوى ، وأضلوا بها .

وفى هذا الوقت الذى كان فيه هذا المؤمن الداعية يكافح من أجل المحافظة على صفاء دين الله وسلامته من الأهواء والانحرافات والبدع ، فى هذا الوقت كان بطل آخر من أولئك الأبطال الذين يملكون إرادة أقوى من الزمن ، وعزماً أشد من مصائب الحياة ، كان هذا البطل قد قطع المسافة الطويلة بين جبل نفوسه والبصرة فى العراق ، ليغترف العلم من منبعه الصافى : أبى عبيدة مسلم ابن أبى كريمة ، وزملائه فى البصرة . فى ذلك المعمل الذى أسس فى ظاهره لإنتاج القفاف ، وفى حقيقته لإنتاج الدعاة من حملة دين الله المخلصين . فأنتج رجالا كانوا مثلا أعلى للأسرة المسلمة ، فى صحة العقيدة ، والتمسك بالدين ، والفهم

الحق لرسالة الإسلام ، والتخلق بأخلاق سيد المرسلين ، ومن اهتدى بهديه من المؤمنين المتقين .

هذا البطل الذى أتحدث عنه : هو العلامة محمد بن عبد الحميد بن معطير الجناونى ، فعند ما كان الداعية سلمة بن سعد يكافح لتكوين بعثة علمية من أنجب الطلاب ، كان ابن مغطير يغترف العلم من منهله العذب .

ورجع إلى وطنه قبل أن تسافر البعثة العلمية التى كونها سلمة بن سعد ، والتى كان لها شأن هام فى ليبيا . شأن فى نواحى الحياة المختلفة ، ناحية السياسة ، وناحية الدين ، وناحية المجتمع .

بقى ابن مغطير مرجعا فى التدريس والفتوى ، حتى تخرجت البعثة العلمية فى البصرة ، ورجعت إلى المغرب الإسلامى ، باسم (حملة العلم إلى المغرب) فامسك ذلك العلامة البطل عن الفتوى ، معتذرا بأن حملة العلم أولى بالفتوى ، لأنهم أخذوا عن الإمام بعد أن حرر جميع الأقوال .

إن ابن مغطير هو أول ليبى فكر فى تكوين البعثات العلمية ، ونفذ الفكرة فى نفسه وتبعه الآخرون .

والوطن الليبى بل المغربى مدين لهذا الجندى المجهول الذى يقطع هذه المسافات الطوال من ليبيا إلى العراق فى ذلك الزمن الذى يعسر فيه الانتقال . منفرداً وحيداً ، يحمل مشعل العلم والنور إلى وطنه ، حتى يستنير به أبناء هذا القسم من الأمة العظيمة فى هذا الطرف من المملكة الشاسعة التى لم تتح لها ظروف الفتح أولا ، والثورات الحمقاء المجنونة ثانيا — لم تتح لها هذه الظروف غير المستقرة أن تهتم بقضية العلم والتعليم ، التى هى أهم رسالة يدعو إليها الإسلام ويطالب بها بنيه .

ومع هذا المجهود الجبار الذى يبذله هذا البطل لخدمة الأمة و إعلاء كلمة الله ، يمر عليه التاريخ فلا يشير إليه إلا إشارات عابرة ، كما يشير إلى أى شخص عادى . ومع ذلك فالرجل راض عن هـذا الموقف من التاريخ ، ونحن أيضاً راضون له بهذا الموقف من التاريخ ، لأنه عندما كان يقدم على ألوان الكفاح ، واقتحام العقبات والصعاب ، لم يجعل فى عمله حسابا للتاريخ ، أو لرأى الناس فيه ، أو لمدح المحبين ، ونقد المبغضين . لقد كان عمله خالصاً لله ، وقد علمه الله ، وعنده وحده يكون الجزاء .

ومهما يكن ، فقد فتح الطريق للبعثات ، واستجاب لأمر الله ، حين أوجب على طائفة من المسلمين أن يتفقهوا فى الدين ، لينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم ، وربط الصلة بين مشرق الأمة ومغربها ، ودعا إلى تطبيق أحكام الله ، وتنفيذ أوامره ، حسبما كان معروفاً فى زمنه صلى الله عليه وسلم وفى زمن الخلفاء الراشدين ، وكان شديداً فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقافا عند حدود الله ، لايتدخل فيما لايعنيه ، ولـكن عندما يجترىء مجترىء على الحق يقف له موقف المؤمن الغيور الذى لاتأخذه فى الله لومة لائم .

وقد بارك الله فى عمره ، فامتدت به الحياة إلى أن جاء الإمام عبد الوهاب إلى جبل نفوسة ، فـكان يحضر مجلسه على كبر سنه . ولعل فى الحادثة الآتية مثلا رائعاً لمن أراد أن يقتدى بأعلام الإسلام وأدبهم فى إقامة الحق واتباع دين الله :

ارتفع رجلان فى خصومة إلى الإمام عبد الوهاب ، فاستردد الإمامُ المدعى عليه الجواب ، ولـكن الرجل اعتز بالإثم ولم يجب الإمام ، فسأل الإمام عن ابن مغطير ، فأجيب بأنه غير موجود ، فقال للخصمين قوما إلى غد ، ورجع إليه الخصمان فى اليوم الثانى والثالث ، فكان موقفهما منه مثل موقفهما فى اليوم الأول . وفى اليوم الرابع عندما تخاصما من جديد وطلب الإمام إلى المدعى عليه أن يجيب فلم يجب ، سأل الإمام عن ابن مغطير ، وكان بناحية من المسجد ، فما أتم الإمام

سؤاله حتى وثب ابن مغطير — وكان شيخاً طاعناً فى السن — على الممتنع ، فوطئه بركبته ، ولم يتركه حتى استغاث بالإمام وأذعن للحق .

وفى القصة مثل رائع عن خلق هؤلاء الأئمة وأدبهم ، هؤلاء الأئمة الذين لا يرتفعون عن الأمة ولا يحتجبون عن أفراد الشعب ، ولا يتخذون قصوراً دونها حرس وحجاب ، وإنما كانوا يجلسون فى المساجد كما يجلس أى مسلم ، وهم يتولون شؤونها ، وينظمون أمورها ، ويفصلون مشاكلها بروح الإسلام الذى يفصل بين الناس بالعدل لا بالقوة ، وبالحق لا بالغطرسة ، وبالبساطة لا بالتبجح والدعوى .

وفى القصة مثل آخر رائع ، ضربه ابن مغطير ، هذا الشيخ الهرم ، الذى حضر دروس أبى عبيدة قبل أن يحضرها أبو هذا الإمام ، وامتدت به الحياة حتى رأى هذا التجنى على الحق والاستكبار عن أمر الله ، وإساءة الأدب أمام أمير المؤمنين ، فأراد أن يعلم الحاضرين فى المسجد أن القوى أمام الحق ضعيف ، وأن الضعيف إذا كان فى جانب الحق قوى . بل أراد أن يعلم أولئك الحاضرين أن الحقوق لا تعطل لاستكبار المستكبرين ، واعتزاز الآثمين بالإثم ، فإذا خطر لأحدهم أن يقف هذا الموقف ، وجب على أولئك الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر أن يتناولوه بالشدة ، وأن يعلموه بالأدب .

أما العبرة الثالثة التى نستخلص من هذه القصة ، فهى هذا الاحترام العظيم الذى يسبغه الإمام العظيم على العالم العظيم . إن عبدالوهاب لم يتوقف عن تأديب هذا الشخص خوفاً منه ، ولا جهلا بأحكام الله ، ولا تساهلا فى دين الله ، ولكنه أدب طبع عليه ، وتقدير لهذا العلامة الذى يجب أن يستشعر كل مسلم فى ذلك الحين عظمته وطموحه ومحبته لدين الله ، وكفاحه من أجل العلم .

إن ابن مغطير ، هذا الرجل الذى جاب الآفاق طلبا للعلم ، وعاش للتدريس والفتوى ، ثم حمل أمانة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لَمَثَلٌ حى يجب أن يقتدى به المؤمنون . . .

كفاح الإباضية ضد الطغيان

كانت جيوش الفتح الإسلامى تحمل رسالة الله منطلقة بها فى البلاد ، تدعو إلى الإسلام ، الاسلام المجرد الذى دعا إليه محمد صلى الله عليه وسلم ، نظيفا من الظلم ، نظيفاً من الطغيان ، نظيفاً من الجهل ، نظيفاً من العنصرية ، نظيفاً من البدعة ، فكانت الشعوب تستبق إليه ، وتدين به ، مؤمنة مخلصة .

فلما انتهى عهد الخلفاء الراشدين ، بما يحمل من هدى وعدل وحق ، وخلفه ملك عضوض ، يتنازع عليه أهل البيت الواحد قبل أن ينازعهم فيه البعداء عنهم ، ويجده من حصل عليه منهم فرصة سانحة للاستغلال . الاستغلال فى أبشع صوره ومظاهره ، وأصبحت النفس المسلمة التى حرم الله قتلها ، أهون عندهم من نفس ذبابه ، وانحرف أولئك الذين يحملون أمانة الدولة عن الطريق التى رسمها لهم كتاب الله ، وهدى محمد عليه السلام ، وسيرة أصحابه الأخيار ، رضوان الله عليهم .

لما انحرف من بأيديهم مقاليد الدولة عن سبيل الله القويم ، إلى سبل مهدها الشيطان للنفس والهوى . ثار الناس . وكان حقاً على المؤمنين أن يثوروا لهذا التبدل ، وأن يعترضوا هذا الانحراف من حملة رسالة الله ، وأن يقفوا ضد الطغيان والظلم والعدوان .

ولقد اتخذت هذه الثورة على الانحراف عن دين الله مظهرين فى الكفاح :

- أولها : كفاح الباطل الزاحف فى ركاب الأمراء والعمال وأتباعهم .
- وثانيهما : كفاح الباطل الزاحف فى ركاب المبتدعين من أدعياء العلم والإيمان .

ويتضح الأول فى الثورات الدموية — ضد الظلم — التى انتشرت فى جميع

الجهات للإطاحة بأجهزة الحكم الفاسدة ، والتى لا تزال إلى اليوم تقف هذا الموقف ، تسنح لها الفرصة فتمتشق الحسام . و يضيق عليها الخناق فتكتفى بالنقد .

ويتضح الثانى فى مواقف العلماء المخلصين من البدع والأهواء ، وفى تشوق الأمة إلى معرفة الحقائق العلمية من مصادرها الموثوق بها ، ولذلك تلجأ إلى إرسال البعثات رغم ما تتكبده فى ذلك من مشاق وأتعاب .

ولقد وقف الإباضية فى ليبيا كما يقف جميع المسلمين المخلصين إلى جانب دين الله ، يدافعون عن الحق بما أوتوا من سلاح وعلم ، وفى الفصول المقبلة سوف نعرض صورا من كفاح الإباضية ضد الطغيان ، وصوراً أخرى من كفاحهم ضد الجهل والبدعة والخرافة والانحراف عن سبيل الله .

بدأ كفاح الإباضية ضد الطغيان ، فى سلسلة ثورات قاموا بها فى ليبيا . وكانت الشرارة الأولى التى أوقدت هذه الثورة ، ثورة الإباضية على عدوان عمال بنى العباس ماستقرؤة فى الفصل الآتى .

ثورة الإباضية على الياس بن حبيب

يقول الأستاذ الطاهر الزاوى فى كتابه « تاريخ الفتح العربى فى ليبيا » : « عين عبد الرحمن أخاه الياس عاملا على طرابلس ، وما زالت العرب إذ ذاك يخافون ثورة البربر وتدبير مكائدهم ، وكان رئيسهم فى طرابلس عبد الله بن مسعود التجيبى رئيس الإباضية ، فقبض عليه الياس وضرب عنقه » .

وهكذا يناقش الأستاذ الزاوى هذه القضية على أنها قضية عرب وبربر لا دخل للإسلام فيها ، وما دام القاتل عربياً والمقتول بربرياً فالقضية لا تستحق الاهتمام . وزعم الأستاذ الزاوى أن عبد الرحمن أراد أن يسترضى الإباضية فأقال أخاه الياس ، ولكن هذا العمل لم يرض الإباضية ، فقال الزاوى فى نفس الكتاب وفى نفس الصفحة : « وما زال الإباضية فى غضبهم حتى نزعوا إلى الفتنة » انتهى كلام الأستاذ الزاوى .

إننى أريد أن أناقش هذه القضية بروح غير الروح التى يناقشها بها الأستاذ الزاوى ، أريد أن أناقشها بروح المسلم الذى يستوى عنده العربى والبربرى ، والأمير والفلاح ، (المسلمون تتكافأ دماؤهم) وأن أعرض هذه القضية على دين الله .

إن عاملا فى دولة إسلامية خاف من فرقة أو قبيلة أن تثور على ظلمه ، وترد عليه عدوانه ، فدعا إليه رئيس هذه الفرقة أو القبيلة وقتله ، دون أن يرتكب هذا الشخص ما يحل به دم امرىء مسلم ، وليس له من جريمة إلا أن العامل الظالم كان يخشى عواقب ظلمه وطغيانه .

هل نجد مسلماً صحيح الدين ، سليم العقيدة يحل دماء المسلمين لوساوس الأمراء ومخاوف الظالمين . فيفتى بجواز هذا القتل .

أى شرع ؟ أو أى عقل يحل دم مثل هذا الرجل البرىء ؟ ثم لماذا لا نعتبر هذا الاستخفاف بدماء المسلمين وإراقتها دون موجب بحثاً عن فتنة ، وإثارة لثورة ، وتدبيراً للمكائد ؟ .

إن الإسلام قد حرم دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم ، ولم يبح منها شيئاً لوساوس الحكام وتخيلات العمال ، وأوهام الأمراء ، ومكائد الحواشى . . .

إن رجلا يتولى أمر جماعة من المسلمين فيبلغ به الهوس إلى هذا الحد حقيق أن تثور عليه الأمة ، وتقتص منه للحق والعدالة ، وقد ثارت الأمة واقتصت . . .

ثارت بالطريقة التى يدعو إليها الإسلام ، وفى الحدود التى جعلها المشرع الحكيم . واقتصت بالطريقة التى يدعو إليها الدين والعقل والإنسانية فى أسمى معانيها .

ولا أريد فى هذه القضية أن أرجع إلى مصادر الإباضية فى التاريخ ، ولكننى أعتمد أيضاً على الأستاذ الزاوى فى كتابه « الفتح العربى فى ليبيا » فاستمع إليه يقص علينا قصة هذا الثأر :

« وما زال الإباضية فى غضبهم حتى نزعوا إلى الفتنة ، وتقدم إلى قيادتهم أحد رؤسائهم وهو عبد الجبار(١) بن قيس المرادى ، فالتفوا حوله ، وأعلنوا الثورة

---

(١) بويع الحارث بن تليد إماماً ، وعين زميله وصديقه عبد الجبار المرادى قاضياً ، خلافاً لما ظنه الزاوى .

على العكى ، فخرج لمحاربتهم ، وأناب عنه فى القيام بشئون المدينة « بكر بن عيسى » فحاصروا العكى فى بعض القرى ، فطلب منهم الأمان فأمنوه ، وأخذوا من أصحابه نصير بن راشد مولى الأنصار فقتلوه فى عبد الله بن مسعود التجيبى . »

لست أدرى لماذا يريد الأستاذ الزاوى أى يرمى الإباضية بطلب الفتنة ، وهو نفسه يقرر أن الإباضية لم يقوموا ضد هؤلاء العمال الظالمين بشىء ، حتى بدأ هذا العامل الموسوس عدوانه عليهم ، فقتل رئيسهم دون جريرة ، فثاروا ، ولما انتصروا لم يزيدوا عن قتل رجل واحد ، رجل برجل حسب أمر الله . أما العامل العكى فقد أطلقوه فى أمان بعد أن تم لهم النصر .

إن هذا الموقف المشرف لم يقفه عامل واحد من عمال بنى أمية أو بنى العباس فى حروبهم ضد أى طائفة من المسلمين ، وفى حروبهم الطويلة مع الإباضية ، ولم يتجاوز أئمة الإباضية هذا الموقف المشرف فى جميع حروبهم مع الموحدين .

ومع أن الحق فى هذه القضية واضح جلى ، والأستاذ الزاوى نفسه يروى حقائق التاريخ كما وقعت ، إلا أنه مع ذلك غير راض ، فيزعم أن الإباضية ينزعون إلى الفتنة ، ويثير قضية العرب والبربر ، هذه القضية العنصرية البعيدة عن روح الإسلام ، ولكنه حرص أن يحييها ويتتبعها ، ولا ينفك فى كل فرصة عن رمى البربر بأنهم أصحاب فتنة ، وتدبير مكائد ، وقد قدمت فى غير هذا الفصل من هذا الكتاب ، أن إحياء العنصرية قضية لايدعو إليها مسلم ، فقد حاربها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويكفى فيها قوله عليه السلام [دعوها فإنها منتنة] .

وقد حارب رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أقوام من العرب ، وارتد أقوام بعد الإيمان ، كما فعل ذلك أقوام من البربر وغيرهم من الأجناس ، ولكن

ما فعله أولئك الذين كتب لهم الشقاء ، لا يحسب جريرة على أجناسهم أو عناصرهم ، والإباضية يحرصون كل الحرص أن يكون الرابط الذى يربط بين صفوفهم إنما هو التمسك بدين الله ، كما جاء عن محمد صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن لديهم أى اعتبار لغير هذه الرابطة ، وحسبك أن تعلم أن هذا الإمام الذى بايعوه فى ثورتهم على الظلم ، ليناهض عدوان المعتدين من عمال بنى العباس الظالمين ، إنما هو الحارث بن تليد الكندى العربى ، فهل هذه الثورة فتنة من البربر ؟

إن الإباضية لا يعرفون العنصرية ، ولكن يعرفون أن أكرم المؤمنين عند الله أتقاهم ، وأن أبغضهم إليه أظلمهم وأعصاهم ، يستوى فى ذلك العرب والبربر ، والهنود الحمر والأحباش السود ، كلكم لآدم وآدم خلق من تراب .

إن مرارة العدوان على أقدس شىء فى شريعة الإسلام وهى النفس البشرية ، هى التى جعلت الإباضية يثورون ، وحق لهم أن يثوروا ، وأن يقلبوا نظام الحكم على أولئك الظالمين ، فإن حكم الله أحق أن يتبع . وهم عندما يثورون لا يطغون ولا يتجاوزون الحدود التى رسمها لهم حكم الله .

والأستاذ الزاوى على ذلك من الشاهدين ، فإن قتل النفس بالنفس هو الحكم الذى نزل به الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . ولن تجد مهما فتشت فى مطاوى التاريخ ، وعند غير الخلفاء الراشدين ، هذه المواقف المشرفة التى يقفها الإباضية من أعدائهم ، حين ينهزم أولئك الأعداء ؛ يُخير أمير الجند وقائد المعركة بين البقاء أو الرحيل آمناً موفوراً ، و تُسلم جميع الأموال والأعراض لأصحابها ، لا يمس منها دانق ولا درهم ، وتحترم الدماء ، فلا تُهرق قطرة دم بعد إيقاف القتال ، فلا عقوبة ، ولا تتبع ، ولا مثلة ، ولا حز رؤوس .

قارن هذا الموقف المشرف الذى لن تجده بعد الخلفاء الراشدين إلا عند الإباضية ، قارن هذا الموقف بمواقف أولئك الذين يحاربون الإباضية ويتهجمون عليهم ، ويقتلون منهم الأبرياء بغير ذنب ، ويهتكون الحرمات ، ويستحلون الأموال ، ويحزون الرؤوس ليبعثوا بها إلى دمشق أو بغداد . . . ومع ذلك فإن بعض المؤرخين الذين يعيشون فى القرن العشرين ، يحلوا لهم أن يقولوا : « ونزع الإباضية إلى الفتنة » .

أية فتنة هذه التى نزع إليها الإباضية ، أأن قتلوا القاتل ، نفساً بنفس فحسب وأطلقوا سراح بقية المعتدين ، لم يمسوا شيئاً من دمائهم وأموالهم وأعراضهم وحرماتهم ؟ لايتبعون مدبراً ، ولا يجهزون على جريح ، ولايأخذون دانقاً من مال ؟

ترى ما رأى هذا المؤرخ المعاصر لو أن الإباضية ارتكبوا ما يرتكبه فيهم محاربوهم ، فلم يعفوا عن مال أو دم أو عرض أو حرمة ؟

وما رأيه لو أن جميع الحروب التى وقعت فى التاريخ الإسلامى كان الدافع إليها والسيرة فيها مثل دوافع الإباضية وسيرتهم فى الدماء والأموال .

لقد كان الخوارج يستحلون دماء المسلمين وأموالهم بالتأويل الخاطىء ، أما رجال الدول الظالمة وأجنادهم فقد كانوا يستبيحون جميع الحرم من دم ومال وعرض بالعمل . وكلا الموقفين بعيد عن الإسلام ومبادىء الإسلام . . .

عمروس بن يمكتن (1)

مؤمن من المؤمنين المخلصين ، و بطل من أبطال الكفاح ، كفاح النفس عن الشهوة ، وكفاح الجهل بدين الله ، وكفاح الظلم والعدوان فى شتى مظاهره وألوانه .

قال فيه أبو العباس — وحسبك بشهادته شهادة « ساد أهل زمانه علماً وعملا ، وسارع إلى الخيرات قولا وفعلا ، قال ابن سلام : كان عالماً من علماء المسلمين » .

وهى شهادة من محقق ، لا تقل عن سابقتها لو كان الرجل يحتاج إلى شهادات ، ولكن هذا البطل وأمثاله من الأبطال فى غنى عن شهادات الناس لدينهم ولدنياهم .

كانت أمنيته وهو شاب صغير لا يجد مدرسة يلتحق بها ، أن يحفظ كتاب الله، وأن يعلمه للناس ، ولما عسر عليه هذا المطلب ، وعز عليه تحقيق الأمنية الغالية فى قريته النائية فى جبل نفوسة ، سافر إلى مغمداس . هذه الطريق التى يمر بها أفواج المسلمين مشرقين أو مغربين . فيأخذ معه لوحه منذ الصباح الباكر ، يعترض السابلة ، يتلقى منهم آيات من كتاب الله حتى إذا امتلأ لوحه رجع إلى البيت ليستظهر ما كتب من آيات بينات ، فإذا حفظها رجع إلى الطريق ، ولم يمض عليه وقت طويل فى هذا الكفاح حتى حفظ كتاب الله وكثيراً

---

(1) ذكره أبو زكريا فى الطبقة الثالثة ؛ فهو من علماء النصف الأول من القرن الثانى الهجرى . كان عاملا للإمام أبى الخطاب ، على سرت ونواحيها .

من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحينئذ اطمأنت نفسه ، ورجع إلى « أفاطمان » هذه القرية الحبيبة إلى نفسه ، والتى لم يبق منها اليوم إلا آثار شاهدة ، بين الخرابة والرحيبات من جبل نفوسه . وفى هذه القرية فتح عمرو ابن يمكتن أول مدرسة لتعليم كتاب الله . فكان الناس يقبلون عليه فى شغف ورغبة .

لقد أنجبت دَمْرَا بنت دَرْجو الحمدانية هذا البطل وهو أصغر أبنائها وحسبها ولداً .

كافح منفرداً فحفظ كتاب الله من السابلة . وافتتح أول مدرسة قرآنية ، ما لبثت أن أصبحت مناراً يشع النورَ والعلم والإيمان فى كامل جبل نفوسة ، بل فى كامل الجزء الجنوبى من ليبيا ، وصارت « أَفَاطْمان » منذ ذلك الحين مقراً لأهل العلم والفضل والدين .

أما عمرو بن يمكتن فلم يلبث أن انتقل من أَفَاطْمان ، انتقل ليكافح كفاحاً أعظم خطراً وأهم شأناً فى واجهة أخرى .

بايع الإباضيةُ أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح أميراً للمؤمنين على ليبيا وما جاورها ، بايعوه على أن يقيم فيهم كتاب الله ، ويحكم بينهم بحكم الله ، ويسير بسيرة الخلفاء الراشدين ، وأن يرد عنهم عدوان المعتدين ، وطغيان الطاغين وسارع إليه المؤمنون الذين ملوا الجبروت والجور والظلم ، وكان من أسرعهم إليه وأخلصهم لإعادة حكم الإسلام كما أنزله الله ، عمرو بن يمكتن ، وعرف الإمامُ دينه وخلقهُ وأمانته فوثق به ، ومن لا يثق بمثل هذا الرجل القوى الأمين ؟ فجعله قائداً على بعض الجند فى حروبه الأولى ، ثم عينه عاملا على سرت ، وَمَنْ أولى

بعمالة سرت من عمرو بن يمكتن ، هذا الرجل الذى عرف مسالك البلاد وطبائع أهلها وهو طالب علم يقتبس الحكمة والهدى من حملة كتاب الله .

« سرت » هى طريق العباسيين للعدوان ونجدة المعتدين ، ولذلك كان أبو الخطاب يلتمس لها عاملا تتوفر فيه معرفة البلاد وطبائع أهلها ، والقوة فى دين الله ، والعلم بأحكام الله ، والشجاعة فى مواطن الكفاح ، واليقظة والحذر والذكاء .

ووجد هذه الصفات فى هذا البطل ، فجرى به التعيين .

وذهب العالم الحافظ البطل إلى هذا الثغر ليحول دون غارات الأعداء ، وليذيق سكان تلك الجهات طعم السيرة المرضية ، السيرة التى دعا إليها دين الله ، وسار بها المؤمنون حقاً .

لقد اتخذ أبو الخطاب مركز الدولة فى طرابلس وكانت أهم الثغور عنده هى سرت والقيروان ، واختار الإمام أقوى رجلين عنده ليجعلهما فى هذين الثغرين ، فولى عمرو بن يمكتن الأفاطمانى على سرت وولى صديقه وزميله فى الدراسة عبد الرحمن بن رستم على القيروان . وهذا يدل أن منزلة والى « سرت » فى ذلك الحين لا تقل عن منزلة عبد الرحمن فى نفس أبى الخطاب ، ولعل مركز سرت فى ذلك الحين وهى معبر الجند والقوات أهم من مركز القيروان وهى مقصد الخوارج والمعتزلة وموطن الثورات والشغب .

أخذ العامل الحازم يعمل بما يقتضيه هذا المنصب : ينشر العدل ، ويوصل الحقوق ويقيم أحكام الله ويسير بين الناس سيرة المؤمن بين إخوانه المؤمنين ، وكان مستعداً لمحاربة الجيوش الغازية ، لا يخشاها ، وقلوب الناس معه وهم راضون عنه محبون له ، ولم يكن يخشى من تلك الجيوش إلا المباغتة

حينما ينصرف الناس إلى أعمالهم وقد أمنوا العدو . ولذلك فقد كان لا ينفك يسأل عن تحركات العدو ونواياه ، ومن مأمنه يؤتى الحذر .

إن عمرو بن يمكتن الذى يسير بسيرة أبى الخطاب لم يكن يتخذ جنداً مقيما ، تدفع له الرواتب ، وهو ينتظر الساعة التى يدعى فيها إلى الحرب كما يفعل بنو العباس ، ولما كان يسير سيرة الخلفاء الراشدين ، عند ما يحزب الأمر ويقتضى الدفاع أو إعلان الحرب ، يدعو الناس إلى التطوع فيتطوعون وهم يؤمنون بالفكرة ، ويحاربون عن مبدأ ، حاولت الجيوش العباسية أن تحارب أبا الخطاب علناً ، فلم تستطع ، وانهزمت هزائم منكرة فى عدة وقائع ، ولذلك لجأت إلى الحيلة .

كان محمد بن الأشعث الذى عينه أبو جعفر المنصور لمحاربة أبى الخطاب ، وجعل تحت قيادته جيشاً يتكون من سبعين ألف جندى معد للقتال يعرف أنه لا يستطيع أن ينازل هذا الإمام القوى فى جند يحارب عن مبدأ ، ويدافع عن حق ، فلجأ إلى الحيلة .

أوعز إلى من يخبر عمرو بن يمكتن عامل الإمام أبى الخطاب أن محمد ابن الأشعث لا يحاربه إلا علناً ، وفى وضح النهار ، وقال له « لا يأتيكم ابن الأشعث بغفلة ، وهو فى جند أمير المؤمنين برجال مشمرين ، وخيل مضمرات ، وسيوف مهندات ، بل يأتيكم جهاراً نهاراً » ، وهكذا أمن عامل أبى الخطاب على سرت من المباغتة ، ثم أظهر ابن الأشعث أنه ينوى الرجوع ، وأمر جيشه بالتحرك ، وقتل من اعترض الفكرة ، فكره الرجوع ، فانطلت الحيلة على أصحاب أبى الخطاب وهم كما قلت سابقاً متطوعون ، والموسم موسم حصاد ، ففضلوا أن يذهبوا إلى كفاحهم من أجل الحياة ما دام الخطر بعيداً ،

ورغم تحذير أبى الخطاب لهم وفهمه لنوايا ابن الأشعث ، إلا أن القوم تفرقوا ، وعندما فهم ابن الأشعث أن حيلته انطلت على أصحاب أبى الخطاب ، وأنهم تفرقوا عنه ، أغذ السير ، وجاءهم على حين غفلة ، وقتل عامل سرت فيمن قتل من الأبطال ، وتم النصر لابن الأشعث وجنده ، وارتكبوا من الجرائم — بعد الحرب — ما تعوده العمال الظالمون ، من نهب وسلب وتقتيل واتباع للفارين وترويع للآمنين المسالمين ، وانتهاك للحرمات التى صانها الإسلام ، وحفظها الإيمان بالله . .

وفى هذه الموقعة الحاسمة التى وقعت فى تاورغاء استشهد بطل من أشد الأبطال ، وعالم من أعظم العلماء ، ومؤمن من أخلص المؤمنين ، فاختتمت صفحة بيضاء من صفحات التاريخ الإسلامى ، سجلت عليها مآثر فى كفاح النفس وكفاح الجهل ، وكفاح العدوان .

وإذا كان سلمة بن سعد أول داعية إلى اتباع الحق فى هذه الربوع ، وكان ابن مغطير أول منفذ لفكرة البعثات العلمية ، وهما بذلك يبنيان ركناً هاماً فى تاريخ الكفاح العلمى ، فإن ابن يمكتن هو أول من استطاع أن يبلغ إلى درجة علمية بقوة الإرادة والعمل الدائب المستمر ، ثم هو أول من افتتح مدرسة لتعليم كتاب الله ، وبهذا العمل المجيد يحق أن يعتبر من أهم أركان الكفاح العلمى فى ليبيا ، ولكنه بالإضافة إلى هذه الصفات المشرفات التى يسجلها مع زميليه فى خدمة العلم والدين ، له صفحات أخرى مشرقات فى كفاح الظلم والطغيان . . .

إنه شخصية هامة فى تاريخ الحركات الإسلامية فى ليبيا ، وأنت حين تتحدث عن أبطال الكفاح السياسى أو العسكرى لا يمكن أن تغفل هذا

البطل القوى ، وحين تتحدث عن العلم والعلماء ، وعن الإيمان والمؤمنين ، وعن الكفاح من أجل الحق فى جميع ميادينه ، لا يمكن أن ننسى عمرو بن يمكتن، وهنيئاً لدَمْرا الحمدانية فيما أنجبت . . .

إن الحديث عن عمرو بن يمكتن باعتبار الحوادث السياسية يكون بعد أبى الخطاب ، ولكننى حين تحدثت عن جانب من الكفاح العلمى ، وتعرضت لسلمة وابن مغطير ، رأيت أن أتحدث عن هذا العامل هنا ، لأنه يمثل جانباً من الكفاح العلمى فى ذلك العصر ، وبه تتم الصورة التى أردت أن أضعها بين يدى القارىء الكريم ، لذلك العصر .

الحارث بن تليد

بطل من أولئك الأبطال الذين يظهرون فجأة عند الحوادث ، فيبرزون بين الصفوف لقيادة الجموع عندما تكون القيادة رسالة يجب على المؤمن أن يؤديها .

لقد كان الإباضية فى ليبيا منصرفين إلى دينهم وأعمالهم ، لاتهمهم مناصب الدولة ، ولا يلتفتون إلى كراسى الحكم . حتى تحرش بهم الياس بن حبيب فقتل أحد المؤمنين دون جريرة ، ليرهب جانبهم ، ويزرع فى قلوبهم الذعر فيما حسب ، ولكن القضية جاءت بعكس المطلوب .

طلبت الإباضية من عبد الرحمن بن حبيب أن يقتل أخاه الياس بقتله مسعود التجيبى ولكن العامل أبى من ذلك وكل ما فعله أنه عزل أخاه الياس عن ولاية طرابلس وولى بدله حميد بن عبد الله العكى ، يعنى أنه جعل العزل من منصب يكافىء دم مؤمن برىء . . .

ولما وقف العامل هذا الموقف البعيد من حكم الله ، ثار الإباضية ، فبايعوا الحارث بن تليد إماماً ، فتقدم وهو يعلم أنه يتقلد أمراً عظيما ولذلك اختار عبد الجبار بن قيس المرادى قاضياً ، ومشيراً ، وصديقاً ، فكانا ثنائياً لا يفترق ، حتى أنَّ كتب التاريخ لا تذكرهما إلا مقترنين ، بل إن بعض المؤرخين لم يعرف الأمير من القاضى .

وما سمع العكى والى عبد الرحمن بن حبيب على طرابلس ببيعة الإباضية للحارث بن تليد حتى جهز جيشاً وخرج للقضاء عليه ، ولكن النصر كان فى جانب الإباضية ، فتفرق جيش العكى وألقى عليه القبض فى إحدى القرى ،

فأطلق سبيله وخيّر بين البقاء ، له حقوق المسلمين وواجباتهم ، أو السفر آمناً موفوراً ، فاختار السفر ، ولم يقطع الإباضية رأسه ليعلقوها على سور المدينة كما يفعل الظالمون ، وإنما كل مافعلوه عندماتم لهم النصر أن قتلوا رجلا فى صاحبهم، رجل برجل كما يقضى حكم الله من سبع سماوات . . .

والتف الناس حول الحارث بن تليد فى ليبيا لعدله واستقامته وسيرته الرضية ، فاهتم لذلك عبد الرحمن بن حبيب وصار يرسل الجيش تلو الجيش للقضاء على هذه الإمامة التى انتزعت ليبيا من الحكم الظالم ، ولكن جميع هذه الجيوش كانت تعود إليه منهزمة ،وأصبحت ليبيا كلها تحت حكم الإمام الحارث بن تليد .

وعندما عرف عبد الرحمن أن القوة لا يمكن أن تنتصر على الحق ، وأن الجند الذين يحاربون عن متاع من الدنيا قليل ، لا يمكن أن يقفوا فى وجه جند يدافعون عن مبدأ اعتنقوه ، وحق اعتقدوه ، عندما عرف ذلك لجأ إلى الحيلة .

لقد كان الإمام الحارث يسير بسيرة الصفوة من حكام الإسلام ، لا يتخذ حاجباً ولا يجعل على باب بيته حارساً ، ولا يرد عنه متظلم أو باك ، ولذلك كان الناس يغشون بيته فى أى وقت شاءوا ليس بينهم وبينه إلا الإذن الذى فرضه أدب الإسلام على المؤمنين .

واستغل العدو هذه السيرة العطرة فى أبشع ما يستغل به الحق للباطل ، فقد أوعز إلى جماعة ممن لا دين لهم ولا ضمير ، فدخلوا على الإمام وكان قاضيه وصديقه معه ، دخلوا فى صورة متخاصمين ، ولما اطمأنوا إلى أن الإمام والقاضى مستغرقان فى تفهم المشكلة المعروضة عليهما ليحكما فيها بما أنزل الله وهما غير

مسلحين ، وثبوا عليهما وقتلوهما ، وجعلوا فى يد كل واحد منهما سيفاً ، ثم خرجوا ، وكأنهم لم يرتكبوا أفظع جريمة يرتكبها رجل سُلب الإيمان والضمير .

واكتشفت الحادثة فيما بعد ، واعتقد كثير من الناس أن الصديقين تنازعا فقتل كل منهما صاحبه ، وكثر النقاش فى معرفة الظالم من المظلوم ، ولم تنجل الحقيقة إلا بعد أن وجد عبد الرحمن بن حبيب الفرصة التى يتحينها ، فحينما كان الإباضية فى موقف الحائر المتردد فى معرفة الحادثة والأسباب الداعية إليها ، وعندما كان العارفون منهم يحاولون أن يوحدوا الصفوف والجهود فكانوا يسترشدون برأى إخوانهم فى المشرق ، وكان الرسل يقطعون المسافات الطويلة ذهاباً وإياباً ، فى هذا الحين استطاع العامل القيروانى أن يكسب المعركة ، وأن يرجع إليه حكم البلاد . وهكذا نجحت المكيدة حينما فشلت القوة ، ولم تزل المكائد والغيلة هى سلاح الظالمين فى كل عصر ومصر .

أبو الخطاب عبد الأعلى

كانت دروس أبي عبيدة في معاني الحرية ، وفي الكرامة البشرية ، وفي وجوب إقامة شعائر الله ، والمحافظة على حقوق الإنسان التي أقامها الإسلام ، وفي تحريم الخنوع والذلة والاستسلام على المؤمنين ، وفي وجوب محاربة الطغاة ومطالبتهم بالوقوف عند حدود الله ، كانت تلك الدروس الدينية والوطنية قد أثرت تأثيرها الحسن على نفوس طلابه الذين لقبوا فيما بعد «بحملة العلم إلى المغرب» ولذلك فقد سألوه عندما أخذوا حظهم من العلم ، وتحصلوا على الدرجة التي تؤهلهم لتبليغ الدعوة ، الدعوة إلى دين الله كما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سألوا الإمام الكبير هل يجوز لهم إذا أنسوا في أنفسهم قوة ، ورأوا أنهم يستطيعون أن يقيموا أمر الإسلام على ما جاء في دين الله وسيرة السلف الصالحين ، هل لهم أن يقوموا بذلك ؟، واستمع الإمام إليهم وهو يتوقع منهم خيراً وأذن لهم في العمل، واختار لهم أبا الخطاب ليقوم بأعباء الدولة المسلمة الجديدة ، فإن امتنع قتلوه وولوا غيره .

ورحل الزملاء الأصدقاء الذين ربطت بينهم أواصر الدين وزمالة الدراسة ، فاختاروا ليبيا لأقامتهم ، واستقروا بعاصمتها طرابلس ، هذه المدينة الجميلة الحالمة على شاطىء البحر الأبيض المتوسط ،أما البلاد التابعة لهذه المدينة فقد كانت تمتد في الأقطار الثلاثة : ليبيا ، تونس ، الجزائر ، هذه الأقطار التي أصبحت اليوم ممالك مستقلة عن بعضها بما أقامه الاستعمار من حدود بينها . أما في ذلك التاريخ فإن الإسلام لا يقيم الحدود ولا يقسم الشعوب ، ولا يعرف القوميات الضيقة ، ولا الجنسيات المختلفة ، إن المبدأ الذي يؤمن به الجميع هو: (الله ربنا ، والإسلام

ديننا ، ومحمد نبينا ، والكعبة قبلتنا ، والقرآن إمامنا ، رضينا بحلاله حلالا ، وحرامه حراماً ، لا نبتغى به بدلا ، ولا عنه حولا ، لاجنس ولا لون ، ولا وطن ، فالجنس هو البشرية ، والوطن هو بلاد الإسلام ، أما اللون فإن الأبيض والأسود والأصفر والأحمر كلها من خلق الله الذى أحسن كل شىء خلقه ثم هدى .

استمرقت البعثة العلمية فى طرابلس وكانت البلاد فى ذلك الحين تعانى من الظلم والجبروت، وتقاتل الولاة على مناصب الدولة لابتزاز الأموال، واستذلال الناس ، والحكم بالهوى الذى ما أنزل الله به من سلطان . كانت البلاد تعانى من ذلك ما لم يبق فى قوس الصبر منزعاً ، أو فى صـــدر الحليم سبباً للأناة والاحتمال . وتشاور أربعة أصدقاء من أفراد البعثة فى إنقاذ الأمة من هذا الطغيان المسلط عليهم ، وإتاحة فرص الحياة الكريمة لهم ، وإقامة أحكام الله كما أنزلها الله، وعرضوا فكرتهم على أصحاب الرأى والعلم من أهل البلاد، فوجدوا منهم إقبالا وتشجيعاً . وحينئذ أخبروا زميلهم الخامس أبا الخطاب أنهم مطلوبون إلى صلح بين متخاصمين فى الضاحية الغربية لطرابلس « صياد » وتم الاجتماع واتفقوا على مبايعة أبى الخطاب بالإمامة، فلم يدر إلا والقوم يطلبون منه أن يمد يده للبيعة فيحكم بينهم بكتاب الله ، ويقيم الحدود، ويسير بسيرة الخلفاء الراشدين ، وحاول أن يمتنع من هذه المسؤولية العظمى ، وأن يتخلص من هذا الموقف الذى توضع فيه أمانة الأمة بين يديه ، وأجاب القوم بأنهم إنما أتوا لإجراء صلح بين متخاصمين لا لإقامة خلافة ، ولكنهم أصروا على موقفهم، وذكروه بوصية الإمام أبى عبيدة وخيروه بين قبول البيعة أو القتل ، فرضى مكرها ، ولكنه اشترط عليهم أن لا يذكروا مسألة الحارث وعبدالجبار، واشترطوا عليه ما يشترطه المؤمنون الذين يلقون بمقاليد أمورهم إلى رجل يثقون بدينه وأخلاقه وأمانته ، وقت البيعة ، ورجع القوم دون قتال لأن جميع السكان كانوا يتوقون إلى الخلاص مما هم فيه

من عذاب ، ودعا أبو الخطاب الوالى السابق على المدينة ، فخيره بين البقاء ، وله ما لأخوانه من المسلمين ، وعليه ما عليهم من الحقوق والواجبات ، أوالرحيل آمناً موفور الكرامة ، فاختار الرحيل . ورتب أبو الخطاب أمور الدولة ، فأسند القضاء إلى ابن درار الغدامسى وولى عمرو بن يمكتن على سرت وما والاها .

بدأت الأخبار ترد على أبى الخطاب بما ترتكبه قبيلة ورفجومة البربرية من فظائع فى القيروان ، فقد سمع بعتوهم وطغيانهم وجورهم وسومهم الناس سوء العذاب ، وربطهم لدوابهم فى المسجد الجامع ، وأرسلت إليه امرأة كتاباً تخبره فيه أنها تحفظ ابنتها فى مطمورة خوفاً من ورفجومة ، وأتاه رجل أخبره أنه مر بالقيروان فرأى ناساً من ورفجومة كابروا امرأة على نفسها ، والناس ينظرون إليهم ولا ينكرون ذلك خوفاً منهم ، و بلغه أن جماعة أخرى من هؤلاء الناس أخرجوا امرأة وهى تصيح : يا معشر المسلمين أغيثونى ، فلم يغثها أحد . عندما تواترت هذه الأخبار عند أبى الخطاب؛ دعا الناس إلى اجتماع ، وحثهم على الجهاد فى سبيل الله ، ودفع المنكر الذى يؤتى علنا فى بلد مسلم ، و بين أناس مسلمين . فاجتمع عليه عدد وافر من أهل البصائر الذين يؤثرون الآخرة على الحياة الدنيا ، فأمر منادياً ينادى فى الجيش ، من كان له أبوان أو أحدهما أو له عروس جديدة فليرجع بليل ، وفى الصباح يتقصى الأثر حتى إذا انقطعت الآثار الراجعة ولم يبق معه إلا أولئك الذين عزموا على الاستماتة فى كفاح الباطل .

سار بهم حتى أتى قابساً فاحتلها دون عناء ، وجعل عليها والياً ، ثم سار إلى القيروان .

لقى جموع ورفجومة فقاتلهم حتى انهزموا ، فتحصنوا بالمدينة ، فبقى محاصراً لها مدة طويلة حتى اضطروا إلى القتال من جديد ، ووقعت بينهم موقعة هائلة ،

أسفرت عن انهزامهم ، فأمر بأن لا يتبع مدبرهم، ولا يجهز على جريحهم ، ولا يؤخذ شيء من أموالهم ، وأعلن الأمان للناس ، فخرج الناس إلى أعمالهم كما كانوا يفعلون أيام السلام ، ومرت امرأة بميدان القتال وعجبت حين وجدت قتلى ورفجومة مجندلين فى ساحات الكفاح دون أن يمس شيء من أسلابهم ، فقالت : « كأنهم رقود » وسمى المكان منذ ذلك اليوم « رقاده » وإن حاول بعض الناس فيما بعد أن يغير هذا الاسم .

وكانت مفاجأة مذهلة للناس عندما وجدوا مزارعهم وحقولهم وثمارهم سليمة لم يمس منها شيء إلا إذا كان من تقلبات الجو أو وحوش الصحراء ، وعجبوا من عدل هذا الإمام ، ونزاهته وطاعة الجيش له ، وغفلوا أن هذا الجيش إنما يتكون من جند يعملون لمكاسب الدنيا من رواتب يقبضونها ، وغنائم يختلسونها ، وإنما قوام هذا الجند قوم يدافعون عن الحق والدين ، لا يبتغون عرضاً من الدنيا ، ولا غنيمة فى هذه الحياة القصيرة ، ولا جاهاً عند الناس . وتفقد الإمام القتلى ، فوجد واحدا منهم قد أخذ سلبه ، فأمر برد كل ما أخذ ، ولكن الغال ، لم يسمع لأوامر الإمام واحتفظ بالسلب ، وغلب عليه الشيطان . وعندما رجع الجيش بعد أن دفع المنكر عن الأمة وأشاع الأمن فى البلاد ، وأرجع الحقوق إلى أهلها ، وعندما رجعوا وكانوا بالطريق خطر لهم أن يتسابقوا .

ووقع السباق بين الفرسان لإظهار البراعة والرشاقة ، وكان جميل السدراتى ممن يثق بنفسه ويعجب بفرسه فاشترك فى هذا السباق ، ولكن شاء له سوء حظه أن ينقطع حزام سرجه ، وأن ينكشف السلب تحته ؛ وأن يشهد فضيحته كل الجيش فأدبه الإمام على خرقه لنظام الجيش واستحلاله لمال المسلمين ، وغلوله لما حسبه غنيمة .

وقال خالد اللواتى للإمام ، « نأكل من أموالهم كما يأكلون من أموالنا ، فقال الإمام : حقيق على الله أن يدخلنا معهم النار إذن .

وارتحل أبو الخطاب وجيشه إلى طرابلس بعد أن نصب عبد الرحمن بن رستم والياً على القيروان .

استكبر جميل السدراتى أن يفتضح أمره أمام الناس وأن يقام عليه الحد ، ولذلك فقد التحق بأبى جعفر المنصور وبقى يبذل المحاولات سنة كاملة ليقنع أباجعفر بضرورة حرب أبى الخطاب والقضاء عليه ، واستجاب له أبوجعفر أخيراً .

وبدأ يجهز الجيوش إثر الجيوش لمقاتلة أبى الخطاب ، و بعد وقائع مذهلة ذاق فيها أبو جعفر مرارة الهزيمة استطاع محمد بن الأشعث أن يغرر بجيش أبى الخطاب وأن ينتصر عليه الانتصار الحاسم . وأن يرتكب من الفظائع ما يبرأ منه الإسلام والمسلمون .

إننى لم أضع هذا الكتاب لسرد وقائع التاريخ إلا بمقدار الضرورة التى أراها واجبة لتوضيح الصورة التى أضعها بين عينى القارىء الكريم ، فإن الوقائع التاريخية توجد فى الكتب المعتنية بذلك مفصلة وإنى أريد فى هذا الكتاب أن أجلو سيرة أهل هذا المذهب وأثر الدين والعقيدة على سلوكهم الفردى والجماعى وتوجيهه لهم فى حالتى الحرب والسلم والظهور والكتمان . . .

ولقد قام أبو الخطاب بعدة حروب ، بعضها مع البربر ، وبعضها مع العرب ، وبعضها مع مزيج منهما ، ولكن سيرته فى كل ذلك كانت سيرة واحدة . كفاح للظلم والطغيان ، ودفع للمنكر والعدوان حتى إذا انتهت الحرب أشاع الإمام

الأمان بين الناس ، وساوى بينهم فى الحقوق ، ولم يؤاخذ أحداً منهم بما فعله إبان الحرب ، فلا يحاسب مجرمى الحرب باصطلاح هذا العصر ، ولم يتبع الفارّين ، ولم يروع المسالمين ولم يجهز على الجرحى ولم يمس شيئاً من أموالهم ولم يقطع رؤوس زعمائهم وكبرائهم :

تلك سيرته وهى السيرة الغراء التى يدعو إليها الإسلام والتى تعرفها للخلفاء الراشدين الكرام .

مواقف غير عادلة

يقول الأستاذ الطاهر الزاوى فى كتابه « الفتح العربى فى ليبيا » بعد أن تـكلم عن أبى الخطاب ، يقول : « والذى يمعن النظر فى حروب أبى الخطاب مع جيوش أبى جعفر المنصور ، لا يشك فى أنها حروب قصد منها توسيع النفوذ ، والاحتفاظ بالسلطة على أكبر عدد ممـكن من الناس ، وعلى أوسع رقعة من الأرض » .

ولولا أن كثيراً من الناس الذين لا يتبعون التاريخ ويسيرون مع أحداث الزمن قد يظنون صحة هذا الرأى ، ويقتنعون بتعليل المؤلف لهذه الثورات العارمة ، التى كان أبو الخطاب يجاهد فيها بما ملـكت يداه من روح ومال . لولا ذلك لسكتُّ عن هذه الغمزة من المؤلف ، كما سكت عن عشرات الغمزات التى يمليها قلب غير سليم .

يقول الأستاذ الزاوى فى كتابه « الفتح العربى فى ليبيا » وهو يتحدث عن أبى الخطاب العربى : « وكان من أشد خصوم سياسة العرب فى إفريقية ، وقاتلهم انتصاراً لبنى مذهبـه ، وقد أخلص للبربر إخلاصاً جعـله منهم فى محل التقدير ، الخ » .

ويمضى المؤلف على هذه الوتيرة لا يتحدث إلا عن البربر والعرب . وعجيب والله أمر رجل مسلم يكتب عن التاريخ فى هذا العصر بهذه الروح البالية .

يقول الأستاذ الزاوى : إن أبا الخطاب كان من أشد خصوم سياسة العرب فى ليبيا .

إن أبا الخطاب أيها الأستاذ والإباضية من قبله ومن بعده ، ليسوا خصوماً للعرب ، إنهم إخوة لهم وإنما هم ، خصوم للانحراف بدين الله ، وأعداء للطغيان والعدوان والظلم، سواء كان ذلك من العرب أو من البربر أو من غيرهم من الأجناس، فهم منذ أكرمهم الله بالإسلام كانوا ينظرون إلى المسلمين بأنهم أمة واحدة وينظرون إلى أولئك الذين يستغلون مراكز الحكم أسوأ استغلال بأنهم بغاة ظالمون يجب أن يؤخذ على أيديهم حتى يعتدلوا أو يعتزلوا ، وموقف الإباضية من طغاة البربر والعرب واحد فى كل الأحوال ، على أن الذى يرجع إلى تاريخ أبى الخطاب نفسه وحسبما رواه الأستاذ الزاوى يجد أن أبا الخطاب هو الذى هاجم ورفجومة — القبيلة البربرية الكبيرة ، حين بلغه عنها البغى والفساد ، حاربها حرباً طاحنة حتى أخرجها من القيروان — هذه المدينة التى وضع الحجر الأساسى فيها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فطهر مسجد عقبة من دواب ورفجومة .

وأبو الخطاب حين يهاجم هذه القبيلة الباغية لم يهاجم غيرها من القبائل والبلدان . فقد قام بأمر الأمامة فى طرابلس دون أن يريق قطرة دم ، أما حروبه فيما بعد فهى رد للعدوان الذى تشنه عليه جيوش العباسيين المتعاقبة . وفى جميع تلك الحروب الظالمة التى انتصر فيها أبو الخطاب سواء فى ورداسة أو فى مغمداس أو فى غيرها ، كان أبو الخطاب مثالا حياً لسيرة الخلفاء الراشدين ، لا يتبع مدبراً ولا يجهز على جريح ، ولا يغنم مالا . ولا يعاقب على الموقف المضاد فى الحرب ، ولا ينتقم من قادة وزعماء الفريق الثانى ، ولا يصل منه ولا من جيشه أى أذى للبرىء والمسالم .

وعند ما خرج محمد بن الأشعث من مصر إلى لقاء أبى الخطاب، أرسل عيوناً يستطلعون له الأحوال ، فلما رجعوا إليه سألهم فقالوا : أنطيل أم نجمل ، فقال

ابن الأشعث : بل اجلوا . قالوا : « رأينا رهباناً بالليل ، أسوداً بالنهار ، يتمنون الجهاد بلقائكم كما يتمنى المريض لقاء الطبيب . لو زنى صاحبهم لرجموه ، ولو سرق لقطعوا يده ، خيلهم من نتاجهم ، ليس لهم مال يرتزقون منه ، وإنما معاشهم من كسب أيديهم[1] » ، أترى أنك واجد هذا الوصف فى غير الرعيل الأول من أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

يرى الأستاذ الزاوى كما نقلت عنه فى أول هذا الفصل أن الحروب التى قام بها أبو الخطاب كان يقصد منها إلى التوسع والسيادة ، وهو جد عليم أن أبا الخطاب لم يقبل هذا الأمر إلا مكرهاً ، وبعد أن أفتى أعظم إمام دينى فى ذلك العصر بقتله إن امتنع عن تحمل هذا العبء الذى يختار له القوى الأمين . وهل من علامات حب السيطرة والعلو أن يستولى أبو الخطاب على طرابلس دون إراقة قطرة من الدم وأن يخير حاكم البلد بين البقاء فى أمته و بين إخوانه آمناً أو الرحيل إلى سلطانه موفوراً ؟ وهل من حب السلطة والتوسع أن ينتصر القائد ثم يتفقد قتلى العدو فيجد واحداً منهم مسلوباً فلا يقر له قرار حتى يعرف السالب ويؤدبه ، وهل من حب التوسع والنفوذ أن يحارب المحارب وينتصر ولكنه يعرض عن جميع المكاسب والغنائم ؟ وهل من علامات التوسع أن يبقى جيش متكون من ستة آلاف محارب محاصراً لمدينة كالقيروان مدة تطول أو تقصر ثم يخرج أهالى المدينة إلى حقولهم ومزارعهم فيجدونها سالمة لم يتغير منها إلا ما غيرته عوامل الطبيعة من ريح ووحش . وهل يجد المتتبع لحوادث التاريخ صورة واحدة من هذه الصور الرائعة عند أولئك الذين يهاجمون أبا الخطاب ، ويوالون عليه الحرب ؟ إنه لن يجد بالتأكيد إلا عدواناً وظلماً

---

(١) السير ١٣٠

وسرقة وغلولا ، وارتكاب الفواحش فى الأنفس والأعراض والأموال لا يسلم منهم برىء ولا مذنب وهم حين تتاح لهم فرصة النصر لا يبقون على جريح ولا يرجعون عن فارّ ، ولا يسلم منهم مسالم ، ولا ينجو منهم مال ولا عرض. ثم هم يتجاوزون كل ذلك إلى المثلة وتشويه خلقة الله وقطع الرؤوس لنيل الحظوة بها عند ملوك البغى فى الدنيا .

ويقول الأستاذ الزاوى فى كتابه الفتح العربى : « ومهما بلغت كثرة جيش يذهب من مصر لغزو أفريقيا فلا يمكن أن تصل واحداً من عشرين من جيش البربر الذى يمكنهم أن يعدوه لمقابلة هذا الجيش ، ولكن النصر بيد الله ، والله مع الصابرين .

هذا كلام الأستاذ الزاوى بحروفه ، وهذا التلميح لا يصدر من مسلم سليم الصدر . صحيح العقيدة ، وأنا حين أنقل هذا الكلام عن الأستاذ وأضعه بين أيدى القارىء الكريم فإنما أريد أن يتأمل المنصف ما يدسه كتبة التاريخ عن الأمة ، وما يوحون به للناس من زيغ . على أن قضية النصر والهزيمة فى الحادثة التى يشير إليها الزاوى — إذا سلمت من المغالطة — واضحة جلية !

إن محمد بن الأشعث أعد له جيش كامل يتألف من خمسين ألف مقاتل على أوسط الأقوال ، تدفع لهم الأجور من بيت مال الدولة فى مصر أو فى بغداد ليقوموا لها بالحروب وهم على استعداد فى جميع الأوقات ، أما أبو الخطاب فليس له جيش تدفع له الأجور ويكون تحت الطلب فى جميع الأحوال . بل إن المحاربين إنما هم أفراد من الأمة بدافع المبدأ ومحاربة الباطل ، وليس لهم أى غنم فى هذه الحروب الهائلة ، فهم يزودون أنفسهم و يسلحونها ، ويندفعون إلى الحرب باختيارهم ليحموا أنفسهم و بلادهم من عبث العابثين وظلم الظالمين ،

ولم يكن البربر كلهم مع أبى الخطاب كما زعم الزاوى ، فإن من البربر خوارج ومعتزلة واتباع بنى العباس . وهؤلاء جميعاً لايقاتلون مع أبى الخطاب، بل إن منهم من يقاتله كورفجومة . وإنما يتكون جيش أبى الخطاب من بعض البربر وبعض العرب الذين يعبدون الله على مذهب عبد الله بن إباض ، وعدد هؤلاء ليس بالكثره التى أراد أن يوحى بها الطاهر الزاوى، ثم إن ابن الأشعث هجم على طرابلس حين نجحت مكيدته وتفرق جيش أبى الخطاب إلى حصاد الزرع وهم مطمئنون إلى أن الجيوش المهاجمة قد ولت الادبار، فلما وقعت الغارة المفاجئة لم يحضر إلا القليل فى تتابع ، جماعة بعد جماعة ، وهكذا استطاع جيش ابن الأشعث أن يقتل كل جماعة تحضر بيسر وسهولة وهو متركز فى موقفه ينتظر المزيد ، وقد قتل من هؤلاء الأبطال آلاف . ولم يرتو ابن الاشعث من هذه الدماء التى سالت فى الموقعة ، فكان يتتبع الناس فى بطون الأودية وشعاف الجبال يروع الآمنين ، ويقتل المسالمين، ويجمع الأموال المحرمة التى عصمها الإسلام ؛ وأخيراً قطع رأس أبى الخطاب وأرسلها إلى بغداد

وقارن أيها المسلم . بين الموقفين : موقف أبى الخطاب عندما استولى على طرابلس ، وعندما احتل القيروان ، وموقف بنى العباس حين أتيحت لهم فرصة النصر .

وضع الصورتين أمام الأستاذ الزاوى ليستخرج العبرة والموعظة من التاريخ .

أبو حاتم الملزوزى

أبو حاتم يعقوب بن حبيب الملزوزى النَّجِيسِى مولى كنده ، علم آخر من أعلام الإسلام ، وبطل من أبطال الكفاح ، وعدو لدود من أعداء البغى والظلم والجبروت . ولدته الحوادث السود . وأبطال الحرية والكرامة والمبادىء لا يظهرون إلا فى الحوادث السود لإنقاذ الإنسانية من شر الإنسان .

قتل أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى فى معركة من المعارك الحامية ، بينه و بين محمد بن الأشعث ، العامل الذى عينه أبو جعفر المنصور لحكم أفريقية ، وتفرق جيش أبى الخطاب بعد الهزيمة ، ولكن ابن الأشعث لم يكتف بهذا النصر الذى أحرزه ، ولم يقنعه الاستيلاء على هذه البلاد الفسيحة ، التى كانت تابعة لأبى الخطاب، فعمد إلى رأس أبى الخطاب وهو قتيل فى المعركة فاحتزه و بعث به إلى بغداد ، ليزيده حظوة عند أبى جعفر ، ولم يشف ذلك مافى قلبه فأمعن يقتل وينهب ويسلب ، متبعاً الفلول المنهزمة ، والشراذم الفارة ، والأحياء التى يجعلها سوء حظها فى طريقه ،لا يردعه دين ولا خلق ، ثم ولى أمر البلاد من يزيد عنه بغياً وعدواناً ، فكان يتنقل بين أحياء المسلمين وقبائلهم يسلب وينهب ، يقتل ويفجر ، فكان يدخل الأحياء ويأمر المحصنات الحرائر أن يفْلين لحيته القذرة ، وليس بعد هذا الفجور فجور ، ولا بعد هذا الظلم ظلم . . .

عند ذلك تداعى أصحاب الشهامة والكرامة الذين يؤمنون بأن الله لايرضى لهم السكوت على هذه المناكر ، ولا يحل لهم البقاء على هذا الهوان ،

ينزل بأمة مسلمة ، حفظ الإسلام أعراضها ودماءها وأموالها ، فانتهكها من خانوا الله ورسوله فى أمانة الدولة والدين .

تداعى هؤلاء الأبطال ، وأظهروا أنهم يريدون النظر فى قضية امرأة أساء إليها زوجها ، فعقدوا اجتماعاً بحثوا فيه موقفهم ، وموقف الأمة ، وموقف هؤلاء البغاة الظالمين ، ووجدوا أنهم لا يسعهم فى دين الله أن يسكتوا على ما يقع بين أيديهم وأعينهم ، وأنسوا فى أنفسهم قوة يمكن أن تخفف على المسلمين ما هم فيه من ذلة ومهانة ، ولو إلى حين ، فقدموا عليهم أبا حاتم الملزوزى وبايعوه على أن يعمل بكتاب الله وسنة رسول الله وهدى السلف الصالحين ، فقبل منهم واستعد للكفاح .

وما سمع الوالى العباسى بهذا الحادث حتى بعث بحملة عسكرية للقضاء على هذه الثورة ، ولكن هذه الحملة لم تنجح ، وقتل عدد غير قليل من جندها . وتفقد أبو حاتم القتلى فوجد بعضهم مسلوباً ، فغضب ، وقال إن لم تردوا أسلابهم تركت أمركم ، فأرجعت الأسلاب ، وأعلن الجيش توبتهم من عملهم ذلك ، وسار السيرة العادلة المعروفة التى سارها المؤمنون الصادقون من قبله فى حروب أهل الإسلام الباغين ، حفظ لكرامة المسلم فى دمه وماله وعرضه ولو ظلم أو بغى ، ثم عدل بين الرعية ، وإنصاف لأفراد الأمة ، وإقامة لحدود الله ، لا جبروت ولا عدوان ، ولا ظلم ولا أثرة ولا استغلال . الناس متساوون فى الحقوق وفى الواجبات ، وفى فرص الحياة ، فمن اعتدى نفذ فيه حكم الله ، وذاق الناس لمدة قصيرة طعم الحكم الإسلامى ، الحكم الذى أراده الله لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فاختلسه منها عبيد الشهوة وعبيد السلطة والمال .

هدأت الأحوال فى طرابلس ، واستتب الأمن والسلام ، وبدأ الناس

يشعرون بالحياة الكريمة للأمة الكريمة ، فاتجه أبو حاتم إلى القيروان ليخفف عن أهلها ما أصابهم من كرب ، وما لحق بهم من أذى ، ويرفع عنهم عبث أيدى ولاة ظالمين ، لا يرقبون فى الله إلاً ولا ذمة ، ففتحها بعد حصار طويل وكان الجهد والجوع قد بلغ مبلغاً عظيما من الجند المحصور بالقيروان ، فلما تم النصر لأبى حاتم ، وفتحت له أبواب المدينة ، واستسلم الجند المحاربون ، لم يفعل ما فعله محمد بن الأشعث ، يوم انتصر على أبى الخطاب فى ليبيا . إن أبا حاتم مؤمن يحس ما يعانيه هؤلاء المسلمون الذين يسوقهم الظلمة سوق الأغنام ، ولذلك فلم يمعن فيهم تقتيلا ونهباً وسلباً وتعدياً على الأعراض ، وإنما زودهم بالماء والغذاء والسلاح الضرورى ، فأعطى لكل خمسة منهم قربة للماء وعصاً وخنجراً يصلحون به أمرهم ، ويدفعون به ما يعترض طريقهم من وحش مفترس وهم يعودون إلى قراهم آمنين ، كما أعطى لكل واحد منهم رغيفاً من الخبز .

لك أن تقارن أيها القارىء الكريم بين الحالة الفظيعة التى يلاقيها الناس عندما ينتصر الظالمون ، وكيف تذهب الأرواح والأموال والأعراض هدراً بعد أن ترفع الحرب أوزارها ، لك أن تقارن بين ذلك وبين هذا السلوك الكريم الذى يعطف حتى على الباغى الظالم ، فيقدم له ما تيسر من مساعدة . لك أن تقارن بين منتصر يقتل ويسلب ، ويحز الرؤوس ، ويعبث بالأعراض التى صانها الإسلام ، ومنتصر آخر يعطف على جيش العدو ، فيزوده بالزاد والسلاح ، ويتركه سالماً موفوراً ليلحق بأهله .

لقد ضرب أبو حاتم بهذه السيرة العطرة مثلا سامقاً للمؤمنين الذين يناط بهم حمل أمانة الحكم ، وتجبرهم الحوادث إلى تربية البغاة . ولكن هل تجد مثل هذه السيرة أو قريباً منها عند أولئك الذين يحاربون باسم الخلافة فى الزمن القديم ، أو يحاربون باسم الدولة فى العصر الحديث .

أنه ليس لأولئك ولا لهؤلاء من مزايا أمانة الحكم إلا حمل الأسماء والشعارات ، يتاجرون بها عند الرؤساء ، ويخدرون بها الشعوب ، ويستغلونها لأنفسهم ، وبسببهم وسبب أمثالهم من عبيد الشهوه ، شهوة المال وشهوة السلطة . وشهوة الجنس ، أصيب الإسلام أمس ويصاب اليوم بالنكبات المتلاحقات ، أوقفت تقدمه ، وغلبت عليه أعداءه الذين يتربصون به الغفلة ، ويتوقعون منه الغرة ، وينتظرون منه العثرة . حتى واتتهم تلك المصائب جميعاً ، ينزلها الجبابرة الذين يحملون اسم الإسلام على أمة الإسلام ، والذين استخدموا شرف الخلافة فى محاربة من أولاهم الخلافة . وأعطاهم الثقة ، وأخذ منهم عهد الله ، ولم يردعهم رادع من خُلق أو حياء أو دين . بل لقد ذهبت الخلافة ، وقامت فى كل بقعة من بلاد الإسلام دولة تنعق بأنها جاءت لخدمة الأمة ، ولم تجد منها الأمة حتى اليوم إلا خطباً تلقى ، واجتماعات تعقد ، ومديحاً تضفيه الإذاعات والصحف على أصحاب المناصب وسلوكا أبعد ما يكون عن مصلحة الأمة ، وروح الإسلام ، وسيرة السلف الصالحين ، فلا عفة عن مال الأمة ولا وقوف عن إراقة دم برىء لا تحل إراقته إلا بحقه .

ماضر هؤلاء الذين يحملون اليوم أمانة الدولة ، و يقدمون على حراسة مصالح الأمة . ما ضرهؤلاء أن يسيروا سيرة الصالحين من سلف هذه الأمة ، وأن يعفُّوا عن أموال الأمة ودمائها كما عف عنها عمر بن عبد العزيز وأبو الخطاب وأبو حاتم وكما عف عنهما أمير المؤمنين على بن أبى طالب عندما انهزم الثائرون بقيادة طلحة والزبير فلم يتبع مدبراً ، ولم يجهز على جريح ، وإنما استغفر للجميع ، وضمد الجراح وواسى القلوب : ماضر هؤلاء الذين يتداولون كراسى الحكم ومرافق الدولة فى مختلف بلاد الإسلام ، أن ينزهوا ضمائرهم عن الإنتقام . وجيوبهم عن المال الحرام ، وأيديهم عن إراقة الدماء :

كان أبو حاتم حقيقاً أن يسير بالأمة سيرة الخلفاء الراشدين ، والسلف الصالحين ، لو أمهلته أيدى الظلمة المستبدين ، أولئك الحكام الذين لا يرضيهم أن ينتشر الأمن والعدل والسلام فى جهة من الجهات ، لأن ظهور ذلك يظهر مساوىء الحكم عندهم ، ويبعث دبيب اليقظة فى نفوس رعاياهم ؛ تلك الرعايا التى استنامت إلى الذلة والهوان بما لحقها من بطش وعدوان .

وهكذا جهز أبو جعفر الجيوش وأرسلها إلى أبى حاتم ، وبعد حروب طاحنة ووقائع سود ، قتل هذا البطل المؤمن ، كما قتل من قبله أبطال ثائرون ، برهنوا أن فى الأمة من يقوم بحجة الله على البغاة ، فينتزع منهم مقاليد السلطة ، ولو لزمن قصير ، ليظهر للناس ما فى حكم الإسلام من كرم وسماحة وجمال ، حين تقوم بين أفراد الأمة من حاكم ومحكوم حقوق العدل والمساواة .

الزاوى وكرامات الأولياء

إننى لا أريد فى هذا الفصل أن أناقش موضوع الكرامة ، فقد ناقشها علماء الإسلام الأعلام بما فيه الكفاية ، وبما لا أستطيع ببضاعتى الضئيلة أن أبلغ أقله ، ولكننى أريد أن أناقش الأستاذ الزاوى فى هذا الموضوع بالذات :

قرأت للأستاذ الزاوى فى كتابه « تاريخ الفتح العربى فى ليبيا » إنكاراً لكرامة نسبت إلى أحد الناس ، فظننت أن الرجل من أولئك الذين لا يعترفون بكرامات الأولياء ، ولو كان ذلك فليس من حقى أن أطالبه بتصديق كرامة معينة ، ولكننى اطلعت فيما بعد على كتابه « الأعلام » وعجبت من الرجل حقاً ، عجبت لهذا الرجل الذى يتقلب فى قضايا التاريخ كما يشاء له الهوى ، وسوف أضع بين يديك أيها القارىء الكريم صوراً من هذا التقلب .

بعد أن تحدث عن أبى حاتم الملزوزى فى أحداثه التاريخية ، وحاول أن يضخم عدد الجند الذى يحارب به هذا الإمام ، وأن يقلل من جيش خصومه ، ثم يمنحهم النصر لأن النصر للمؤمنين .

بعد هذه المحاولة التى فيها كثير من إساءة استغلال حوادث التاريخ لإيحاءات معينة ، بعد ذلك قال :

« كان أبو حاتم من أئمة الإباضية المشهورين ، وبمناسبة قتله نقل الأستاذ الشماخى فى كتاب السير خرافة من صنع الذين يعملون لتفريق الكلمة ورفع أقدار بعض الناس على حساب الطعن فى أقدار غيرهم .

قال الأستاذ الشماخى ما نصه : « إن مكان المعركة يستضىء نوراً كل ليلة ،

وقد اشتهر عندنا — من غير أن أراه — أن النور ينزل على قبره — يعني قبر أبي حاتم — وقيل لم يزل ينزل حتى دفن إلى جنبه أعرابي فكف. ا. هـ. مانقله صاحب السير .

ومثل هذه الخرافة لا يصح من الأستاذ الشماخي أن يسود بها صحائف كتابه ، فإن أي إنسان لا يصدق أن النور الذي كان ينزل على قبر أبي حاتم انقطع لما دفن الأعرابي إلى جانبه ، ولكن الذي اختلق هذه الخرافة يريد أن يرفع من شأن أبي حاتم بالطعن في العرب ، وهو خطأ في التقدير يؤدي إلى الفتنة بين المواطنين ، وإلى تأريث الكراهية بينهم . ولو اقتصرت الخرافة على مدح أبي حاتم لما عنانا شيء منها ، ولما تعرضنا لها بنقد » . انتهى كلام الأستاذ الزاوي .

وعجبت وأنا أقرأ هذا التعليق عن المغالطة المفضوحة ، وعن تأويل كلام الناس بما لم يخطر لهم على بال .

لست أدري — مهما فكرت — ما دخل العرب في القضية ؟ لِمَ يحشرهم الأستاذ الزاوي حتى في هذه الجزئية الصغيرة ؟ إنها حادثة فردية تتعلق بشخصين ، سواء كانت صادقة أو كاذبة ، فما الذي أدخل الجنس ، جنس العرب أو البربر في الموضوع ؟

إن الشماخي حين نقل القصة احترز ، فأعلن أن القصة مشهورة ، ولكنه لم يشاهدها بنفسه ، وهذا تحقيق لا يكون إلا من ثقة يتثبت فيما يقول ، فقد جعل العهدة على راويها ، ولما تحدث عن دفن الأعرابي ، حكاه أيضاً بقيل ، حتى لا يجرأ زاعم على تكذيبه ، ورغم كل ذلك ، فإن الأستاذ الزاوي ناقم على الشماخي ، والشماخي يذكر أن النور انقطع عند ما دفن (أعرابي) ، ولكن

الزاوى يجعل المسألة طعناً فى العرب ورفعاً لأقدار بعض الناس بالحط فى أقدار الآخرين ، إلى ما هنالك من مزاعم لاتصدر إلاعن نفس مريضة ، وحب متمكن لإيقاد الفتنة .

لقد كان جديراً بالأستاذ الزاوى ، وهو يكتب التاريخ فى هذا العصر ، أن ينزه قلمه وضميره ، كان جديراً به أن يتخذ من نزاهة الشماخى وصدقه أمثلة يحتذيها ، ويسير عليها .

إن الكرامة إذا وقعت لأبى حاتم ، فلا يعنى ذلك ، أن جنس أبى حاتم كلهم أصحاب كرامات ، وأن المعصية إذا وقعت من أعرابى ، فلا يعنى ذلك ، أن الأعراب كلهم أصحاب معصية ، إن أبا حاتم شخص واحد ، نسبت إليه كرامة ، وإن الأعرابى الذى دفن إلى جانبه شخص واحد ، قيل عنه إن النور انقطع لما دفن إلى جانب أبى حاتم ، وما يدرى الأستاذ الزاوى ، أن هذا الأعرابى ، ممن يشمله قوله تعالى : « **الأعراب أشد كفرا ونفاقا . . الخ** » ، ثم لماذا يجعل الأستاذ الزاوى الأعراب عرباً ؟ ويبنى على ذلك هذا التعليق الذى يحرص بما يملك من حيلة الأسلوب وخدعة التعبير ، أن يجعل الموضوع بين عنصرى الأمة ، حتى يفتح أبواباً للخلاف ، ومن يا ترى يسعى لتأريث الكراهية بين الناس ؟ أهذا الذى يحمل اليوم قلمه ليبحث بين مطاوىء التاريخ عما يفرق به بين أبناء الأمة الواحدة ؟ أم ذلك الذى يحتاط فيما ينقله ويعلن أنه لم يشاهد .

وهل عن حسن نية يذكر الأستاذ الزاوى هذه القصة وأشباهها ليعلق عليها بهذه العبارات التى تدعو إلى الفتنة السافرة !؟ إن الشماخى توفى قبل أربعة قرون ، وكتابه لا يطلع عليه إلا قلة من الباحثين الذين يرجعون إلى مصادر التاريخ ، فلماذا يعمد الأستاذ الزاوى إلى التنقيب ، ونقل هذه القضية اليوم ؟ لماذا

لم يتركها نائمة بين أحداث التاريخ الماضى؟ إنه لو فعل ذلك لما وجد سبباً يوجه به هذه الطعنة إلى قلب الأمة ليذكرها بأنها تتكون من عنصرين .

إننى سوف أعود إلى الأستاذ الزاوى والشماخى فى حديث قريب ، ولكننى الآن أريد أن أناقشه فى قضية الكرامة .

قلت فى أول هذا الفصل : إننى حين قرأت كتاب الزاوى ووجدته يعلق على هذه القصة التى نقلها الشماخى بأنها خرافة . حسبت أن الزاوى لا يصدق بكرامات الأولياء ، ولو كان كذلك فليس من حقى أن أطالبه بتصديق هذه الكرامة أو غيرها . ولكن هل حقا أن الأستاذ الزاوى لا يصدق بكرامات ؟ لنأخذ بين أيدينا كتاب « أعلام ليبيا » ولنتصفح منه بعض الفصول .

قال الزاوى فى كتابه « الأعلام » صفحة ٤٧ : « ومن كراماته أنه لما حج بقى أمام النبى صلى الله عليه وسلم وقال فى نفسه : أنا لا أذهب لزيارة حمزة ولا غيره . النبى صلى الله عليه وسلم يكفينى ، قال : فأخذتنى سنة ، فرأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى النوم ، فقال لى : يا أحمد ياحبيبى ، عم الرجل عوض أبيه . قال فقمت فى الحين وذهبت لزيارة سيدنا حمزة ، وكان وقت خوف ، فلقيت هناك ثلاثة رجال ، آخرهم الخضر عليه السلام .

وفى فوائده قال : أخبرنى الشيخ اللقانى أن الوزغ يتغذى بعينه ، وأنه — أى اللقانى — كان ذات يوم يأكل بطيخا ووزغ ينظر إليه من السقف ، فأمر بقتله ، فوجدوا معه من الخضراء التى كان الشيخ يأكلها » انتهى

قال الأستاذ الزاوى فى نفس الكتاب صفحة ١٤٧ : « قال أبو القاسم : فلما حججت وزرت ، سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقلت : يارسول الله أبو الفضل الغدامسى يقرأ عليك السلام ، وصاحبيك ، قال : فسمعت صوتا لاشك أنه صوت عمر بن الخطاب لجهارته . وهو يبلغنا . وكان يتكلم على الخواطر .

ويقول الأستاذ الزاوى فى نفس الكتاب صفحة ١٩٩ : « كان أستاذا فاضلا — أبي عبد الوهاب القيسى — ورجلا صالحا وكان يرى النبى صلى الله عليه وسلم ويتحدث معه . ويقال إن هذه المحادثات وجدت بعد موته مكتوبة بخطه وبتواريخها . » انتهى .

قال الأستاذ الزاوى فى نفس الكتاب صفحة ٢٢٥ (يحكى عنه — أبي على ابن محمد البشت — إذا شكا إليه أحد ضياع حاجته قال له : إذهب إلى المحل الفلانى تجدها فيه ، فيذهب فيجدها كما ذكر . انتهى »

وقال الأستاذ الزاوى فى نفس الكتاب يتحدث عن محمد بن احمد الطرابلسى صفحة ٢٦٤ : شيخ متعبد فضله مشهور . قال فى كتاب « رياض النفوس » قال أبو عبد الله مكى بن يوسف: نزلت بطرابلس عند انصرافى من الحج فكنت أداوم الاختلاف إليه ، فإنى جالس إليه ذات يوم ، إذ أتته أمرأة بصبى قد احدودب ظهره ، فلا يقدر أن يمشى ، ولا يرفع رأسه ، وأجلسته بين يديه ، فقال له الشيخ : يا ابنى : ارفع رأسك فما قدر فالتفت إلى وقال : يا أبا عبد الله أما ترى هذا الصبي ما استطاع أن يمشى. فقلت له نعم ياسيدى ! فأمرّ بيده على ظهره ، ثم كتب أسطراً لم أقف على مافيها ، ثم قال له : ارفع رأسك، فرفع رأسه ثم قال له : امش، فمشى . واختصم مرة فى طرابلس قوم من المسلمين مع قوم من النصارى على حجر ، فزعم المسلمون أنه كان بمسجد انهدم، وأن النصارى قد أدخلوه فى ركن من أركان كنيستهم عماداً له — وزعم النصارى أن الحجر لهم قديما . فقال أبو العباس : اذهبوا بنا إلى موضع الحجر، فساروا حتى حازوا المكان . فوقف أبو العباس ووقف الناس معه ، فقال : أيها الحجر : إن كنت كما قال المسلمون فقع بإذن الله وقدرته ، وإن كنت كما قال النصارى فاثبت مكانك . فمال الحجر حتى وقع على الأرض ، فقال للمسلمين : ارفعوا حجركم .

وقال الأستاذ الزاوى فى نفس الكتاب صفحة ٢٠: « وهو من جملة الصلحاء الذين بعثهم العارف الأكبر مولاى العربى الدرقاوى وتبرك بهم ، وقد أورده فى رسائله قائلا مانصه : « وكنت أعرف سيدى أبا بكر الطرابلس المكنى عند أهل فاس « سيدى أبو بكر بو قلالس » وجدته بمدينة فاس حين عرفتها ، وكان من المجاذيب الكبار ، غائبا عن حسه دائما ، وقد شربت بوله يوماً لشدة تصديقى بولايته . وحدثنى الأستاذ الجليل أبو عبد الله سيدى محمد اللحائى عنه أنه قال لبعض الطلبة: هل تسيح معى ؟ فقال نعم: فخرجا معا على باب الفتوح — أى من فاس — فإذا هما بباب من أبواب طرابلس التى هى بلدته. وسمعت أنه كان من أولاد الباى الذى كان هنالك ، وكان هذا الباى لما فقده يعطى عليه قنطاراً من المال لمن يخبِّره به ، والحاصل أنهما دخلا إلى المدينة الطرابلسية . وجالا فيها ما شاء الله ، وهذا لا يكلم هذا ، ثم خرجا ، فإذا هما بباب الفتوح بفاس .» انتهى كلام الأستاذ الزاوى .

نقلت إليك هذه القصص من كتاب الزاوى أيها القارىء الكريم لا لأنتقدها ولا لأنتقد أصحابها ، فإن ذلك ليس موضوع بحثى ، وإنما أريد منك أن تعرف موقف الزاوى من التاريخ .

ينقل الشماخى مع الاحتراس أن نورا ينزل على قبر أبى حاتم حتى دفن إلى جنبه أعرابى فانقطع النور ، فيثور الأستاذ الزاوى ويغضب ويكذِّب ويجعل نقل مثل هذه الكرامة مما يبعث الشك فى أمانة المؤلف .

ولكن الزاوى ينقل إلينا أن وليا استطاع أن يكلم الرسول فى النوم ، وأن يذهب لزيارة حمزه فيجتمع بثلاثة رجال آخرهم الخضر، وينقل أن الوزغ يتغذى بعينه ، وأن فلانا كان يأكل بطيخا ووزغ ينظر إليه، فلما قتل الوزغ وجد البطيخ

فى أمعائه ، وأن حاجا يبلغ سلام رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيرد عليه عمر بن الخطاب تحيته . وأن رجلا كان يحادث النبى صلى الله عليه وسلم ، ولما مات وجدت محاضر هذه الجلسات مكتوبة بخطه ، وأن رجلا يعرف مواضع الأشياء التى تسرق أو تضيع ، فما يجيئه أحد يشكو ضياع شىء حتى يدله على مكانه ، وأن وليا من الاولياء يوضع بين يديه طفل أحدب لا يستطيع المشى أو رفع الرأس، فيمسح عليه بيده ثم يأمره بالرفع فيرفع ، وبالمشى فيمشى . ويختصم ناس على حجر أقيم عمادا ، فيأمره بالوقوع فيقع ، وينقل عن ولى آخر يأخذ معه ابن الباى فى فاس ليسيح معه ، وعندما يخرج من باب الفتوح يجد نفسه بباب من أبواب طرابلس، ثم عندما تخطر لهما العودة فيخرجان من طرابلس يجدان نفسيهما بباب الفتوح فى فاس، ويبلغ من ولاية هذا الرجل أن يشرب العارف الأكبر مولاى العربى الدرقاوى بوله لشدة تصديقه بولايته .

هذه قصص ينقلها الاستاذ الزاوى فى كتابه ، وهو لا ينقدها ولا يتعرض لها بتعليق، ولا يخاف أن يشك الناس فى أمانته حين ينقل مثل هذه القصص .

والذى أريد أن أقوله للأستاذ الزاوى: أن الوقائع السالفة — سواء ماوقع منها لهؤلاء الذين تحدث عنهم فى كتابه ، أو لأولئك الذين تحدث عنهم الشماخى فى كتابه — أشياء لا تجرى على سنة الطبيعة ، فهى إما أن تكون متعلقة بقدرة الله وإرادته وحينئذ فلا معارضة سواء ماقبله العقل أو لم يقبله ، ويستوى فى ذلك قصة مهدى النفوس وأبى حاتم الملزوزى، وهذا الذى يجد باب فاس وباب طرابلس متجاورين ، وهذا الذى يحدث عمر بن الخطاب وبينهما عدد غير قليل من القرون الزمنية وغيرها كثير تجد كتبا مشحونة بها لكل طائفة من طوائف المسلمين . أما إذا أريد فهمها على قانون الطبيعة والحياة المادية للخلق فإن شيئا من ذلك لا يصدق

ولقد كان جميلا أن ينقل الأستاذ الزاوى عن الشماخى كما نقل عن غيره دون أن يجعل من هذا النقل وسيلة من وسائل الطعن ، أو أن يترك مالا يثق فى صحته من هذه الحوادث ، فإنها ليست حادثة من حوادث التاريخ البشرى التى لها علاقة مباشرة بالأمة ، ولكن الأستاذ الزاوى لا يريد ذلك ، إنه يتلمس وسائل الطعن ، وحين كان يؤلف كتاب « الفتح العربى فى ليبيا » لم يكن يقدر أنه سيؤلف كتاب الأعلام و ينقل فيه ما كذّب غيره فيه .

على أن الذى يقرأ كتاب أعلام ليبيا للأستاذ الزاوى وهو يحشر فيه ما لا يحشره رجل أوتىَ عقلا وتفكيرا سليمين فى هذا العصر . يأسف لهذا الاسفاف ، ما الذى يدعو الأستاذ الزاوى إلى ذكر قصة الوزغة فى هذا العصر ، إنه لم ينقلها على أنها كرامة ، و إنما نقلها على أنها حقيقة علمية توصل اليها عالم من العلماء فى ذلك العصر بالتجربة . ولكن الأستاذ الزاوى يعلم أن هذه التجربة غير صحيحة ، فما الداعى إلى ذكرها ؟ .

و ينقل الأستاذ الزاوى قصة هذا العارف الأكبر الذى يشرب بول آدمى ، ومهما كانت ولاية هذا الآدمى فإن بوله يبقى قذرا — ولو طهرته ولايته — على أنه لا شىء يجعل بول الإنسان طاهرا ، وكل ما يفهم من القصة هو التشكك فى سلامة عقل هذا العارف الأكبر . لماذا ينقل الأستاذ الزاوى هذه القصة ؟ وما الحاجة إليها ؟ ألكى يزيد فى تدعيم الخرافة فى هذا البلد ؟ ويقوى جانب الشعوذة ، حتى يطمئن أولئك الذين يستغلون عواطف الناس الدينية ؟ إن هذه القصة بالتأكيد لا ترفع من مقام الشارب ، كما أنها لا تزيد من مقام المشروب بوله ، إن الكرامة لا تكون معصية أو سببا إلى المعصية .

فلماذا يسوّد الزاوى صحائف كتابه بهذه الخرافة ؟ هل يعتقد أن أحدا من الناس يمكن أن يصدق ذلك ؟ .

إنتقال القيادة من ليبيا

بعد المعركة الطاحنة التى قتل فيها أبو حاتم وخيرة جنده وقواده فى جندو به ، و بعد أن أصبحت القوة بأيدى عمال بنى العباس الظلمة ، الذين لا يتورعون عن دم أو مال أو عرض، انتقل مركز مقاومة العدوان من ليبيا إلى الجزائر، وتكونت فى تاهرت دولة الرستميين .

وليس معنى هذا أنه حينما كف الإباضية عن الثورة . أن الثورة قد توقفت فى ليبيا .

إن الثورة لم تتوقف يوما واحدا فى جميع المملكة الإسلامية ، وإن كانت أغراض الثورات وأسبابها تختلف ، وما دامت الدولة مستبدة وعمالها ظالمين . فإن الناس لا يكفون عن المطالبة بالحقوق ، وإقامة العدل، إما باللسان وإما بالسيف.

كان الإباضية فى ليبيا وتونس مستقلين عن بنى العباس ؛ وحينما انتقلت قيادة الحركة الثورية إلى الجزائر أصبحت أدوارهم فى تاريخ السياسة وكفاح العدوان تابعة لتلك القيادة ، وهم وإن كانوا يتبعون دولة بنى رستم فى تاهرت إلا أنهم شبه مستقلين .

وقد عمد أكثر الإباضية فى ليبيا ، بعد انقراض الدولة الرستمية ، إلى سكنى جبل نفوسه وإن بقيت بقايا منهم منتشرين فى كامل القطر . وكان أغلب هؤلاء المنتشرين يعيشون حياة سكان البادية الرحل ، أو حياة شبيهة بتلك الحياة .

وقد استطاع عمال بنى العباس بما أوتوا من مال وسلطان ومكر أن يشحنوا نفوس الناس بكراهة هؤلاء القوم ، وأن يحكموا عليهم أحكاما غير صحيحة ، من

حيث الدين والمعتقد ، وبذلك تسنى لهم أن تفترق الأمة فيما بينها لتستقر كراسيهم على هذه الدعامة ، دعامة التفريق التي يحسنها الحكام الجبابرة فى كل زمان ومكان.

رجع الإباضية إلى أنفسهم ، واستمرت حياتهم على طريقتهم المعروفة : عمل دائم لله ، ومحاسبة للنفس ، ومجاهدة للشيطان والهوى ، وإحياء للسيرة المرضية ، لا يأبهون للدنيا ولا يقيمون لها أى وزن ، إنها لا تساوى عند الله جناح بعوضة. فكانت مساجدهم عامرة ، وأعمالهم فى البر متواصلة ، ودعوتهم إلى التمسك بدين الله وسيرة السلف الصالحين مستمرة ، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر لا يتوقف ، واستقامتهم فى الأعمال مضرب الأمثال ، ونشرهم للعلم كما لم ينشر فى أى مكان .

وكان الأئمة فى تاهرت يبعثون إليهم ، فيخيرونهم فى الولاة فكانوا — يجتمعون ويتشاورون ثم يبعثون باسم من يقع عليه اختيارهم إلى الأمام، فترد اليهم الموافقة عليه . فلما انقرضت الدولة الرستمية صاروا يجتمعون فيختارون من بينهم من يثقون فى دينه وخلقه وعلمه ، فيسندون اليه أمورهم ، ويولونه شئونهم ، وقد استمروا على هذه الحال حتى مجىء الأتراك وامتداد الخلافة الإسلامية فى ليبيا .

المسمح بن أبي الخطاب [1]

بقى الإباضية فى ليبيا بعد قتل أبى حاتم شبه مستقلين عن جميع الحكومات فعمال الدولة العباسية لا يجرأون على مطالبتهم بشىء ، وعبد الرحمن بن رستم لم يطلب منهم الطاعة ، رغم الولاء المتبادل ، واعترافهم بإمامته فلما تولى الإمامة عبد الوهاب بن عبد الرحمن واستقرت الأمور ، واطمأن إلى ارتياح السكان ، وانتشار السلام ، وخمود الحروب والثورات ، فكر فى تفقد أحوال الإخوان فى كل من الأراضى التونسية والأراضى الليبية ، وقرر أن يقوم بذلك وهو فى طريقه إلى الحج .

وكان الناس يقبلون عليه ويقدمون له البيعة ، فيولى عليهم ولاة يوصيهم أن يسيروا سيرة السلف الصالحين ، ولما وصل إلى الأراضى الليبية ودخل جبل نفوسة اجتمع إليه العلماء الأعلام ، ودرسوا معه موقف الدولة ، وماينبغى للإمام فعله ، وصارحوه بأنهم لا يوافقونه على قيامه بالحج ، فإن أعداء الإمامة الذين يتحينون الفرص للانقضاض عليه ، لا يقفون مكتوفى الأيدى ، وقد دخل ممالكهم وحيداً فريداً ، دون جند أو أعوان ، واقتنع الإمام برأى هؤلاء العلماء الناصحين

ولكنه أراد أن يطمئن ، فبعث برسالة إلى علماء المشرق يستفتيهم فى أمره ، ويستوضحهم مشكلته فى حق ربه ، ووصل الرسول إلى أئمة الإباضية فى العراق ورجع بالرد .

---

(١) ذكره أبو زكرياء فى الطبقة الرابعة من علماء النصف الثانى فى القرن الثانى ، كان وزيرا للامام عبد الوهاب ابن رستم ، ثم عاملا له على جبل نفوسه ونواحيه .

أما الإمام المحدث الربيع بن حبيب فقد أجاز له أن ينيب عنه أحداً يقوم عنه بالحج مادام مشغولا بأمر المسلمين. أما العلامة ابن عباد فأفتى له بسقوط الحج لعدم أمن الطريق بالنسبة إليه ، وأمان الطريق شرط أساسى فى وجوب الحج ، وطاب للإمام العظيم أن يقيم فى جبل نفوسه وأن يتخذ قرية « ميرى » مقراً له. هذه القرية الصغيرة التى أصبحت اليوم خراباً ،وكانت فى ذلك الحين مركزاً من مراكز العلم والدين والخلق العظيم . وبنى هنالك مسجده الفسيح الذى لا يزال منتصباً إلى اليوم فى ربوة شامخة يطاول الزمن ، ويستعرض التاريخ ، ويحتفظ باسم الإمام العظيم ، والذى لا يزال أبناء القبائل المجاورة من الرجبان يلوذون بعدله فيضعون فى حرمه نتائج زراعاتهم فلا يعتدى عليها ولا تنالها اللصوص .

طابت للإمام الإقامة فى هذا الجبل ، وانصرمت سبع سنوات كأنها ليلة واحدة ، وكان يعيش كما يعيش المسلمون، وكان من أهم مايشغله التدريس ،فكان مسجده هذا من أعظم المدارس التى نشرت العلم وهدت الناس. لقد كانت حلق الطلاب تتعاقب عليه أكثر النهار وزلفا من الليل،وكانت دروس الوعظ والإرشاد وشرح أسرار الإسلام للناس من أهم ما يتناوله الإمام العظيم ، على أن أعظم موضوع أخذ الوقت منه وحرص أن يتفهم الناس أسراره ومعانيه هو موضوع الصلاة ، هذا الركن الذى يجعل المسلم يناجى ربه عدداً من المرات فى اليوم ، ويستلهم منه الرشاد والهداية والتوفيق والذى لا يزال يتقرب بفرائضه ونوافله إلى الله، حتى يحبه

ولكثرة ما انشغل الإمام بتدريس موضوع الصلاة على الناس ، بالغ بعض المؤرخين فحسب أن الموضوع الوحيد الذى انشغل الإمام بتدريسه سبع سنوات فى جبل نفوسه — هذا الجبل الذى كان حينئذ يموج بالعلماء الأعلام — هو

موضوع الصلاة فقط ، والحقيقة أن الإمام العظيم كان يتناول جميع فروع العلم ، ولـكنه حبب إليه موضوع الصلاة ، فـكان لا يأتى يوم إلا ويتحدث عنه .

وعندما فـكر فى مغادرة ليبيا والرجوع إلى مركز الخلافة ، اجتمع اليه الناس وطلبوا منه أن يولى عليهم عاملا يفصل مشاكلهم ، ويجمع منهم الحقوق ويوزعها على مستحقيها ، ويتولى قيادة الدفاع إذا هاجمهم عدو . فخيرهم الإمام فاختاروا السمح بن أبى الخطاب المعافرى ؛ وكان السمح فى مقام الوزير للإمام ، يلازمه دائما ، فيعرض عليه المشاكل ، ويستشيره فى النوازل ، ويكل إليه الفصل والتدبير فى كثير من الأمور ، ولا يكاد يستغنى عنه فى شأن من الشؤون ، فعز عليه أن يفارقه . إنه من أعز أصدقائه إليه ، وهو أخلص مستشاريه وأحب أصحاب الرأى والعلم إليه . فحاول أن يرضيهم بغيره ، ولـكنهم أصروا على موقفهم وألحوا عليه فيه . فاضطر أن يستجيب لهم ، وأن يؤثرهم به . وأن يقلده ولاية ليبيا — ماعدا شريطا رفيعا من الساحل كان تابعا للاغالبة — معتمدا فى ذلك على دينه وأمانته ، وعلى دينهم وأمانتهم ، وشمر الوالى القوى عن ساعد الجد ، واستعد لتحمل الأمانة فى هذه الولاية الشاسعة ، التى تشتمل على معظم المملـكة الليبية و بعض المملـكة التونسية ، لايخرج منها إلا شريط ساحلى ضيق بقى للأغالبة بعد المعاهدة التى عقدت بينهم و بين الإمام عبد الوهاب سنة ١٩٦ .

وتولى السمح تنظيم الولاية وترتيب القضاة ، وأمراء الجند ، وجباة الزكاة ، فساد الأمن ، وانتشر السلام ، ووجد الناس الحياة التى ينشدونها فى ظل الإسلام . حرية فى العمل والـكسب ، وكفاح لله ، وعدل يشمل الغنى والفقير ، والقوى والضعيف ، وسيرة كسيرة عمال الخلفاء الراشدين ، قوة فى غير عنف ، ولين فى غير ضعف ، وإيصال للحقوق إلى أصحابها من أكرم السبل وأقربها . فأحست البلاد الراحة والطمأنينة ، وذاقت لذة العيش الهنىء ، الذى لايكدره الاستبداد .

ولا يشوبه الظلم ، وماذا ينتظر من وال أخذ الدروس الأولى من أبى الخطاب عبد الأعلى؟ وأخذ الدروس الأخيرة عن الإمام عبد الرحمن بن رستم ؟ وصحب الإمام عبدالوهاب ؟ إنه اقتبس الهدى والدين والخلق من ثلاثة أعلام ، كان كل واحد منهم حجة من حجج الله فى الأرض .

عندما مرض السمح مرض الوفاة ، اجتمع إليـــه الناس ، وطلبوا منه أن يوصيهم[1]، فأوصاهم بتقوى الله واتباع الشرع الشريف، ونصرة الأئمة ماساروا على الحق ، واستقاموا على الطريق، وهى وصية وإن كانت مختصرة فى ألفاظها ، ولـكن لامزيد عليها لمستزيد ، إن تقوى الله فى السر والعلانية واتباع الشرع الشريف هو كل ما يطلب من مؤمن يطلب السعادة لنفسه فى الدنيا والآخرة ، أما قضية الأمة فقد لفت إليها هذه اللفتة الـكريمة التى هى القاعدة التى تبنى عليها سياسة الأمة ، والتى جرى عليها الإباضية منذ نشأتهم ، فإن الأئمة أو الخلفاء الذين تسند إليهم الأمة مهمة الحـكم ، وتضع فى أعناقهم أمانة الدولة ، تجب لهم الطاعة الـكاملة من هذه الأمة ، ما أقاموا كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، وساروا بسيرة السلف الصالحين، فإن انحرفوا عن هذا الصراط السوى، وحادوا عن الطريق القويم، وخانوا الله والأمة فى الأمانة ، فإنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق؛ وعلى هذا النمط كانت السيرة ؛ سيرة الولاة وسيرة الأمة من هذه الفرقة فى أزمنة الظهور وفى أزمنة الـكتمان .

---

(١) راجع الازهار: الإباضية ص ١٤٨ .

أبو الحسن أيوب بن العباس [1]

بطل آخر من الأبطال الذين يملؤون الدنيا و يشغلون الزمان ، يشهد له أبو العباس الشماخى بأنه :« من أهل التقى والصلاح ، والاشتهار فى طرق الخير وسبل الرشاد »[2]

ولكن هل تكفى هذه الشهادة للدلالة على منزلة الرجل فى عصره . ومقامه بين قومه ، وأثره فى الحياة ؟ إن أبا العباس الشماخى من أولئك المؤلفين الحريصين على الدقة فى الوصف، والصدق فى الحديث، وهو يختار كلماته اختياراً يقصد ما ترمى إليه من معان ، وتؤديه من أغراض ؛ ولذلك فإن هذه الجملة القصيرة التى وصف بها هـذا الفارس البطل بالاشتهار فى طرق الخير وسبل الرشاد ، قد تقتضى من مؤلف آخر عدداً طويلا من الصفحات ليدل بها على هذا المعنى الكبير العميق .

إن الشهرة فى طرق الخير وسبل الرشاد ليست أمـراً ميسوراً يستطيع أن يحصل عليه الإنسان بعمل يسير، أو كفاح قريب ، أو مظهر خادع غرار ، وحتى لو استطاع الإنسان أن يحصل على شهرة فى جانب من جوانب الخير، فإن هذه الشهرة الكاذبة سرعان ما يبدو زيفها، وتتضح حقيقتها، ويزول البهرج الذى غطيت به.

إن الإنسان لا يمكن أن يشتهر فى طرق الخير وسبل الرشاد إلا إذا اتخذ ذلك مبدءا يعتمده ويعتنقه و يعمل به لنفسه ، ويكافح من أجله، ويحاول أن يجعله مبدءا للناس جميعا يعتقدونه حقا ويعتنقونه مبدءا ،ولا يصل الإنسان إلى هذه

---

(١) ذكره أبو زكريا الباروني فى الطبقة الرابعة ؛ فهو من علماء النصف الثانى للقرن الثانى . وكان عاملا للامام عبد الوهاب على جبل نفوسه ونواحيه .

(٢) السير ١٦٥ .

الميزة إلا إذا كان عمل الخير خلقا يتحلى به ، ويحمل مَنْ تحت رعايته على اتباعه ويدافع عنه فى جميع الأحوال .

وإذا كان أيوب بن العباس من ذوى العقائد الثابتة ، والإيمان الراسخ . والخلق المتين ، والعلم الغزير ، إذا كان هذا الرجل يتحلى بجميع هذه الفضائل ، وبما هو أكثر من هذه الفضائل ، فإن له ميزة أخرى يمتاز بها عن الناس، وينفرد بها دونهم . هذه الصفة : هى الشجاعة التى لا تعرف التردد أو الهزيمة أو الخور ، إنها قوة القلب الكبير فى قوة البدن السليم الذى وهبه الله الصحة والعافية والسلامة . وهو بهذه النعمة التى خصه الله بها يثق فى ربه ثقة لا تحسب للخذلان حساباً ويثق فى قوته ثقة لا تخشى الضعف أو الخور ، ويثق فى مهارته وذكائه وعبقريته الحربية ثقة لا تخشى مراوغة أو مكيدة أو حيلة ، وهذه الثقة بنفسه ، جعلت الأمة تثق فيه ، وتعتمد عليه عند ما يحزبها أمر أو يشتد عليها كرب . ولعل فى القصص الآتية برهانا على هذه الصفات الممتازة التى لا يتحلى بها إلا أفراد فى تاريخ البشرية الطويل . يقول عن نفسه : « لا أعلم من فاس إلى مصر فارساً يبارزنى » فهل يكون هذا القول من هذا البطل غروراً سولت له به نفسه ، ووسوس به إليه الشيطان ؟ هل يكون هذا الادعاء باطلا عندما يجبهه الحقائق ويصطدم بالأبطال ؟ إنه يتحدى نصف قارة كاملا ، يزعم أنه لا يجد فيه من يقف له يرد له الضربات ، ويكيل له اللطمات ، ويغدق له كؤوس الشراب من حياض المنون المترعة .

إننا ولا شك سنتردد فى تصديق هذا القول حين يعرض علينا فى هذه الدعوى الفضفاضة الواسعة حتى نعرضه على التاريخ ، وللتاريخ حق الحكم على صحة هذا الادعاء أو بطلانه ، فهل تكفى شهادة التاريخ ؟

كان عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم أميراً للمؤمنين ، وخليفة للمسلمين على أغلب شمال أفريقيا ، من مراكش إلى سرت، ما عدا شريطاً ساحلياً ضيقاً ينقطع فى بعض الجهات . وثار على الإمام جماعة من المعتزلة فى الجزائر، لهم علم ولهم قوة ولهم بطولة . وتضايق الإمام من هذه الثورة التى كانت تهدد أمن الدولة والبلاد، فاستنجد بجبل نفوسه ، وطلب منه أن يمده بمائة من خيرة الفرسان الشجعان، على أن يكون معهم ثلاثمائة من الفقهاء والمفسرين وعلماء الكلام ، وتشاور الناس فى هذا الطلب ، وبحثوا أمر الإمداد ، وقرروا بالإجماع أنه واجب عليهم ، ولكنهم فكروا فى هذا الجيش الذى سيكلفهم ويكلف الإمام مؤونة وتعباً ، وافترح مقترح أن يختاروا أربعة أشخاص يقوم كل واحد منهم مقام المئة ،ووجد الاقتراح قبولا ، فصادق عليه الجميع ، ثم بدأت عملية الاختيار؛ إن الإمام يريد مائة فارس من الفرسان المغاوير ، وهم يريدون أن يرسلوا إليه فارساً واحداً يقوم مقامهم ويغنى غناءهم ، ومن لهذا الموقف غير هذا البطل الذى يتحدى نصف القارة كاملا فى اعتداد وشجاعة ، إنه الرجل المطلوب أو هو رجل الساعة كما تجرى تعابير السياسيين .

وعرض عليه القوم الطلب والاختيار ، فهل فكر وتردد ؟

موقف صعب يوضع فيه الرجل أمام أقسى امتحان ، إنه لم يكلف بالدخول فى معمعة حرب يجالد الأبطال كواحد منهم ، ولكنه وضع فى مقام جيش يسير من قطر إلى قطر ليهزم جيشاً يهدد الإمامة . قبل البطل هذا العرض باعتداد واستبشار، وبرهن أنه أحق رجل بالثقة التى وضعت فيه ، واجتمع بزملائه الآخرين وقرروا المسير . قرروا أن يقطعوا هذه القفار الموحشة من جبل نفوسه إلى غربى الجزائر ، ليقفوا أصعب موقف وقفه بطل فى التاريخ . ووصل أيوب بن العباس حيث ينتظره الموت ، فاغر الفم ، مكشر الأنياب . وعرض خدماته على الإمام

وأعان أنه مستعد أن يقوم مقام المدد الذى يطلبه الإمام من أبطال الكفاح ورجال الحرب ، فكانت ذراعه القوية ؛ وسيفه البتار أقوى ضربة وجهها الامام عبد الوهاب إلى الواصلية من المعتزلة الذين طالما تحكموا بالإمامة ، واعلنوا عليها الثورة أو العدوان .

إن هذه القصة تشرح معنى الشهرة التى أشار إليها أبو العباس الشماخى فى أول هذا الحديث ، فهل استطعتُ أن أكشف النقاب عن الغرض الذى أرمى إليه ؟ أم لايزال يكتنفه الغموض ؟ إنه لولا الشهرة بالسير فى طريق الخير والرشاد ولولا الشهرة بالصلاح والسداد ، ولولا الشهرة بالقوة والشجاعة والمضاء ، لما اتفق شعب كامل على وضع ثقتهم فى رجل واحد ينوب عنهم فى الدفاع عن الكرامة فى بلد بعيد، يجهلون كثيراً من قوة أصحابه واستعداداتهم . ولولا الشهرة لما اتفق شعب كامل على أن يقوّموا رجلا بمائة رجل . لقد سبق للتاريخ أن قص قصص الزعماء والأبطال ، وأشار إلى أن كلمة بعضهم لاتسقط فى الأرض ، ولكن ذلك لم يكن لقوة الشخص نفسه ، ولكن لمن يتزعمه، كما قيل: إن للأشتر ألف سيف يسلها غضبه ، ويغمدها رضاه .

إن هذه القصة التى ترويها كتب التاريخ عن بطولة أيوب بن العباس ، تكفى شاهدا على ثقته فى نفسه ، وثقة الناس فيه ، واستحقاقه لتلك الثقة .

ولكن لماذا نقتصر على شاهد واحد وللرجل مواقف كثيرة لا تقل مجداً وعظمة ؟

اتفق الواصلية من المعتزلة فيما بينهم بعد أن أوقع بهم هذا البطل العظيم القوى، وقتل أبطالهم وفرسانهم . وأذاقهم مرارة الهزيمة . اتفقوا أن يكيدوا له فيقتلونه غيلة إذا استطاعوا ، وهم يعرفون أنهم لا يقدرون عليه مواجهة ، ويعسر عليهم

أن يجدوا منه غرة فى الأحوال العادية ، ولذلك فقد دبروا المكيدة الآتية .

إنهم قوم بداة يسكنون الخيام ، ويرعون الأغنام ، فلماذا لا يستضيفونه إلى حيِّهم ، ويكثرون له أطائب الطعام والشراب ، حتى إذا ثقل عليه وغلب عليه النوم وثبوا عليه وقتلوه .

وجاءوا يعرضون عليه ضيافتهم فقبل وهو يعرف أنهم أشد الناس حقداً عليه وبغضاً له .

ونصحه الإمام ونصحه الأصدقاء أن يرفض هذه الدعوة غير الكريمة ، ولكن البطل العظيم أصر على قبول الدعوة وتشريف الحى بالزيارة . وركب مع القوم ووصل إلى الحى المحتفى المضياف ، فقدم إليه العشاء الذى تعبت فى إعداده بنات الحى : طعام كثير ، وشراب كثير ، ولبن حامض كثير ، وأكل هذا الرجل الشره الأكول . أكل حتى أتم الطعام ، وأكل حتى أتم اللحم ، وانتقى العظم . وشرب حتى استنفذ ما فى الركاء من ألبان . وكان القوم ينظرون إليه وهم يتغامزون مستبشرين فرحين . . .

إنه يأكل كأنه فى منزله ، لا يتكلف ولا يتعفف ولا يخاف ولا يحذر ، ونتيجة ذلك سوف تظهر سريعاً ، سوف يثقل عليه الطعام والشراب ، وتأخذه سنة من النوم فيجدون الفرصة التى انتظروها بفارغ الصبر ، وأعدوا لها الأسباب والوسائل . ولكن الرجل خيب ظنهم ، فقد قام بعد أن نظف الأوانى مما فيها من طعام ، فصلى صلاة العشاء الآخرة ، ثم تربع فى مجلسه وبدأ يتلوا القرآن الكريم ، واستمع الناس إليه ، فأطال ، وبدأ الملل يتسرب إلى نفوسهم ، والنوم يهز أعناقهم ويؤرجح رؤوسهم ، وطالت التلاوة وامتدت حتى بلغت صلاة الفجر ، فصلاها ثم استأذن رجال الحى فى الرجوع . إن الفرصة الأولى قد ضاعت إلى غير رجعة فما العمل ؟ وفكر أذكى القوم وأشجعهم فقال : لو طلبنا منه أن يعلمنا الفروسية حتى إذا

لاحت لنا منه غرة قتلناه ، وتكفل أن يقوم بمهمة القتل . وأعجب الشباب بالفرصة الثانية واستعدوا لها ، وحمل رئيس القوم سيفه وجاء إلى المحارب المقدام يعرض عليه مُلتمَس الشباب ، فأجابهم إلى ما طلبوا ، واصطفوا على مقربة من الحى ، وبدأ الدرس .

كان الشباب يحملون عصياً فى مقام السيوف ، وكان الفارس الكبير يدربهم على مقارعة الاقران ومجالدة الفرسان ، وأساليب الكر ، وخدع الفر ، حتى ظن رئيس القوم أن صاحبهم قد استغرق فى الدروس ونسى الحذر ، وأمكنته منه الفرصة ، وواتته الغرة التى كان يتحينها ، فوجه الضربة القاضية فيما يظن ، ولكن الفارس الذى عرف نوايا القوم مقدماً ، ولم يغفل عنهم لحظة عين ، راغ عن الضربة ، واتجه إلى يمينه فقتل ، واتجه إلى يساره فقتل ، وأطلق بقية الفتيان أعنة خيولهم ، وأوغلوا فى الفرار ، فالتفت الشيخ إلى نساء الحى وهن يعولن وقال لهن : أزيدكن أم كفاكن ؟ فصحن به كفى كفى ، ولكز جواده فطار به إلى تاهرت عاصمة الأمامة ومقر زملائه الذين كانوا ينتظرون فى كل لحظة أن يوافيهم خبر مقتله ، ولكن أيوب بن العباس الذى يتحدى الفرسان ما بين فاس ومصر عاد سالماً موفوراً . . .

إن هذه القصة صورة أخرى من صور الشجاعة والبطولة والثقة بالله وبالنفس . يذهب البطل إلى عقر دار العدو . . العدو الذى لا يتورع عن الغدر والخديعة والغيلة ، يذهب ليأكل طعامهم ويشرب شرابهم ويبيت بين أعدائه فى حيهم ، ويسلك فى كل ذلك سلوك الرجل المطمئن المؤدب حين يكون مع أعز الأصدقاء وأوفى الأحبة الذين يكرمونه بكل ما تميل إليه النفس والشهية .

إن هذا الرجل بهذا السلوك نادرة من نوادر البشرية فى خَلْقه وفى خُلُقه ، وفى دينه وأمانته وعلمه وثقته بربه وبنفسه .

وصل إلى تاهرت بعد سفر شاق قطع فيه آلاف الأميال فى صحارى قاحلة

جرداء . ومهما كانت قوته ومهما كانت قوة الجواد الذى أعده لهذه المغامرة الفريدة فى التاريخ ، فإن التعب لا بد أن يلحقه . إنه يتكون كما تتكون جميع المخلوقات الحية من لحم ودم وعصب ، ولذلك فقد طلب من الإمام أن يعطيه جواداً يستطيع أن يدخل به المعركة ويقارع عليه الأبطال ، واستجاب الإمام العظيم للبطل العظيم فخيره فى خيول الدولة وقد كانت الدول فى ذلك الحين تستعد بالخيول « **وأعدو لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل** » ودخل البطل إلى اسطبل الدولة وبدأ يختار الجياد واحداً واحداً فهل وجد ما يرضيه ؟ وهل نجحت خيول الدولة فى هذا الامتحان الذى يقوم به هذا البطل الليبى العتيد ؟ لقد كان يمسك بناصية الجواد ويجذبه إليه فيقع على ركبتيه ، ولم يزل كذلك بها حتى اختبرها جميعاً ، وحينئذ رجع إلى هذا الجواد الذى قطع الصحراء ، وظن أن التعب أنهكه وطول السفر أضناه ، فلما أمسك بناصيته وجذبه إليه لم يستجب له الفرس ولكنه رفعه إلى أعلى فى اعتزاز وخيلاء تجيدها الجياد . عند ذلك انطلقت من شفتى الفارس الكبير هذه الكلمة التى تدل على الإعجاب والإعزاز والحب لهذا الجواد لأصيل : « البركة فى البرذون » فضربت مثلا ، وكلام هؤلاء الفحول كله مثل وعبرة .

هذا بطل عرف الإمام عبد الوهاب دينه وخلقه وشهرته بالصلاح والتقوى ، وعرف شجاعته وقوته وثقته فى ربه وثقته فى نفسه وعمله الخالص لله والأمة ، فلما بلغه خبر وفاة عامله على ليبيا ، هذا القطر الذى كان يعرف فى ذلك الحين « بجيز طرابلس » ويعنون بذلك جميع الأراضى الواقعة ما بين سرت والقيروان وجبل دمّر ما عدا طرابلس المدينة .

لما بلغت الإمام وفاة عامله السمح ، ذلك العامل الذى تتلمذ عن أعظم إمامين فى ذلك العصر ، وهما أبو الخطاب وعبد الرحمن ، ثم درّب به على شؤون الإدارة الإمام

عبد الوهاب ، الإمام العالم القوى فى دين الله ، كان من أوائل الأسماء التى قفزت إلى ذهن الإمام : أيوب بن العباس ، ومنـذ ذكره لم ينسه ، ولم يستطع اسم آخر أن يطغى عليه رغم كثرة العظماء فى ذلك العصر . إنه لم يفضل عليه حتى بعض زملائه الذين سافروا معه فى الوفد ، والذين قد يفوقونه علماً ومعرفة ، ولذلك رأى أن يحمله هذا العبء الثقيل وهو مطمئن إلى أنه أسند الحمل إلى أكفأ رجل يستطيع القيام به . ولما استشار بعض خواصه من أهل الشورى وافقوه فأرسل إليه يوليه مكان سلفه العظيم السمح المعافرى .

تولى العمل وقام به كما قام به سلفه ، قوة فى دين الله ، ومحافظة على شرع الله ، وعدل بين جميع الناس فى الحقوق والواجبات ، وحفاظ على الأمن والسلام ، حتى كانت أيامه أيام خير وبركة ورخاء .

أبو عبيدة عبد الحميد (1)

عندما توفى البطل العظيم أبو الحسن أيوب بن العباس أصابت الامام حيرة وربكة فيمن يختاره ليقوم بالعمل فى ليبيا ، مَن هذا الرجل الذى يستطيع أن يقوم مقام أيوب بن العباس ؟ ويملأ فراغه ؟ ولا تعنى هذه الحيرة أن الأبطال كانوا قليلا فى ذلك الحين، أو أن المسلمين المخلصين الذين يوثق بدينهم وخلقهم، ثم هم يقوون على تحمل أعباء هذه الأمانة التى توضع فى أعناقهم كانوا من النزرة بحيث يبحث عنهم الباحث فلا يهتدى الى واحد منهم إلا بعد عناء . ليس هذا ما تعنيه حيرة الإمام ، وانما احتار الإمام لأن عدداً جما تتوفر فيه شروط الكفاءة للقيام بهذه المهمة ، ولم تتبادر الى ذهنه ميزة خاصة بأحدهم حتى يكون ذلك سببا لإناطة هذا الواجب به ، ولذلك بعث إلى نفوسه يستشيرهم فى الأمر، ويخيرهم فى الوالى الذى يضعون بين يديه مقدراتهم ، واجتمع أهل الشورى وبحثوا الموضوع من جميع أطرافه ، واستعرضوا الرجال الأكفاء ، واحداً واحداً ، واخيراً قرّ رأيهم على أبى عبيدة عبد الحميد الجناونى، فأخبروه أنهم رشحوه لأن يتولى أمورهم ، وأنهم كتبوا بهذا الترشيح الى الإمام ، وما عليه إلا أن يستعد للقيام بهذه المهمة الخطيرة . ولو كان أبو عبيدة من أولئك الرجال الذين يطلبون الدنيا ، ويبحثون عن الجاه ، ويلتمسون وسائل السلطة ، لو كان من هؤلاء لطار فرحاً ، ولا متلأ غبطة ، ولكنه كان مؤمنا مخلصا فى إيمانه ، تقيا صادقا فى تقواه ، فلما أبلغه القوم اختيارهم له ، وتكليف الإمام له، امتنع كما امتنع

---

(1) ذكره أبو زكريا ، فى الطبقة الخامسة فهو من علماء النصف الأول من القرن الثالث . وقد كان للامام عبد الوهاب ثم الإمام أفلح على حيز طرابلس ومركزه جارو .

سلف(١) له من قبل عن تولى الأمامة ، وبذل الشعب كل وسيلة ليحملوا الرجل على قبول هذا الشرف الذى تُولِّيه إياه الأمة والإمام ، فلم يقبل ، وكان جوابه لهم فى كل محاولة قوله : أنا ضعيف: أنا ضعيف: أنا ضعيف ، يكررها فى إصرار وتأكيد ، ولما لم يتمكنوا من إقناعه كتبوا الى الامام برفض أبى عبيدة واعتذاره لضعفه.

لو كان القوم طلاب دنيا لتبدل وجه التاريخ ولسخر الإمام من هذا الرجل المغفل الذى يعرض عليه الجاه والسلطة فيزورُّ عنها ، ولأناط الإمام هذا الشرف بغير هذا الرجل الجامد العزوف ، لكن الإمام لم يكن من أولئك الناس الذين ينظرون إلى الأشياء بقيمة الحياة الدنيا ، ولكنهم يزنونها بميزان الإسلام ، فلما وجد هذا الرجل الذى يفر بدينه فى حرص وتشدد ، عرف أنه وقع على أصلح رجل للأمر ، وان هذا الرجل حقيق أن لا يخاف غير الله ، وأنه لا يطمع فى غير الله ، وهاتان الصفتان هما أكرم الفضائل التى يجب أن يتحلى بها من يلى أمراً من أمور الدولة .

بعث الإمام رسالة أخرى يؤكد فيها أمره الأول بتولية أبى عبيدة ، وأقسم فى هذه الرسالة بكل اللغات التى يعرفها أن لا يولى أمر المسلمين إلا رجلا يخاف ضعف نفسه ، ثم حلل العذر الذى اعتذر به أبو عبيدة فقال : « إن كنت ضعيف البدن فتولَّ أمر المسلمين والله يقويك ، وإن كنت ضعيفا فى المال ففى بيت المال غناء للجميع ، وإن كنت ضعيف العلم فعليك بأبى زكريا التوكيتى » ، إنها رسالة من راع يعرف كل شىء عن رعية هو مسؤول عنها أمام الله . وأصبح أمر الإمام واجب الطاعة حتى التنفيذ ، ولو كان غير أبى عبيدة فى هذا الموقف لتقبل الأمر فى صمت ، ولكن أبا عبيدة لا يزال متردداً ، إنه يطلب مهلة للتفكير وتقليب الآراء ، ولذلك طلب من إخوانه الذين يمسكون برسالة الإمام ، ويطالبونه بالتنفيذ أن يمهلوه إلى الغد ليستشير .

---

(١) هو العلامة مسعود الاندلسى راجع الأزهار الرياضية ص ٩٩

من يستشير أبو عبيدة ياترى ؟ ومن هذا الرجل العظيم الذى يلجأ إليه أبو عبيدة يلتمس منه الرأى والنصيحة ؟ لعله أبو زكريا التوكيتى ؟ لعله أبو مهاصر ؟ لعله أبو زيد ؟ لعله أبو مرداس ؟لعله واحد من عشرات العلماء الأعلام الذين تغص بهم المدن والقرى فى ذلك الحين ! . . . لا ! ! لا ! ! إنه لم يكن واحدا من أولئك ، إنه آخر من يخطر على بال شباب اليوم ، الشباب الذى يدعو إلى تحرير المرأة ، وهو يعتقد أن معنى حرية المرأة أن تنطلق فى الميادين العامة شبه عارية تزرع الفتنة، أو تدخل سكرتيرة فى مكتب المدير لتعمل عمل المنبه فى إثارة الأعصاب الغافية ، أو مضيفة تسلى الركاب باللفتة والبسمة ، أو موظفة تندس بين صفوف الموظفين تحمل أيديهم على العمل بشهوة عيونهم الزائغة التى تحملق فى جوع إلى وجهها الجميل أوقدها المياس ، أو متنزهة تزاحم الناس فى المراكب العامة ، والمجالس العامة ، والميادين العامة ، تزاحمهم بالصدر والعجز ، فإن لم تفعل ذلك واحتفظت لنفسها بكرامتها ، ولزوجها بجمالها ، ولولدها بحبها وحنانها حُسبت أسيرة لا تخدم المجتمع .

ولكن الواقع غير ذلك ، فلقد استطاعت المرأة المسلمة فى مختلف أدوار التاريخ — وهى محتفظة بكرامتها — أن تؤدى للأمة والمجتمع أجل خدمة ، دون أن تغمز بعين ، أو تميس بقد بين أنظار الجائعين ، أو أن تكشف عن الصدر والنحر ، وأن تطلى وجهها بالمساحيق ،وتثقل ميزانيتها وميزانية زوجها بمصاريف الازياء والتجميل .

قلت إن أبا عبيدة ذهب يستشير المرأة ، المرأة الكريمة العالمة، التى يجهل شباب اليوم ماضيها المشرق فى العصر الذهبى للإسلام . كانت هذه الشخصية العظيمة التى فزع إليها أبو عبيدة والتى كان رأيها أرجح من رأى جمع غير قليل من افذاذ الرجال، والتى استطاعت أن تخضع هذا الرجل العتيد لإرادة الأمة والإمام،

وأن تقنعه بالحجة والبرهان ، كانت هى « مَارَنْ » العالمة الذكية البارعة ، جدة المشائخ : هذه المدرّسة التى لا تزال آثار مدرستها تطاول الزمن فى القرية الجميلة « الجمّارى » هذه القرية التى تنحنى بدلال على الزرقاء الفاتنة ، وترنو فى حب وإعجاب إلى زميلتها « مَزُّو » إنهما قريبان شاعريتان تحضنان وادى الزرقاء الجميل ، إحداهما تستقبل قبلة الشمس عند البزوغ والأخرى تتلقاها عند الغروب .

عرض أبو عبيدة قضيته على جدة المشائخ ، عرض عليها هذه المشكلة التى حيرته . وأقضّت مضجعه ، فماذا كان الجواب ؟

إن العالمة العجوز ، لم ترد أن تبسط له فى الرجاء ، وأن تسند طلب المشائخ والإمام ، وإنما وضعت المشكلة أمام حساب الضمير ، وضعتها أمام المحاسبة النفسية التى لا يستطيع الإنسان أن يتملص منها ، إنك تستطيع أن تتملص من جميع الناس بالحق أو بالباطل ، ولكنك لا تستطيع أن تهرب من ضميرك ، ولذلك فقد قالت له : « إن تقدمت فأنت فى النار ، وإن تأخرت فأنت فى النار » وأوضحت له مقصدها فقالت : إن تقدمت وأنت تعرف أن فى المسلمين من هو أكفأ منك ، فأنت فى النار . وإن تأخرت وأنت تعلم أنك أكفأ المسلمين ، فأنت فى النار . وصمت الرجل العظيم وفكر طويلا واستعرض الأشخاص حتى إذا اقتنع بالنتيجة رفع إليها رأسه ، وهو يقول فى صدق ، وصراحة ، وأسف : أما فى الرجال فلا ! يعنى أنه لا يعرف أن فى الرجال من هو أكفأ منه للقيام بأمر المسلمين . وودع العجوز واستعد للقيام بالأمر ، ورجع إلى المسلمين الذين ينتظرونه فأخبرهم باقتناعه وقبوله(١) .

وسر القوم واستبشروا ، ولكنهم كانوا يعرفون أن الفضل فى حل هذه المشكلة يرجع إلى الجدة « مارن » ولذلك قال قائلهم ، هلم بنا نزر « وقاية »

---

(١) راجع القصة فى السير ص : ١٨٢ ، وفى الأزهار الرياضية ص : ١٥٣ .

هى خير من عمائمنا ، والوقاية ما تضعه المرأة على رأسها ليقى ثيابها مما تدهنه به من زيت وغيره ، وزار المشائخ الجدة وشكروها على ما قدمته لأمتها ودينها دون أن تقف خطيبة تتلوى على المنصة وهى تستعرض مفاتن جسمها أكثر مما تستعرض مواهب عقلها ، وتستدر الإعجاب بجمالها أكثر مما تستدر الإعجاب بفكرها ورأيها . . .

لماذا يا ترى يصر الإمام ويصر المسلمون على تولية رجل يشكو الضعف ، ويتباعد عن تحمل المسؤولية ، وقد كانت البلاد مملوءة بالرجال الأكفاء .

إن الإمام ذكر حادثة من حوادث التاريخ التى تمر بالإنسان فتترك أثرها الذى لا ينسى ولا يمحى . إن مواقف البطولة والشجاعة والاستمساك بالحق هى المعايير التى تقاس بها الرجولة عندما تناط الأعمال .

زار الإمام عبد الوهاب طرف المملكة فى الشرق هذه القطعة التى نسميها اليوم ليبيا ، واتخذ مقره فى قلب جبل نفوسه فى قرية « ميرى » من بلد الرُّجْبان اليوم ، هذه القرية التى أندثرت ولم يبق منها إلا المسجد العظيم الذى بناه الناس للإمام عبد الوهاب ، يلقى فيه المحاضرات العلمية ، ويتولى فيه التدريس والصلاة ، والفصل فى مشاكل الناس ، ذلك أن الأئمة العدول لم يكونوا يترفعون عن العامة ولا يبتعدون عنهم ، ولا يتخذون مجالس خاصة بهم لا يصلها إلا المقربون بعد استئذان ، إنهم كانوا يقومون بأعباء الدولة بين جموع الأمة وفى المساجد التى هى بيوت الله يؤمها جميع المسلمين ، وبقى الإمام الكبير وطاب له البقاء . فانصرمت من الزمن سبع سنين ، وكان بعض مرافقى الإمام خافوا على أنفسهم العنت ، فتزوجوا عدداً من إماء بنى زمور ، وولد الأمة هو ملك لسيدها لا لزوجها كما ينص الشرع الكريم ، وعندما ركب الإمام للرحيل وركب رفاقه معه ، أخذ

كل واحد منهم ولده من الأمَة التى تزوجها . وشغل الإمام بالوداع ، فغفل عن هذا الموضوع . واستحيى الناس ، استحيى العلماء والقضاة والعمال أن يتكلموا ، وأن يؤلموا خواطر هؤلاء الضيوف الذين رافقوا الإمام فى آخر لحظة ، لحظة الوداع، ولـكن أبا عبيدة لا يخاف شيئاً فى الحق ، ولا يجامل عليه أحداً ، ولا يساير حتى الإمام نفسه . ولذلك فما سمع بالحادث حتى جاء والناس فى موقع الوداع ، فلم يستأذن الإمام ولم يهمس فى أذن العامل أو القاضى بكلمة لطيفة أو توسل ذليل ، ولـكنه صرخ بما يملك من قوة الصوت : «خذوا عبيدكم يا بنى زمور» . إنه حكم الله . ولن يسكت عن مخالفة حكم الله ولو غضب البشر جميعاً .

وكان هذا الموقف الصلب الصريح القوى ، الذى لا يحابى ولا يلين ، هو الميزان الذى رجح به أبو عبيـدة على غيره من الأقران فى نظر الامام . لقد أقر الإمام أمر أبى عبيدة وأعجب به ، ولما جاء مجال الاختيار بين من تسند إليه مهام أمور المسلمين ذكر الإمامُ صلابة الرجل فى الحق، وقوة ايمانه وعلمه وحصانة خلقه ، فأصر على توليته ، وتولى أبو عبيدة .

لقد كان أبو عبيدة من أولئك المؤمنين القلائل الذين يفرقون بين المواقف ويعرفون متى تـكون الشدة ومتى يكون اللين ، إنه يترسم خطا الفاروق رضى الله عنه ، لا تأخذه فى الله لومة لائم ، ولـكنه إلى كل ذلك لا يرى نفسه إلا رجلا ضعيفاً قد ألقيت عليه تـكاليف ينوء بها القوى الأمين . وهو إذا خرج منها سالماً فقد نجا .

ولذلك فقد كان شديد الاحتياط ، ولـكنه عندما يستبين له الطريق لا يتردد ولا يقف ولا يحيد . وعندما تولى شئون الجبل ، كان هناك « خَلَـف[1] » رجل

---

(١) خلف بن السمح بن أبى الخطاب المعافرى .

ممن غرّته الحياة ، واستعبدته الشهوة ، وأذلت نفسه المطامع ، فاستهان بحرمة المال والدم ، وطلب لنفسه الخلافة ليقيم ملكا كالذى أقامه طلاب الدنيا فى كثير من نواحى العالم الإسلامى ، وكان « خلف » يستعلى ويتقوى فى النصف الشرقى من الجبل الأشم ، فلم يهتم له أبو عبيدة ولم يبال به ، لأنه لم يكن من طلاب التوسع أو الراغبين فى تمديد الحكم على أوسع رقعة ، وإنما شمر للقيام بما أنيط به ، والعمل على توفير أسباب الراحة والاطمئنان ، فأعطى الحق ، ونشر العدل ، وبسط الأمن ، كما فعل سلفه أيوب بن العباس ، وسكت « خلف » فى بادىء الأمر كأنه يزن هذا الرجل الجديد ، فلما رآه لا يلتفت إليه ولا يتحكك به ظن فيه الضعف . فبدأ يناوشه ويغير على بعض القرى المتطرفة ، ويتعدى الحدود بينهم ، فطلب إليه العامل العالم الشجاع أن يترك هذا الاستفزاز ، وأن يكف عن هذه الأعمال التى لا يقوم بها مسلم يرعى الله فى دينه وفى عمله . ولكن « خلف » اعتز بالاثم ، وواصل العدوان .

بعث خلف بعثة عسكرية من الفرسان فأغارت على حدود حوزة أبى عبيدة ، وقتلت ونهبت فى قرية (أدْرَفْ) التى لا تبعد عن (جادو) بما يزيد عن ٦ كيلو مترات ، ووصل الخبر إلى أبى عبيدة ، وتحقق من وقوع الغارة ، وعلم أن ما لا يقل عن عشرة من المسلمين المسالمين أريقت دماؤهم ظلماً وعدواناً ، وأنه قد استحلت أموال ، وانتهكت أعراض ، فقال لأصحابه لا يحل لنا السكوت بعد هذا العدوان ، وخرج لتأديب هذه البعثة ، فلقيت منه الصفعة المؤلمة التى يوجهها الأب أو المربى إلى خد الابن العاق ، أو التلميذ الشرير .

ولما تولت هذه البعثة منهزمة فارة ، أصدر أمره إلى جنده أن لا يتبعوا مدبراً ، ولا يجهزوا على جريح . وأن لا يستحلوا مالا ، أو يغنموا شيئاً ، إنه ذلك الموقف الذى عرفته من الخلفاء الراشدين ، وعرفته فى سيرة الحارث ، وأبى الخطاب ،

وأبى حاتم، إنه نفس الموقف لا يتغير إلا فى الزمان والمكان ؛ سيرة عطرة، ووقوف عند حدود الإسلام، وتخلق بخلق الإنسانية الرفيع .

ورجع بعد أن ضرب هـذا المثل الرائع ، وبرهن أنه قوى حين تستدعى الظروف القوة ، وعنيف إذا تطلب الموقف العنف، وشديد إذا كانت مصلحة الأمة تتوقف على الشدة ، ولـكن هذه القوة وهذا العنف وهذه الشدة لا تبلغ حد الطغيان ، ولا تتجاوز الحدود التى رسمها الإسلام لرد العدوان . ولما رجع العامل القوى إلى مركزه ، بعث رسالة إلى خلف يقول فيها وهو يرجو أن يحقن بذلك دماء المسلمين : « وإذا نزعت يا خلف يدك عن الطاعة فـكن فى حيزك وأكون فى حيزى وما بال الحرب » .

ووصلت الرسالة إلى « خلف » ، فماذا فهم ؟ إن الشيطان إذا نفخ بالغرور فى قلب إنسان لا يترك فيه مجالا للإستبصار والرشاد . . إن «خلفاً» لم يفهم إلا أن أبا عبيدة قد كال له صفعة مؤلمة يجب أن يردها له بأعنف منها ، وأن أبا عبيدة هذا ما بعث بهذه الرسالة اللينة الوادعة القانعة ، وما رضى بإقامة الحدود بينهما إلا لأنه شعر بالخوف ، وأحس فى نفسه ورجاله الضعف ، وإذا كان كذلك فلماذا لا يهجم عليه هجمة يستولى بها على هذه الحوزة التى يتولى أمرها هـذا الرجل الخائف الذى يقنع بإقامة الحدود .

إن تفـكير « خلف » لا يسمو به إلى تفـكير « أبى عبيدة » ولذلك فهو لا يفسر الإلحاح فى طلب السلام إلا بالضعف والخوف ، لأنه لا يقيم لأموال المسلمين ودمائهم وزناً ، فهو من أولئك الرجال الذين يعيشون تحت ضغط الشعور بالحقارة ، فهو يبذل كل مجهود ليـكوّن لنفسه سلطة ، وليظهر بين الناس بمظهر العظمة .

وأعد خلف عدته ، وكون جيشاً لجبا، وهجم على أبى عبيدة فى حين غفلة ، ولما بلغ الخبر أبا عبيدة كان الجيش المعتدى قريباً من مركز أبى عبيدة ، فلاقاه بمن حضر من الرجال الأبطال ، ولما تراءى الجمعان كان جيش أبى عبيدة لا يتجاوز ألفا ، وكان جيش خلف لا يقل عن أربعين ألفا ، وبدأت حرب الأعصاب ، ولعب الغرور بقلب الفتى ، فزين له الشيطان سوء عمله ، فأطلق جمعا من جيشه اللجب فى القرى المجاورة الوادعة ، وفى الناس الآمنين المسالمين ؛ يعتدى وينهب ويسلب ويقتل ، ثم بعث إلى أبى عبيدة يطلب منه الانسلاخ من بيعة الإمام الرسمى ، وبيعة خلف .

انقلاب فى التفكير ، وقلب للأوضاع ، ونظرة حَوْلاء لا تستبين الحق ولا تهتدى إلى سبيل الرشاد ؛ وحاول العامل الحكيم أن يقنع الوفد الذى يطالب بالبيعة لهذا الباغى الذى لا يفرق بين الحلال والحرام من شرع الله ، ولا يلتزم الحدود التى حدها الإسلام ، فلما الزمهم الحجة ، رجعوا إلى قائدهم يحملون إليه خبر الفشل وتصميم الرجل على الدفاع .

سلك أبو عبيدة كل طريق لحقن الدماء وإراحة المسلمين من مصائب الحرب ودمارها ، ولكنه لم يجد إلى ذلك سبيلا . وفسر عدوه هذا الموقف النبيل ، وهذا التحرج ، بالخوف والخشية ، بل لقد سولت لخلف نفسه أن يبعث لأبى عبيدة من يقول له : « دع عنك القتال ، فإنك لا طاقة لك اليوم بمقابلة خلف وعساكره ، ولا حاجة لك فى لقائه »[1] . وغضب الرجل الشجاع ! هل بلغ الموقف بالطامعين إلى هذا الحد ؟ هل ظن المغرور أن أبا عبيدة لم يتخذ هذا الموقف إلا خوفا منه ، وطلبا للسلامة ، وتحاميا للسيوف القواطع ، وهنا برزت

---

(١) راجع السير ترجمة أبى عبيدة .

تلك القوة التى يغطيها الرجل العظيم بالالين ؛ تلك القوة التى يودعها الله فى قلب من يشاء من المؤمنين الأوفياء . .

إنه الغضب لله ، الغضب الذى لا يبرد إلا بإحقاق الحق ، فأقسم بكل لغة يحسنها لهذا المغرور قائلا: «لأقاتلن خلفاً،ولو ألقاه منفرداً بسيفى هذا » وضرب بسيفه على فخذه ، ثم طلب ماء فاغتسل وتوضأ وصلى ركعتين لله ، وتوجه إليه بقلب المؤمن الذى لا يلجأ إلا إلى الله فيما دق وعظم من أمره ، وقال فى دعائه : « اللهم يامن لم أعرض عنه منذ استقبلت أمره ، لاتفرق هذه العصابة على يدى، إنك على كل شىء قدير(١) » وبعد ذلك تهيأ لرد العدوان وبدأت الحرب ، ولكنها لم تستمر طويلا ، فلقد انهزم الجيش اللجب القوى ، الذى يتكون من أربعين ألفاً ، وانتصر الجيش الصغير الذى لم يبلغ ألفاً من الأبطال .

وعندما ولى المنهزمون الأدبار ، صاح أبو عبيدة بصوته القوى بالأمر الذى يعرفه المؤمنون إذا حاربهم البغاة من الموحدين ، صاح فى أصحابه : لا تتبعوا مدبراً ، ولا تجهزوا على جريح ، ولا تتعرضوا لمسالم ، ولا تستحلوا مالا ، فاستمع الجند لكلمة القائد المظفر ، ووقفوا عند حدود النصر ، فلم يبغوا ، ولم يطاردوا هذه الفلول المعتدية ليثخنوا فيها الجراح ، ويكثروا فيها القتل ، ولم يذهبوا إلى أرضهم ليحتلوها ويطردوا منها خلفاً فتذوب أحلامه،ولم يقطعوا الرؤوس ليرسلوا بها إلى تاهرت ، عاصمة الإمامة ، فيكون هذا الرأس وسيلة أخرى يرتفع بها شأن أبى عبيدة عند الإمام . إنهم لم يفعلوا شيئاً من ذلك ، لأن الإسلام لا يبيح شيئاً من ذلك ، وهم إن لم يقفوا عند حدود الإسلام فى هذا الموضع فاحرى بهم أن لايقفوا عند حدوده فى غير هذه المواضع . وانكمش خلف وتفرق عنه الأتباع ،

---

(١) السير ترجمة أبى عبيدة .

وتبخر الحلم الذى كان يملأ رأسه ، ولـكن أبا عبيدة لم يستغل هذه الظروف ليثب على تلك الحوزة فيدخلها تحت الطاعة ، لأن الحـكم عند أبى عبيدة وأضرابه لم يكن القصد منه جمع الضرائب واستغلال السلطة ، وتـكديس الثروة لترفيه صاحب السلطان على حساب الشعب ، بسبب ما خُـول له من وظيفة ، وأسند له من عمل ومُـنح له من ثقة . ولـكن الحـكم فى نظر أبى عبيدة مسؤولية تلقى على العاتق ، يتجرد فيها المسلم المؤمن من أعماله الخاصة ، ليتولى شؤون الأمة العـامة ، فيتولى قويهم بالتربية والتهذيب ، ويتولى ضعيفهم بالعناية والرأفة والرحمة ، ويوصل الحقوق إلى أصحابها من أقرب السبل فى أقرب الأوقات ، ويعدل فى الأحكام ، ويوفر الأمن والطمأنينة والسلام ، وليس له مقابل ذلك غير ما يقيم أوده من طعام بسيط ، ويستر ظهره من لباس بسيط ، لا ترف فيه ولا إسراف ، وليس له بعد ذلك حق التصرف فيما يجمعه من مال ليضمن به مستقبله ومستقبل أبنائه ، كما يفعل الناس فى هذا العصر ، لأن كل الخيرات التى تستخرج فى زمن ما هى إلا حق لأبناء ذلك الزمن ، لا تدخر لغيرهم ، ولا تمنح لسواهم ، أما المستقبل فبيد الله ، ولا يفـكر فيه الإنسان ، لأن تفـكير الإنسان لا يمتد الى ما بعد الحاضر ، أو المستقبل القريب ، وعلى هذا التفـكير كان يعيش أولئك المسلمون ، الذين حملوا رسالة الله ، فقد مات محمد صلى الله عليه وسلم ولم يترك لبناته وأقاربه ما يمـكن أن يورث ، وعاش أبو بـكر رضى الله عنه على القوت الضرورى ، واللباس الضرورى ، وخدم عمر الأمة الإسلامية خدمة بلغت النهاية فى الإخلاص والتضحية ، وفتح لها وبها مشارق الارض ومغاربها ، وكانت زوجته الحبيبة طوال خلافته تتمنى قطعة من الحلوى ! الحلوى الرخيصة التى توجد فى بيوت المتوسطين والفقراء ، فلم تظفر زوجة أمير المؤمنين الغالية بهذه الأمنية الرخيصة ، وعندما اقتطعت ثمن هذه الحلوى من القوت الضرورى الذى كان

يتناوله عمر وآل بيته ، رأى عمر أن ذلك زائد عن استحقاقه اليومى ، فرده إلى بيت المال !

إنه لم يأخذ من الأمة حتى حق الأجير الذى يعمل فى الحقل أو المصنع ، ولم يطالب بتحديد ساعات العمل ليكون الوقت الباقى لنفسه وأهله وعياله، وعلى هذا النمط كان يسير أولئك العالقة الذين يسهرون على شؤون الأمة ، ليلهم ونهارهم ، ويؤرقهم أن يبيت فرد من الأمة عاريا أو جوعان ، ويحز فى نفوسهم أن يتعطل حق من الحقوق ، فلا يصل إلى صاحبه فى أسرع وقت .

إنهم وقد تقلدوا هذه المسؤولية العظمى ، وتحملوا تلك الأمانة الغالية ، ووضعت فيهم تلك الثقة العظيمة ، حسبوا أنهم أقل من أُجَراء فوضعوا أنفسهم وأموالهم ومالهم من قوة البدن ، وقوة العلم ، وقوة الفكر ، وضعوا كل ذلك لخدمة الأمة ، وهم يشفقون مع ذلك أن تكون أعمالهم تلك غير مقبولة عند الله . إن تولى الإمارة والقيام بمهمة الحكم فى الأمة الإسلامية ، لا يعنى سوى تضحية الفرد ، تضحية كاملة ، ينسى فيها نفسه وأهله وقرابته من أجل هذه الأمة التى أولته الثقة ، وحكّمته فى مصيرها وشؤونها .

تحدث أبو العباس الشماخى عن البطل الذى يندر أن تجد له مثيلا فقال : « وكان أبو عبيده شديد الشكيمة ، قوى العريكة ، لا تأخذه فى الله لومة لائم » (١) .

إنها شهادة رائعة من مؤرخ أمين مطلع على أسرار التاريخ ، عارف بسير الرجال ، فهل لأبى عبيدة شواهد من هذا التاريخ تسند هذه الشهادة ، وتثبت هذا الحكم . ؟

---

(١) السيرة : ترجمته .

إن الباحث الذى يريد أن يدرس حياة هذا العامل الصادق المخلص يجد فى سيرته عشرات الشواهد والشهادات . ويكفى عن كل ذلك فيما أظن ، شهادة أربعة أعلام أجمعت أمتهم حينئذ أن كل واحد منهم يقوم مقام مائة . إنهم الوفد الذى سافر من جبل نفوسة إلى تاهرت ، لينصروا الإمام فى الميدانين العسكرى والعلمى ، ولما أعجب بهم الإمام سألهم: هل تركوا أحدا فى الجبل يبلغ ما بلغوا إليه من العلم والخلق والدين . قالوا : تركنا من هو خير منا[1] : أبا عبيده عبد الحميد الجناونى ، فكانت هذه الإجابة منهم أوكد شهادة عرفها التاريخ فى الاعتراف بالحق والفضل .

وشاءت إرادة الله أن يزور الإمام عبد الوهاب جبل نفوسه — هذا الجبل الشامخ ، الضارب فى السماء الذى نسميه الآن :الجبل الغربى— فى حاشية عظيمة من أهل العلم والفضل والادب،وأن يختار قرية «ميرى» التى تعتبر قلب الجبل فى ذلك الوقت مركزا لاقامته،وأطلق سراح الخيل بعد عناء السفر الشاق،هذه الخيل التى حملت الركب العظيم من تاهرت الى جبل نفوسة ، فتساهل الرعاة فى حفظها إكراما لها،واحتراماً لمن جاء عليها ، فدخل بعضها إلى الغابة ، ونالت من هذه الغابة التى يحرص الناس عليها،لأنها مدار زراعاتهم ، ومنبت أرزاقهم ، وكان أبو عبيدة فى ذلك الحين رجلا عاديا من سائر الناس ،لايمتاز عنهم بشىء غير ما يقدمه لربه ، فلما سمع بوصول الإمام إلى قرية « ميرى » وبتهاون رعاته فى رعاية الخيل وحفظ المزارع منها ، خف إلى ملاقاة الإمام . لا ليسلم عليه ، ويرحب بمقدمه ، ولا ليتملقه ويتزلف إليه ، لم يخف إليه لذلك ، ولم يذهب إلى الإمام ليرفع اليه الشكاة ، ولم يراع سلسلة المراتب ، فيتقدم إلى

---

(١) راجع الأزهار الرياضية ص ١٤٣ .

العامل أولا ، ليكون هذا العامل هو واسطة الحديث ، ولكن وقف أمام الإمام وقبل أن يرفع إلى اعتابه العالية ، ومقامه السامى ، أرق التحايا ، وأخلص النوايا ، كما يفعل المتملقون من طلاب الدنيا، الذين يتزلفون للحكام ، قبل أن يفعل شيئا من ذلك ، صرخ بصوته القوى الجهور ، الذى يعتز بالإسلام وبالحق . قال : « إنه الرعاة عن المضرة . إن لم تعرف فقد اعلمناك ، والا فصل بيننا هذا »(١) وهز السيف فى وجه الإمام الضيف .

كان الإمام ينظر إلى هذا الرجل الخشن القوى العنيف فى أعجاب ، ثم سأل عنه من يكون ؟ فقيل : أبو عبيدة عبد الحميد ، وذكر الإمام شهادة الوفد فى تاهرت ، فقال : صدق الشيوخ ، هو مثلهم أو خير منهم .

ثم ابتسم الإمام فى بشر وتواضع وأصدر أوامره المشددة على الرعاة لتحرص على حفظ أموال المسلمين .

فهل تكفى هذه الحادثة لتكشف عن الخلق العظيم الذى يتحلى به هذا المسلم المؤمن . إنك تستطيع ان تضعه فى صف مع ذلك المؤمن الذى أجاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب حين هدد بإمالة رأسه الى الدنيا فقال له : إذن نقومه بالسيف فحمد عمر الله أن جعل فى المسلمين من يملك من القوة والشجاعة مايردع به حكام الدولة ، ويلزمهم السير فى الطريق الأحب الذى اختاره الله ورسوله لسلوك البشرية الواعية .

إن أول عمل قام به أبو عبيدة بعد أن تولى أمر المسلمين فى الجبل أن أدب رجلا دعا بدعوى الجاهلية فقال : يا آل فلان ، يستنجد بقبيلته . وإنك إذا أردت أن تعرف من أعماله مثل هذه الحادثة، فستحتاج إلى صفحات كثيرة .

---

(١) راجع الازهار صفحة ١٤٣ والسير ص ١٨٩

إن هذا الكتاب ليس كتاب تاريخ خالص يحصى الخطوات ويسلسل الحوادث ، ويربط الأحداث بعضها ببعض . إنه صور مشرقة من أولئك الذين ملأوا الدنيا حقاً وعدلا ومروءة ، وشهامة واستقامة، إنهم أولئك الذين كانوا على الإسلام الحق فى حربهم وسلامهم ، فى عقيدتهم وعبادتهم ، لم تمتد أيديهم إلى زخرف الدنيا بالباطل ، ولم تلوث سيوفهم بالدماء المظلومة،ولم تمتزج عقيدتهم بالبدعة المنحرفه ، ولم تمتزج عبادتهم بالخرافة الضالة .

ولعله من المناسب أن أختتم هذا الفصل بما جاء فى كتاب السير القيم : « ومال إلى ماطبع عليه من الورع،واطراح الحرص على الدنيا وترك الطمع ، وكان غاية فى إنفاذ الأمور وإمضائها ، وقائما بالمدافعة لأحوال البغاة ودفاعها ، ووافيا بما أمر من إصلاح النفس والدين والدنيا وتحصينها ، ولما ولى أحسن السيرة . »(١)

---

(١) السير : ١٧٩

العباس بن أيوب (١)

بطل من أبطال الكفاح ، ومؤمن من أخلص المؤمنين . رجل من أولئك الرجال الذين خلقوا أقوياء لتحمل الأعباء الثقال ، أولئك الرجال الذين يضعون أنفسهم لخدمة الأمة ، وصيانة الدولة ، وإقامة الحق . . إقامة الحق دون نظر إلى من يقام عليه الحق . . ومع هذه القوة أناة يزينها الحلم ، وتفكير تسدده الاستشارة ، وتردد فى بعض المواقف يفرضه استبانة الحق ، واستيضاح الدليل . . .

كتب مشائخ نفوسة إلى الإمام فى تاهرت يعزونه فى أبى عبيدة ، ويطلبون منه إسناد أمرهم إلى وال آخر ، يكون قوياً فى دين الله ، حريصاً على المؤمنين . ففوض إليهم أمر الاختيار ، وأخبرهم أنه سوف يولى عليهم من يشيرون به . فتشاوروا وأجمع أمرهم على العباس بن أيوب ، وكتبوا إلى الإمام برأيهم دون أن يخبروه .

أصدر الإمام أمر الولاية إلى العباس ، و بعث إليه برسالة التولية ، فلم يفرح بالمنصب ، ولم يتهرب من المسؤولية ، ولكنه جمع الناس وأبلغهم رسالة الإمام ، واستشارهم فى أمورهم ، ودرس معهم ماجدّ من الحوادث والمشاكل ، ثم رتّب أموره ، وهيأ نفسه للقيام بالمهمة العظمى الملقاة على عاتقه .

كان « خلف » قد انكمش بعد الضربة القوية التى وجهها إليه أبو عبيدة عندما غرّته نفسه ، ومنيته الأمانى ، فهاجمه فى مركز حكمه ، ولم يتحرك بقية مدة ذلك العامل القوى . فلما توفى أبو عبيدة و بقيت البلاد بدون عامل ، وانصرمت

---

(١) ذكره أبو زكريا فى الطبقة الخامسة فهو من علماء النصف الأول فى القرن الثالث كان عاملا على جبل طرابلس للامام أفلح بن عبد الوهاب .

أيام طوال تجرى فيها المخاطبة بين رجال الشورى والإمام فى تاهرت ، تحرك الشيطان للعمل ، ووسوس لخلف فأوحى إليه أن الفرصة سانحة . وأن هذا وقت العمل لتحقيق الحلم اللذيذ؛ الحلم الذى كان يداعب خلفا ليرتفع إلى مرتبة السلطان، ويتربع على كرسى الحكم . وتحرك الرجل من جديد ، و بدأ فى تجهيز الجيوش وإعداد العدة فما يكون موقف العباس بن أيوب ، أو توفيق بن أيوب كما يحلو لأبى مرداس أن يسميه .

بعث العباس بن أيوب العامل الجديد إلى خلف أن يكف عن العدوان ، وأن يلتزم حوزته ، وأن لا يتعدى على أموال الناس وأرواحهم ، ولكن خلفاً أخطأ مرة أخرى فى فهم هذه الرسالة ، وظن هذه الملاينة مرة أخرى ضعفاً وخشية لقوته، ورهبة من جيشه ، فتمادى فى غيه وأصر على موقفه ، واستمر فى عدوانه ، وسار بجيشه الكثيف ، نحو مركز العامل الحريص على سلامة البلاد والعباد .

ولما علم العامل الفتى الشجاع هذا الموقف من خلف، ورأى منه هذا الإصرار والعناد ، وسمع بمسيره نحوه ، استعد له وكون حملة لتأديب هذا الرجل العاق ، الذى ينحرف عن الإسلام ، ويستحل ما حرم الله من دماء المسلمين وأموالهم ، والتقى الجيشان داخل حوزة العباس وتراءى الجمعان . . .

كان جيش خلف كالموج الزاخر ، يضطرب بالفرسان ، كثير العدد ، حسن التجهيز ، وكان جيش العباس عبارة عن حملة تأديبية ، عبارة عن سرية صغيرة قصد منها رد العدوان. ورأى بعض ضعاف النفوس من جيش العباس، هذه الكثرة الهائلة فى جيش العدو ، وهذا الاستعداد المتين فخاف العاقبة ، فذهب إلى أبى مرداس وهو من رجال الشورى الذين يؤثرون على قائد الجيش ، ذهب إليه يكشف له عن رأيه ، ويبين له أن العدو يفوقهم عدداً وعدة ، ولكن أبا مرداس

أجابه إجابة المؤمن الواثق بربه الراجى للنصر ، العارف بقيمة الأبطال ، الذين يحاربون إلى جنبه ؛ الأبطال الذين يحاربون عن الحق ، ويرغبون الشهادة ، ويثبتون على المبدأ ، إن الفرق كبير جداً بين رجل يحارب من أجل جاه أو مال ، ورجل يحارب من أجل حق وعقيدة ؛ إذ أن الأول إذا تعسر عليه الحصول على الجاه أو المال ، تركها محافظة على الروح ، محافظة على سلامة نفسه ، أملا أن يجد فرصة أحسن ، ووقتاً أكثر ملاءمة ، أما الثانى : فإن أول ما يقدمه هو روحه ، أولذلك فليس له إلا أحد اثنين : إما النصر ، وإما الشهادة ، وليس له شىء يحافظ عليه ، ويبقى على سلامته .

قال أبو مرداس : لا أخاف على جيش فيه أبو الحسن الأبدلانى . وسكت الرجل ، ولكن الجواب لم يقنعه ، إنه يريد جواباً عملياً ، إنه يريد تأخير المعركة حتى يستعد لها كل الاستعداد ولذلك ذهب إلى أبى الحسن الأبدلانى فى الطرف الأخر من الجيش ، وأخبره نفس الخبر ، وأطلعه على الحقيقة المخيفة ؛ أراه كثرة العدو واستعداده ، وأراه قلة جيشهم بالنسبة إلى عدوهم ، ولكن أبا الحسن الأبدلانى أجابه إجابة الواثق بربه ، العارف بصحبه ، فقال له : لا أخاف على جيش فيه أبو مرداس . وعجب الرجل من حسن الاتفاق وصدق الفراسة ، وعظم الثقة فى الله ، واقتنع أن النصر لا يأتى من كثرة العدد وقوة الساعد فقط ، ولكنه ينبع من القلب ، ينبع من الإيمان ووقعت الحرب ، وتصادم الجيشان ، وطال بينهما النضال . . .

لم ينهزم جيش الباطل بالسرعة التى يظنها المؤمنون الصادقون ، فذهب أبو مرداس إلى العباس ، عامل الإمام ، وقائد الجيش العام . وقال له : « تب إلى ربك فما تأخر عنا النصر إلا لأن شيئاً ما وقع منك ، وما كان للباطل أن يقف أمام الحق هذا الوقت الطويل . . » ولم يغضب القائد على هذا الرجل الذى يتهمه

بالمعصية،ويحمله مسؤولية تأخر النصر ، ولـكنه قال فى حرارة وصدق واخلاص، اللهم إنى أتوب إليك من كل ذنب ارتـكبته،ثم اندفع إلى الميدان ، وصاح فى القوم:اعملوا كما ترونني أعمل، ولم تمض على هذه التصفية إلا لحظات قلائل،حتى انهزم الباطل بكثرته،وانتصر الحق بقلته ، ووقف أبومرداس وفلول جيش العدو تولى منهزمة مدبرة ،وصاح فى الجيش : لا تتبعوا مدبراً ، ولا تجهزوا على جريح، ولا تستحلوا مالا . ولـكن جندياً فى طرف الجند تحدى البطل العظيم ، أحد أولئك الأفراد الذين لا تهمهم الشخصيات، ولاتعظم فى أعينهم الأوامر ، إلا إذا كانت متسمة بالحـكمة والحق . وأعلن هذا الجندى العادى لقائد الجيش ، ولأبى مرداس ، أن فلول العدو لا تزال داخل الحوزة وأنهم سوف يطاردونهم حتى يخرجوا من الحدود،وعرف أبومرداس الصواب فى رأى الجندى البسيط، فسكت. ووافق القائد على هذا الرأى فطوردت تلك الفلول حتى تجاوزت وادى الآخرة(١)، وهو آخر الحوزة فى ذلك الحين . وقضى منذ ذلك الحين على هذه الفـكرة التى كانت تراود خلفاً ، فلم يحلم بها من بعد ، ولم ينهض لقتال . . انتهى خلف بعد هذه الصفعة المؤلمة،فلم يعد يحلم بالإمامة ، ولم يعد يطالب بالبيعة ، ولم يعد يباشر عمل السلطان الغشوم؛ يقتل الأرواح ويسرق الأموال، ولـكن أولئك القوم الذين كانوا يناصرونه و يعقدون عليه آمالا طوالا،وتعودوا العدوان بالغارة ، واستمرأوا طعم النهب والسلب ، واستحلوا الأموال بالباطل ، أولئك القوم لم ينفـكوا عن موقفهم ؛ فـكانوا يغيرون على أطراف الحوزة يقتلون ويسلبون ويغزون . ولما أصبحوا لا يجتمعون تحت إمرة قائد عظم خطرهم وكثرت غاراتهم،وتواصلت تعدياتهم ، ولهذه الأسباب قرر العامل الحازم أن يقضى على هذا الفساد ، وأن يفرض الأمن على البلاد التى لا تخضع لحـكم ولا تتبع نظاماً ، وكون جيشه

---

(١) وادى شديد العمق بين الرجبان والزنتان .

القوى ، وسار فكان الناس يتسابقون إليه مرحبين به منضمين إليه ، وقد تعترضه شراذم متفرقة فتراق دماء ، وتذهب أنفس ، وكان أبو مرداس من أخلص المستشارين وأحرص المؤمنين على مصلحة الأمة ، وأكره الناس لإراقة الدماء ، فلما رأى تسابق الناس وترحيبهم بعامل الإمام ، أمّل أن يتوب أولئك العصاة المارقون دون قتال أو استعمال شدة ، فجاء إلى العامل الذى يزمع التقدم ينصحه بالرجوع ، ويطلب إليه أن يعطى القوم فرصة لعلهم يفكرون فينضمون إليه ، أو يقلعون عن الشغب . ولكن العباس وقد استعد وصمم على إقرار الأمن ، رأى أنه لا داعى للرجوع بعد أن أمّن مجموعة من القرى والمدن ، وأقبل الناس عليه فرحين مستبشرين ، وهو يأمل أن يتم هذه المهمة فى أسرع وقت . فقال أبو مرداس ارجع و إلا صحت فى الناس أن يرجعوا . . ولما رأى العامل هذا الإصرار من أبى مرداس استجاب له ، ووقف خطيباً فقال : « أيها الناس نفذ الزاد ، وضعف الكراع ، فارجعوا حتى إذا سمنت الدواب وجددنا الزاد ، رجعنا »(١) .

لم تكف هذه الحملة لتأديب أتباع خلف ، فما رجع حتى عادوا إلى ما تعودوه من الاعتداء على الآمنين ، وسلب أموالهم ونهب أرزاقهم . وجرّد العامل الحازم حملة أخرى لتأديبهم ففروا من أمامه ، وأراد هذه المرة أن يستأصل الداء ، وأن ينتهى من هذه المشكلة التى طالت ، ولكن أبا مرداس كان لا يزال عند رأيه الأول ، كان لا يريد استعمال القوة ، وكان يرجو أن يثوب أولئك العصاة إلى رشدهم ، ويتوبوا إلى ربهم ، فنصح للعباس بالرجوع ، ولكن العباس هذه المرة كان مصمما على المضى ، فلم يمتثل لنصيحة الشيخ ولم يستجب لدعوته ، فرجع أبو مرداس إلى نفسه وقال : « ما أعظم جنون مهاصر — يعنى نفسه — حين يترك ربه ويلجأ إلى رجل مثله ، يطلب إليه امراً » ثم اتجه إلى ربه داعياً أن ينزل عليهم غيثاً عميما ،

---

(١) الازهار ٢ : ١٧٨

فاستجاب الله دعاء الشيخ ونزل غيث مدرار ، سالت به الأودية ، وارتوت به الهضاب ، فجاء الجند إلى القائد يستأذنونه فى الرجوع ؛ لأن الموسم موسم زراعة وهم جند يقاتلون دون أن تكون لهم مرتبات ، وليس لهم مطمع فى غنيمة ، لأنهم يقاتلون الموحدين البغاة ، واضطر القائد إلى تلبية رغباتهم ، فقال له الشيخ ردهم الآن إن استعطت ! وهكذا انتهت الحركة الثانية وفق رغبة أبى مرداس ، ولكن آمال أبى مرداس لم تتحقق ، فلم يثب أولئك القوم إلى رشدهم ، ولم يتوبوا إلى ربهم ، ولم يحاسبوا أنفسهم ، بل ما كف عنهم حر القتال ، حتى عادوا لما نهوا عنه .

لقد كان الشيخ يعتقد أن هذه المناورات التى يقوم بها الجيش القوى المظفر ، كافية لإرهاب العدو ، وإيناس الصديق ، فينكمش المعتدون ، وأما المسالمون فإنهم سوف ينضمون إلى الإمامة ، وبذلك يكون قد استطاع أن ينشر الأمن فى جميع الربوع ، دون أن يريق الدماء .

ويظهر أن رأى القائد كان أنسب لهؤلاء القوم الذين طبعوا على العناد ، وألفوا الغارات ، وتعكير الأمن ، وسلب أموال الناس ، ولذلك فقد جهز للمرة الثالثة حملة قوية لتأديبهم ، وصمم على أن يقضى على الأيدى العابثة . ولما كان ببعض الطريق تفقد الجيش ، فلم يجد أبا الحسن الأبدلانى وأبا مرداس ، فحبس الجيش ورجع يلتمسهما مخافة أن يكون وقع حدث دون أن يعرف ، غضب منه الشيخان ، وهو حريص أن يكون عند رضائهما بل إن الأمة كلها كانت حريصة على رضائهما .

أما الشيخان فقد تعبا من المسير ، وضعفا عنه لكبر السن ، فرأيا أن يستريحا قليلا بالطريق . وقصدا « أغرميان » بتغرمين عند العجوز ، هذه العجوز العالمة الصالحة التقية ، التى قصرت نفسها فى مجلس الذكر كما تدل عليه كلمة « أغرميان » التى تعنى قصر النفس فى مجلس الذكر . وأصلها أغرم إيمان .

وفرحت العجوز أم الخطاب بزيارة الشيخين، فذبحت شاة لضيافتهما، وكانت تناقشهما فى مسائل العلم ومعانى العبادة وما لبثا حتى وصل العباس يلهث من التعب ويتساءل فى حيرة وارتباك عما أرجعهما عنه. فبادر أبو مرداس يطمئن القائد قائلا: « إنك على الحق لم ننكر عليك شيئاً » وأوضحا له أنهما تعبا وأصبحا لا يطيقان السير العنيف، ومصاولة الأقران، فاطمأن قلبه وقال لهما دعا الحرب لمن يطيقها.

كانت العجوز تستمع إلى الحديث الذى يدور بين الأبطال الثلاثة وكانت لم تعرف أنهما رجعا إليها من الجيش، فلما علمت بذلك، وعرفت أن العباس ذاهب إلى قتال العدو، عمدت إلى اللحم وكان قد نضج واستوى، فوضعته فى خرج العباس، وقدمت إلى الشيخين المرق قائلة لهما وهى تشير إلى العباس وقد امتطى جواده وانطلق به: هذا الذى يستحق اللحم أما أنتما فيكفيكما الجلبان تعنى العدس وما معه، فابتسم الشيخان فى رضا واستحسنا منها هذا السلوك.

أما العباس فقد تعقب الجناة واستمر ينشر الأمن ويقيم العدل ويحافظ على قواعد الإسلام، حتى بلغ كَكَّلَة فأمن الناس وعم الرخاء، وانقطعت أسباب الفتنة.

لقد كان العباس مثل أبيه، قوة وشجاعة وإيماناً، لا يرهب بطلا ولا يخشى معركة، ولا تغره دنيا، ولا يدخله الشيطان من باب، يتواضع للمؤمنين حتى تحسب به ضعفاً، ويقسو على العصاة والمجرمين حتى تخال به عنفاً، ولا يتمسك برأيه فى عناد وإصرار، ولكنه يستمع النصيحة ويرجع إلى الشورى، ويعمل بما يقول به المخلصون.

أبو ذر أبان بن وسيم [1]

نشأ كما ينشأ الفقراء من أبناء العوام ، كفاح متواصل فى سبيل العيش ، وعمل دائب فى زراعة الأرض ، حتى شب عن سن الدراسة ، واستعصى عوده عن حمل المحفظة ، وأصبح رجلا من أولئك الرجال الذين لم يتح لهم أن يغترفوا من مناهل العلم العذبة ، فنشأ جافاً ، وإن كان ذا ذكاء متوقد ونفس حساسة ، وعزيمة دونها الفولاذ مضاء . . مرض يوماً فلزم حجرة مع أخيه عبد الله : العالم الفقيه ، فكان الناس يزورونهما ، ولكن كيف كانت هذه الزيارة ؟ إن الناس ينصرفون بأحاديثهم ووجوههم وقلوبهم ومواساتهم إلى أبى عبد الله ، ولا يلتفتون إلى أبان إلا إذا نهضوا للخروج ، فتنطلق منهم كلمة المجاملة : « كيف حالك يا أبان ؟ » ، فيجيبهم ونفسه تكاد تنفجر : « إن عاش أبان جعل للدنيا جزاءها إن شاء الله » ... وعاش أبان ، وسلم من هذه المرضة ، وشفى من ذلك الداء . وخرج لا ليواصل كفاحه فى غرس الأشجار ، ورعى الأبقار ، وجمع وسائل العيش ؛ ولكنه خرج ليستقبل عملا جديداً ، يخجل أكثر الناس أن يقوم به ، ويضربون لذلك المثل فيقولون : « بعد ما شاب دخل الكتاب » ، خرج ليزيد إلى كفاحه فى سبيل حياة الجسم ، كفاحاً فى سبيل حياة الروح ... كفاحاً أشد ، يقتضى صبراً ، وسهراً ، وقوة إرادة ، وصدق عزيمة ، وبدأ يتعلم ...

بعد أن ينتهى من كفاحه المادى ، يذهب إلى علاَّمة زمانه أبى خليل الدركلى ، للدراسة ، وكان أبو خليل ، من أولئك الذين خلقوا بطبعهم للتعليم ،

---

(١) عده أبو زكريا فى الطبقة الخامسة ، فهو من علماء الصنف الأول من القرن الثالث : كان عاملا للإمام أفلح بن عبد الوهاب ، على حيز طرابلس .

وتبليغ رسالة الله ، وتوجيه الناس إلى المثل العليا ، فلم يكن يقتصر فى تعليمه على وقت، أو يقف عند نظام ، أو يراعى طبقة ، إنه وهب نفسه كلها، ووقته كله للتعليم ؛ يلقى الدروس النظامية على الطبقات النظامية فى مدرسته العامرة ، فى الأوقات المخصصة ، ولكنه عند ما يخرج من المدرسة إلى السوق ، إلى المسجد ، إلى البيت ، فى الليل أو فى النهار ، كان لا يكف عن التدريس ، ولا ينقطع عن التعليم ، ولا ينتظر أن يكثر الطالبون ، أو أن تستدير به الحلقة ، ولذلك فقد كان نبعاً ثراراً عذباً ، يستقى منه أبان فى أى وقت أمكنته الفرصة ، وحضر إليه .

وواظب أبان على هذه الدراسة ، وتفتح قلبه وعقله للعلم والفهم ، يساعده على ذلك عزيمة صادقة ، وصبر على المتاعب والمصائب ، راض نفسه عليها يوم كان يكافح من أجل الحياة ، وإيمان بأن حياة الإنسان بدون علم لا تستحق أن تحيا ، أو تحسب من العمر ، وبلغ فى درجات العلم فوق ما أمّل ، وأجازه أستاذه أبو خليل الدركلى ، إجازةً لم يتحصل عليها أحد من طلابه الأذكياء النجباء ، وما كانت تجاز إلا للقليل من الأعلام ، الذين يدركون أسرار الشريعة ، ويفهمون مقاصدها العميقة ، ويفرقون بين الحالات المتشابهة المظاهر ، ويعرفون بواعثها ، ويتعمقون فى دراسة نفسيات الناس ، ومدى ارتباط أعمالهم بإيمانهم ، فقال له : « افت للناس بالرخص ، لكل زمان نذير ، وأنت نذير زمانك » . إن الفتوى بالرخصة لا تصح لكل أحد ، ولا لكل حالة ، ولا تكون قاعدة عامة تبنى عليها الأحوال المتشابهة ، ولا يفتى بها كل متعلم ، إنها كالدواء الضرورى ، الذى لا يعطى إلا فى حالات خاصة ؛ تراعى فيها جوانب معينة ، لا يمكن أن يدركها إلا قلة من العلماء ، الذين أوتوا فهما لأسرار الشريعة ، وحكمة الفريضة ، ومعرفة نفسيات الناس ؛ وكان من

هؤلاء الصنف : هذا العلامة الذى درس بعقله ، واعتمد على فكره ، و بلغ أعلى مراتب علم الشريعة ، بفهمه لا بحفظه ، فأصبح أعظم مرجع للإسلام ، وقدوة للعلماء الأعلام ، ولا يخلو كتاب من كتب الإباضية عن آرائه وفتاواه وتحقيقاته ، وكثيراً ما تكون تلك الآراء هى خاتمة النقاش ، ومحز الخلاف .

لقد كان نافذ البصيرة ، حاد الذكاء ، عميق الفهم ، قوى الحجة ، واسع الاطلاع ، ولكم وجهت إليه الأسئلة فى معضلات المشاكل ، فوجدت عنده الجواب السهل القريب ، وكان بعض المتعلمين يؤلفون أسئلة فيما يظنونه مستحيلا أو قريباً من المستحيل ، ويوجهونها إلى ذلك العلامة ، فيجيبهم دون روية أو تفكير . . .

قيل له يوماً : كيف المخرج لرجل حلف لامرأته بالطلاق أن لا يزوج ابنتهما لمن يحبان ؛ ولا لمن يبغضان ؟ وظن السائل أنه وضع بين يدى الشيخ سئوالا معقداً يحتاج إلى تفكير على أقل تقدير ، ولكن الشيخ خيب ظن السائل وأجابه على الفور : يزوجها لمن لا يعرفان ، واقتنع السائل وسكت .

وقد كان الطلبة كثيراً ما يضعون أمثال هذه الأسئلة التى يعتقدون استحالتها أو صعوبتها ، ويأملون من وراء ذلك أن يقف هذا البحر حائراً مرتبكاً ، ولكنه كان فى كل مرة يخيب ظنهم ، ويجد الجواب الشافى دون حيرة أو ارتباك . . .

لهجت الألسن بعلمه ، وفضله ، وتقاه ، وقوة إرادته ، واتباعه للحق ، وفهمه للأسرار ، وشدة ذكائه ، وكان الإمام فى « تاهرت » يبحث عن مثل هذا الرجل ليوليه أمور المسلمين . إن العلماء والصلحاء والتقاة كثيرون فى ذلك الحين ، ولكن العلم والصلاح وحدهما لا يكفيان للاختيار ؛ إن الذكاء وقوة

الإرادة والصلابة فى دين الله ، أمور ضرورية لمن يتولى شأن المسلمين .

كان الإمام يبحث عن هذه العقول النيرة ، والقلوب البصيرة ، ليحمّلها أمانة الأمة ، ويضع بين يديها تلك المهمة العظمى . فبعث إليه بعد وفاة العباس بالولاية على جبل « نفوسة » ، وما والاه .

إن تولى أمر المسلمين عند أولئك الناس لا يعنى جاها ولا منصبا ولا ثروة ، ولكن يعنى تحمل أعباء ثقال ، يحاسب عليها الرجل من ضميره ، ومن الإمام ، ومن الأمة ، ومن الله ؛ ولما جاء أمر الإمام إلى العالم الكبير بالولاية لم يرده ؛ ولكنه قبله فى حزن وأسف ، ثم أتجه إلى الخالق الذى بيده الموت والحياة ، وتضرع إليه فى حرارة : أن لا يطيل مدة هذه الولاية ، وأن يجعلها لا تتجاوز سبعة أيام ، فإن تجاوزتها فلا تتجاوز سبعة أشهر . واستجاب الله لدعوة عبده ، فلم تتجاوز مدة ولايته سبعة أشهر . « إن لله رجالا لو أقسموا عليه لا برهم » .

---

(١) أنظر السير ص ٢٤١

أبو منصور الياس [1]

مؤمن عميق الإيمان، و بطل لا يهاب أعباء البطولة، نشأ فى «تَنْـدَمِيرة» فى هذه القرية التى كانت ولم تزل مقراً للعلم والدين، ومنبعاً للذكاء والخلق المتين، لم تتح له فرصة الدراسة فى صغره. وكان فى خلقه خشونة وعرامة. وفى بنيته أسر وقوة، وفى طبعه حدة وشدة. لم يهذبه من ذلك فى زمن الصغر إرشاد المدرس، ولم تنل منه عصا المؤدب. فشب صلبا قويا، ولـكنه فى هذه الصلابة والعزة كان يجل العلم والعلماء.

كان ذات يوم فى «تيجى» فى هذه القرية الجميلة الوسنانة، التى تستلقى فى استرخاء عند أقدام الجبل الشامخ. تمتص الزلال العذب من منابعه الصافية، وكان ينحدر الماء إليها من القمم الشماء التى تناطح السحاب فى كبرياء. وكانت «تيجى» فى ذلك الحين مدينة آهلة بالعلم والعلماء، وكان سعد بن أبى يونس الذى أسندت إليه ولايتها بعد أبيه، يتولى شؤونها، ويرعى أمورها، ويقيم فيها كتاب الله، و يشرف على المدرسة العامرة، التى أسسها أبوه فيها، والتى خرَّجت فيمن خرجت أبا معيد الجناونى؛ العالم الزاهد، الذى يقوم مقام أمة.

قلت: إن أبا منصور كان فى تيجى لشأن من الشئون، فلقى أبا مرداس مهاصر، وكان أبو مرداس حافى القدمين، منهك القوى، قد أدمى

---

(١) ذكره أبو زكريا فى الطبقة السادسة: فهو من علماء النصف الثانى من القرن الثالث. كان عاملا للإمام أبى اليقظان، ثم الإمام أبى حاتم على جيزطرابلس. قال فيه أبو العباس فى السير ص: ٢٢٤: «وكان بعد أن تولى أمور المسلمين، إذا خرج لقتال العدو يركب بغلة، ولا يتقى نبلا، ولا ضربة على نفسه ولا على مركوبه، ولا تقع به، ولم يهزم له جيش، ولم تنكس له راية». اهـ.

الشجر والحجر قدميه ، وكان فى سنة قحط وشدة ، فرق له أبو منصور ، ونزع نعليه فأعطاهما للشيخ ، فتقبل الشيخ هذه الهدية ، ثم اتجه بقلبه إلى ربه وقال يخاطب أبا منصور — وكان أبو منصور فتى قويا من أهل الجملة — : « نزع الله منك يا فتى مالا يرضى ، ورد فيك مايرضى » . قال أبو منصور يتحدث عن نفسه : « فأحسست حين دعا بما غشينى » فوقع فى نفسه التعلق بالمراتب العالية من العلم والعمل[1] .

وهكذا تغير وجه التاريخ بالنسبة إليه ، واتجه اتجاها جديدا ، حتى بلغ غاية يقصر عنها كثير من العاملين . واشتهر علمه وخلقه ودينه بين الناس . حتى بلغ ذلك ، الإمام أباالليقظان فى تاهرت ، فعينه واليا على ليبيا ، وسار فى عمله السيرة التى يعرفها المسلمون : قوة فى الحق لا تبلغ الطغيان ، وعدل بين الناس يجرى على ما أمر به كتاب الله وهدى محمد صلى الله عليه وسلم ، وخلق كأخلاق الصحابة ، يدفعها الإيمان للعمل ، ويقف بها الإيمان عن الانحراف عن سبيل الله ، يبلغ فى شدته على العصاة والمجرمين والمنحرفين ، ما يملأ قلوبهم خشية للحق ، و يقف لكلمة حق يسمعها من أى شخص عادى ، لا تغلبه نفسه عن الرجوع إلى الحق فى أى موقف أو أى مكان . إنه كان صورة ثانية للفاروق رضى الله عنه ، ولو لم يتح له ما أتيح للفاروق : من إقامة دين الله ، والمحافظة عليه . . .

جاءته رسالة من أحد عماله يطلب فيها إقامة الحد على حاملها ، وكان جماعة من العلماء حاضرين ؛ فيهم القاضى عمروس ؛ وقرأ الوالى الحريص على إقامة حدود الله الرسالة ، وفهمها ، وبدأ فى إقامة الحد .

وفى هذه الأثناء وصل العالم الزاهد أبو الليث[2] ، فأفسح له المشائخ فى

(١) راجع السير ص ٢٢٤ .

(٢) راجع القصة فى ترجمة أبى الليث : السير . ص ٢٤٢

المجلس ، وطلبوا منه أن يشرف مجلسهم ، ولكنه أجابهم — وهو يشير إلى الوالى — حتى أنظر ما يقع هناك ، ووصل إلى الوالى وهو يباشر إقامة الحد ، فسأله عن عمله هذا ؟ فأخبره الوالى أنه يقيم الحد برسالة وردت إليه من أحد عماله ، فقال له : « أمن أجل سواد فى قرطاس ، تضرب الناس ، يا إلياس ؟ . » وقرعت كلمة الحق سمع الوالى العظيم ، وتمكنت من قلبه ، فأوقف يده الضاربة ؛ ووقف موقف التلميذ المذنب أمام المدرس الحازم ، وسأله عن رأيه فى القضية ، فقال الشيخ العالم : تضع الرجل فى الحبس ، وتبعث بالأمين . فإذا ثبت عليه الحكم أنفذت فيه الحد ، وإلا وجب أن تقاصصه من نفسك ؛ وأطاع الوالى ، وبعث بالأمين ، فثبت عنده أن الرجل مظلوم ، وأن الجانى المطلوب لم يحضر ، وإنما سلم الرسالة إلى هذا الغافل ، ونزل الوالى على حكم الشيخ ، وقاصص الرجل من نفسه .

هذا مثل يوضع بين يديك أيها القارىء الكريم ، يوضح لك قيمة العلم عندما يقوده الإيمان والحق والدين الصحيح . إن العلماء هم حجة الله فى الأرض ، يستوى عندهم الحاكم والمحكوم ؛ لا يقع بين أيديهم شأن من شئون الدولة والأمة حتى يفهموه حق الفهم ، ثم يصدرون فيه حكم الله ؛ وما دام هؤلاء العلماء فى الأمة ، فان الأمة بخير ؛ فإذا انقلب العلماء إلى أتباع للحاكم ، يبررون أعماله ، ويساندونها بالفتوى ، ويوجبون طاعته على الناس ، ويطالبون الشعب بالصبر ، ويتلقون ما يقذفه عليهم هذا الحاكم من أرزاق وعطايا .

إذا انقلب العلماء إلى مهازيل ، يسيرون وراء القافلة يَحْدُون ويصفقون ، فإن الأمة سوف تنحدر إلى هوة سحيقة العمق ، لا يعلم إلا الله قرارها .

لم يكن أبو منصور جبارا ولا طاغية ، ولكنه أخطأ بعدم التثبت ؛ وكان

بمجلسه جمع من العلماء، جاز عليهم هذا الخطأ كما جاز على أبي منصور. فلما عرف الحق رجع إليه، وأقاد من نفسه. وهو موقف رائع، يدعو إلى الإعجاب والتقدير.

إنه موقف الحاكم المسلم، الذى لا يعتز بالأثم، ولا يغتر بالسلطان، ولا يعتصم بالقوة، ولا يتردد فى قبول الحق، مهما كان هذا الحق، وكيفما كان هذا الحق، وعلى من كان، ولمن كان . . .

عرف الناس ما عليه أبو منصور من الصلابة فى دين الله، فلزموا الجادة. ولكن ابناً لخلف بن السمح، خطر له أن يجدد أمر أبيه، وأن يدعو لنفسه، وأن يعكر الأمن الذى ساد، والسلام الذى انتشر؛ فطارده أبو منصور حتى ألقى عليه القبض فى جربه. وحبسه أياما ثاب من بعدها، وصلح حاله، وأصبح يسمى بعد ذلك « الطيّب بن الخبيث بن الطيّب ».

حصل بين العباس بن احمد بن طولون وبين أبيه نفور وسوء تفاهم، فانتهز العباس غياب أبيه عن مركز الدولة فى القاهرة، وأخذ مافى خزائن الدولة(١) من الذهب، ويقدرها بعض المؤرخين بحمل ثمانمائة حمل من الدنانير الذهبية، وجهز جيشا واتجه إلى المغرب.

كان ينوى أن يحتل هذه البلاد الواسعة الغنية، التى تقع ما بين الإسكندرية والمحيط الأطلسى، ويكون فيها دولة مستقلة مركزها القيروان — عاصمة الأغالبة فى ذلك الحين — وسار بجيشه الذى زحف على برقة زحف الجراد.

فلما وصل إلى طرابلس حاربه عامل الأغالبة فيها « ابن قهرب » ولكنه انهزم وتحصن فى المدينة، ولما وصل إلى « لبده » خرج إليه عاملها وأهلها وأكرموه، ولكنه لم يرع حق هذا الإكرام، فأمر بنهبها فنهبت على حين غرة، وقتل

---

(١) نقل الشماخى عن ابن الرقيق: أن الذهب الذى نقله ابن طولون مائة حمل ذهبا: السير: ص ٢٢٥

رجالها وانتهكت حرماتها . قال الزاوى : « وقد امتدت يدجند ابن طولون إلى البوادى الذين يسكنون خارج المدينة . وكانوا من البربر الإباضية ، ومن أتباع إلياس أبى منصور النفوسى : صاحب جبل نفوسة . ونالوا من حرماتهم وأموالهم ، فاستغاثوا به من جيش بن طولون(١)

وقد كتب إليه ابن طولون حينما كان يحاصر طرابلس : « أن أقبل بسمعك وطاعتك ، وإلا وطئت بلدك بخيلى ورجلى ، وأبحت حرماتك » فرد عليه إلياس: « أما أنك أقرب الكفار منى ، وأحقهم بمجاهدتى ، فقد بلغنى من قبيح أفعالك ما لا يَسَعُنِى التخلف معه عن جهادك ، وأنا على أثر رسالتى إليك » وجهز جيشا من اثنى عشر ألف مقاتل ، والتقى بابن طولون فى قصر حاتم سنة ٢٦٧ ، فانهزم ابن طولون، وتشتت شمله، واستبيحت أمواله ، وأخذ أهل طرابلس كل ما معه من مؤن وعتاد ، ولم يأخذ البربر شيئا من الغنائم، لانهم يرون حرمة أموال الباغين من الموحدين ، ولا يستبيحون دماءهم ماداموا محاربين لهم ، ولا يستبيحونها فى حال السلم(٢) . »

ووصل ابن الأغلب إلى طرابلس بعد أن تمت المعركة، وانهزم ابن طولون ، ورجع أبو منصور إلى مركز حكمه .

وصل ابن الأغلب كما تصل الغربان ، يبحث عن الدنانير التى عف عنها أبو منصور ، ويلتقطها من الناس ، حتى أن الجندى كان يبيع دنانير ابن طولون سراً بأى ثمن ، خوفا من وجودها عنده .

فى هذه الحادثة التاريخية يلتقى ثلاثة قوادمن قادة الأمة الإسلامية : هم العباس ابن احمد بن طولون ، وابراهيم بن احمد بن الأغلب ، وأبو منصور إلياس . . .

---

(١) نقلت كل ما يتعلق بموقعة أبى منصور مع ابن طولون من الفتح العربى للزاوى .

(٢) الفتح العربى : الطبعة الأولى : ص ١٥٣

وفى إمكانك أيها القارىء الكريم أن تقارن بين هؤلاء الرجال ، وأن تعرف أيهم كان يتبع فى جميع تصرفاته هدى الإسلام ، وأيهم كان يتبع هواه ، ويسير فى سبيل الشيطان ؟

أيهم كان يمثل الإسلام حق تمثيل ؟ وأيهم كان لا يبالى بدين ؟ ولا يقف عند حدود الله ؟ ... هذا فتى يجد غرة من أبيه السلطان فيسرق خزائن الدولة ، لأنه يتعجل الوصول إلى الحكم ، ثم يكوّن جيشا ويتجه إلى المغرب . يقتل الأنفس البريئة ، وينتهك الحرمات المصانة ، ويجازى من أحسن إليه شر الجزاء ، ويهدد مسالما لم يتعرض له فيقول : « أقدم بسمعك وطاعتك ، وإلا وطئت بلدك بخيلى ورجلى ، وأبحت حرمك »

ما مقدار إيمان هذا الرجل الذى يسرق خزانة الدولة ، ثم يتوغل فى بلاد المسلمين : يقتل ويسلب ويغنم ، وينتهك الحرم ، ولا يقف عند هذا الحد العملى ، بل يتجاوزه إلى أن يسند لنفسه التشريع ، فيقول لمؤمن عصم الإسلام ماله ودمه وحرمه : « وأبحث حرمك » إن الذى بيده الإباحة والتحريم ، إنما هو خالق الخلق ، وليس لغيره أن ينزل ديناً على حسب هواه ، يحلل ويحرم .

إن الرجل الذى يستحل ما حرم الله ، ثم ينسب ذلك إلى نفسه فى غرور ووقاحة وتبجح . لا يخشى أمر الله ، ولا يستحى من مخالفة دينه وأمره ، لبعيد عن الإسلام !

وضع إلى جانب هذا الموقف الظالم الخارج عن حدود الله ، موقف خصمه ، هذا الخصم الذى اعْتُدِىَ عليه فى مقره ، وهدد بإباحة حرمه ، وبأن تطأ الخيل

---

(١) تاريخ الفتح العربى فى ليبيا ص ١٥٣ .

(٢) نفس المصدر السابق . فقلت كل مايتعلق بموقعة أبى منصور مع ابن طولون عن تاريخ الفتح العربى فى ليبيا للاستاذ الزاوى .

بلاده ؛ وطولب أن يقدم السمع والطاعة لفتى مغرور ، أقل ما يوصف به عقوق الوالدين .

لقد ثار ! ... وأى حر لا يثور ؟ ... ولاقى الطاغى الجبار فى قصر حاتم .. وكانت المعركة . . وشاءت إرادة الله أن ينتصر الحق والشهامة والمروءة ! . . . وأن ينهزم الطغيان المتكبر الجحود ! . . . فماذا كان من المنتصر ؟ . . ما هو موقف أبى منصور إلياس ؟ . . هل ذبح الأسرى ؟ . هل قطع الرؤوس ؟ هل انتهك الحرمات ؟ : حرمات المحاربين ، أو حرمات المسالمين ، هل أطلق أيدى الجند للغنيمة ؟ هل جمع الأموال ليستأجر بها المرتزقة ؟ أو ليبنى بها القصور ؟ أو ليكدسها فى بيت المال ؟ هل جمع الذهب الذى يتناثر فى المعركة كما يتناثر الحصا ؟ إن وقر ثمانمائة حمل تنتشر هناك ؟ !.. ولكنه لم يفعل شيئاً من ذلك !..

وعند ما ولّى العدو منهزماً ، وركب ابن طولون فرسه هارباً ، أوقف أبو منصور رحا القتال ، ثم أمر جيشه بالرجوع ، هذا الجيش الذى يقاتل فى سبيل الله ، لا يأخذ من الدولة مرتباً ، ولا من ساحات القتال غنيمة . ورجع أبو منصور بجيشه المظفر ، بريئاً من الانتقام ، بريئاً من الظلم ، بريئاً من العدوان ، نظيفاً من الدماء المسالمة ، نظيفاً من الحرمات ، نظيفاً من جميع الأموال ! . . . أموال المسالمين ، وأموال المعتدين ، إنه لم يأخذ من هذا الذهب المتناثر فى ميدان المعركة قطعة واحدة يحتفظ بها للذكرى ، أو يجعلها فى دور الآثار . . .[1]

وجاء الطامعون ، بعد ما خلا الميدان من المنهزمين والمنتصرين ، يتخاطفون ما عف عنه أولئك الأبطال المؤمنون ، الذين يعرفون أين يقفون من حدود الله ..

---

(١) أجمع المورخون أن أبا منصور وجيشه لم يأخذوا شيئا من هذه الأموال .

ووصل القائد الثالث ، الذى كانت الحملة الطولونية موجهة إليه . وصل بعد أن انتهى كل شىء ، فماذا فعل ابن الأغلب ؟ . . إنه رجع إلى أشلاء المعركة ، يجمع بقية الأسلاب ، ويطارد الناس الذين غنموا من غير جهد ، فينتزع منهم ما أخذوه ، ويفتش الأفراد والجماعات ، ليتحصل على هذا الذهب ، الذى فرّطت فيه خزائن القاهرة . حتى كان الرجل يبيع مامعه من دنانير ابن طولون بأى ثمن ، ليتخلص منها ، مخافة أن يجدها عنده أعوان الطاغية الثانى .

وسار التاريخ ، لا يلتفت ، وفنى الذهب الذى سرقه ابن طولون من خزائن أبيه ليبنى به عرشاً ، فنثره أبو منصور النفوسى فى ميدان المعركة ، وفنى ابن الأغلب ، رغم هذه الدنانير التى كان يفتش عنها بدقة ، ويجمعها بحرص . وفنى أبو منصور أيضاً ، كما يفنى جميع الناس . ولكن هذا المثل الرائع ، الذى ضربه للحكام ، وهذه السيرة العطرة التى سار بها بين العدو والصديق ، وهذا الخلق الكريم ، الذى اقتبسه من أخلاق النبوءة ، وهذا الدين القويم ، الذى يعصمه من الخطأ والزلل ، هذه الصفات وما إليها ، بقيت خالدة مع الإنسان ، توحى بالعبرة والذكرى لكل من يتولى أمر أمة .

إن الشهامة التى يتصف بها أبو منصور ، والعبرة التى تركها للأجيال ، والقدوة الحسنة التى خلفها لقواد الجيوش ؛ أغلى من ملء الدنيا ذهباً . وما عند الله خير وأبقى ! . . .

الزاوى وأبو منصور

كتب الأستاذ الطاهر الزاوى عن مجيء العباس ابن طولون إلى طرابلس، وملاقاة أبى منصور النفوسى له ، ورغم أن الأستاذ الزاوى فى هذا الموضوع لايجد مفراً من ذكر حقائق التاريخ ، إلا أن قضية العنصرية لا تزال تشغل فكره، وتستحوذ على قلمه ، يقول فى كتابه « تاريخ الفتح العربى فى ليبيا » صفحة ١٥٢ وهو يتحدث عن أبى منصور : « وأخذ أهل طرابلس كل ما معه من مؤن وعتاد — أى مع ابن طولون — ولم يأخذ البربر شيئاً من الغنائم لأنهم يرون حرمة أموال الباغين من الموحدين » . لست أدرى لم يحشر كلمة البربر فى هذا الموضوع ؟ وهم قبائل متعددة فى ذلك الحين ، وفيهم صفريه يستحلون دماء وأموال الموحدين ، وفيهم مرتزقة مع مرتزقة العرب(١) التى يتكون منها جيش الأغالبة على رأى الأستاذ الزاوى نفسه . ليس الموضوع موضوع عرب وبربر ، ولكنه موضوع إيمان ودين . . إن أبا منصور وجيشه لم يتورع عن غنم أموال المسلمين لأنهم بربر ، ولكنهم تورعوا عنها لأن الإسلام قد صان أموال المسلمين ، فلم يبحها إلا بشروط معينة ، وأبو منصور وأتباعه ، يقفون عند حدود الإسلام : قاتلوا المعتدين، فلما انهزموا عفوا عن دمائهم وأموالهم ؛ لأن الإسلام يأمرهم برد العدوان ،ويحرم عليهم أموال الموحدين . ويظهر أن للأستاذ الزاوى رأياً غير رأى

---

(١) يقول الأستاذ الزاوى فى كتابه « تاريخ الفتح العربى فى ليبيا» صفحة١٤٢ مايلى بالحرف الواحد : «الجند : ينقسم الجند الى ثلاثة أقسام : الحرس الأميرى ، وهو المخصص لحراسة الأمير،وليس له عمل غير ذلك . والجيش : وهو مركب من عدة عناصر : من العرب والبربر وغيرهم ، وكلهم مأجورين « مرتزقة » لا غاية لهم من عملهم إلا الحصول على الأجر ، وما يقع فى أيديهم من الغنائم ... »

أبى منصور ورأى الإباضية ورأى الإسلام فى قضية الأموال والغنائم ، وفى الصورة الآتية تتضح لك معانى ربما لم تتضح من تعبيره فى الجمل السابقة : —

كتب الأستاذ الزاوى عن أبى منصور فى كتابه « أعلام ليبيا» ولعله مما يهم القارئ الكريم أن أنقل إليه هذه المقتطفات من هذا الكتاب القيم : قال الأستاذ الزاوى : « ومن أظرف ما وقع ، أن الإباضية لم يأخذوا من هذه الغنائم شيئاً ، لأنهم يرون حرمة أموال الباغين من الموحدين ، ويستبيحون دماءهم ما داموا محاربين لهم ، ولا يستبيحونها فى حال السلم . مع أن إلياس كتب إلى ابن طولون رسالة قال فيها : أما أنك أقرب الكفار منى . . . الخ ، وكثيراً ما يريد الإباضية بالكفر ، كفر النعمة . »

قرأت هذا الكلام ، وأنا أعجب لهذا المسلم الذى لم يجد ما يعلق به على هذه الحادثة التاريخية الهامة إلا قوله : ومن أظرف ما وقع . . . الخ . ماذا يقول الزاوى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب عندما انتصر فى وقعة الجمل ولم يغنم الأموال ؟ . .

أيرى أن ذلك شيئاً ظريفاً ؟ وهل عادت أحكام الإسلام من التفاهة فى نظر المؤرخين ، بحيث يحكم عليها بالأحكام التى نطلقها على بيت من الشعر أو قطعة من الأدب؟ ! .

ما وقع الظرافة فى هذه القصة يا ترى ؟ أأن وقف المؤمن الورع حيث يقف به الإسلام ، لا يظلم ولا يبغى ؟ . إن هذا ليس فيه ظرافة . . . إنه حق ، وعدل ، ودين . . وقف عنده أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، ووقف عنده أبو منصور إلياس ، هذا الرجل الذى لم تنتكس له راية ، ولم ينهزم فى موقعة

ولم يلوث يديه بدم برىء ، ولم يملأ جيبه بمال حرام ، وأمثال هؤلاء الأبطال يجب أن يكونوا قدوة لولاة أمور المسلمين .

ويقول الزاوى : «إن الإباضية يرون حرمة أموال الباغين من الموحدين » فهل يرى حضرة الأستاذ الكبير غير هذا الرأى ؟ أليس هذا هو حكم الإسلام ؟ ألم تعصم كلمة الشهادة دماء المسلمين وأموالهم إلا بحقها ؟ أم يرى أن الإباضية اخطأوا سبيل الإسلام ، حيث لم يرتكبوا من الفواحش ما يرتكبه أولئك الذين اتخذوا الحروب ذريعة للغنيمة ، ووسيلة لكسب المال . . .

ولم يجد الأستاذ الزاوى شيئاً يلمز به هذا البطل العظيم فى جميع أعماله وسيرته ، فأورد الكلمة التالية : « مع أن إلياس كتب إلى ابن طولون رسالة قال فيها : « أما أنك أقرب الكفار منى . . . الخ . وكثيراً ما يريد الإباضية بالكفر كفر النعمة . »

وما دام الأستاذ الكبير يعرف أن كلمة الكفر قصد بها كفر النعمة فى استعمال أبى منصور ، فما وجه إيرادها ؟ . أم أن الأستاذ الزاوى يرى أن ابن طولون وهو يسرق خزانة الدولة ، ويقتل الأبرياء ، ويغتصب الأموال ، وينتهك الحرمات ، إنما يقوم بأعمال البر والإحسان . . .

ثم لماذا لم يذكر أن هذه الرسالة كانت جواباً لرسالة من ابن طولون يقول فيها لأبى المنصور « أقبل بسمعك وطاعتك ، وإلا وطئت بلادك بخيلى ورجلى ، وأبحت حرمك » ؟ وأيهما أكبر فى نظر الأستاذ الزاوى : إطلاق كلمة الكفر على رجل يرتكب من الفواحش ماينبذى له وبين الإنسانية ، وينسب تشريعاً يخالف تشريع الله ؛ فيحلل ويحرم حسب الهوى ؟ أم هذا الموقف المتجرد من الدين والخلق ، المحاد لأحكام الله ، الزائغ عن طريق المؤمنين ؟ ...

إن الحق أحق أن يتبع ، وهو لا يخفى على الأستاذ الزاوى ، ولكن شيئاً فى صدره يحيد به عن منهج الصواب ، ويجعله يسلك طرقاً ملتوية ، وهو يتصدى لكتابة التاريخ . . . وليت الأستاذ الزاوى ضرب مثلا أعلى فى النزاهة للشباب المسلم الذى نرجو أن يرتفع عن دنايا النفوس المريضة ، ويرجع إلى الحق الذى جاء به الإسلام، ويستمسك بهدى العدول من أبناء أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، لا تؤثر عليه طائفية ، ولا تميـــل به عنصرية ، ولا يقدس إلا ما قدسته شريعة الله . . .

أفلح بن العباس

بطل آخر من أبطال الكفاح، الكفاح بأوسع معانيه، كفاح النفس والهوى . . . وكفاح الظلم والباطل . . . وكفاح الباطل من أى طريق جاء . . . وثقت فيه الأمة . . . ووثق فيه الإمام، فاسند إليه الإمامة على ليبيا . . . وسار على النهج الذى سار عليه أسلافه : أبان، وأبو عبيدة، والسمح، وآباؤه : العباس وأيوب .

تواضعٌ للمؤمنين يكاد يكون ذلة . . . وقوة على العصاة والمجرمين تصل إلى درجة الحدة . . . وحملٌ للناس على السير فى السبيل الواضحة، وقيام بأمور المسلمين ومهامهم دون تفريط فى قليل أو كثير، وحبٌ يشمل جميع المسلمين . . وشورى تقف حيث يريدها خيار الأمة، وتتجه أنى يطلبون فلا يقطع أمراً دون رأيهم، ولا يصر على عمل وهم له كارهون، ولا يقف عن أمر هم فيه راغبون . ولعل موقفه هذا يتجلى فى الموقعة التاريخية المشهورة، التى حطمت فيها سيوف نفوسه . . وقعة مانو .. جهّز إبراهيم بن أحمد بن الأغلب جيشاً عظيما من تونس يريد به غزو مصر، ولما وصل إلى رقاده، أقام بها مدة يستكمل عدته، ثم اتجه إلى مصر يريد حرب ابن طولون . . . وطريق هذا الجيش يمر بليبيا، وليبيا إباضية المذهب، تابعة للدولة الرستمية، ما عدا طرابلس العاصمة والبحر — حسب المعاهدة التى وقعت بين عبد الوهاب الرستمى وعبدالله ابن الأغلب . وكان الوالى على ليبيا حينئذ هذا البطل الذى نتحدث عنه . إنه أفلح بن العباس بن أيوب، وكانت شواطىء البحر والسهول الممتدة بين

---

(١) من الطبقة السادسة من علماء النصف الثانى فى القرن الثالث . كان عاملا للإمام أبى اليقظان، وأقيل ثم ولى بعد أبى منصور، ثم أقيل فى وقعة مانو ثم ولى بعدها .

طرابلس والجبل مملوءة بالسكان ، عامرة بالقرى والدساكر ، وكان هؤلاء كلهم من الإباضية الذين يرجعون إلى أفلح . . .

ولما سمعت نفوسة فى الجبل بعزم ابن الأغلب على محاربة ابن طولون فى أراضيهم ، وأرادوا منعه من المرور ، ووقع خلاف بين أهل الرأى والمشورة.. فكانت الأكثرية تريد الوقوف فى وجه هذا الغازى الظلوم ، وكان بعض أهل الرأى يفضل عدم التعرض له مالم يكن قصده محاربة الإباضية فى ليبيا ، وكان على رأس أصحاب هذا الرأى الوالى أفلح بن العباس ، وعامل قنطرارة سعد بن أبى يونس . ولكن أهل الشورى والغالبية الكبرى من الأمة كانت ترى وجوب رده عن المرور فى أراضيهم ، وعدم السماح له بالاجتياز . وخضع الوالى الشجاع لرأى الأغلبية ، واستجاب لمطلبهم ، وجهز الجيش وقاده ، حتى التقى بعسكر ابن الأغلب فى قصر « مانو » على ساحل البحر ، قرب قابس .

والتحم الجيشان، ووقعت معركة ندر أن يقع مثلها فى التاريخ ، وكثر القتل فى جيش أفلح ، وخاف أن يضعف إخوانه ، فأمر حاملَ الراية أن يركزها فى الأرض حتى تثبت، ولاتحدث أحداً من أصحابه نفسُه بالتخلى عنها . وحاول حامل الراية أن يمتنع عن هذا العمل الخطير الذى كان حريا أن يقضى على الجميع ، ولكن الوالى البطل أصر على أمره ، وركزت الراية فى الأرض ، واستمرت الحرب ، وكانت الرؤوس تتساقط من حولها حتى كاد يفنى الجيش ولا يبقى منه أحد ، وحينئذ تشجع أحد العقلاء الذين أيقنوا بالهزيمة ، وعلموا أن الدفاع عن هذه الراية المثبتة يعنى انتحاراً جماعيا ، فضرب الراية وأسقطها وتفرقت البقية القليلة التى سلمت ــ وهم عدد قليل. وكان الوالى فيمن نجا، فرجع إلى مركز حكمه فى الجبل ، ورغم أن الوالى كان معارضاً لفكرة هذه الحرب ، وأنه ما قادها إلا مكرها ، رغم ذلك وجد بقية المشايخ قد استاءوا منه ، وتشاءموا من

ولايته ، وحملوه مسئولية الهزيمة ، واتفقوا على عزله ، وولوا عليهم ابن عم له . . وآلمه هذا الموقف من إخوانه ، وحز فى نفسه ، وفكر فى أن يستمسك بالولاية ، فاستشار العلامة أبا معروف حاكم شروس ، فاقنعه أبو معروف بضرورة الموافقة ، والخضوع لرغبة المشائخ ؛ ما دامت هذه الولاية ليست أمراً دنيويا ، يطلب منها العلو فى الأرض ، وجمع الثروة والمال ؛ فرضى بحكمهم ، ووافق على رأيهم . .

ولكن ما لبث المشائخ إلا قليلا حتى ادركو خطأهم ، وعجز الوالى الجديد عن القيام بمهامهم ، فعزلوه ، ورجعوا إلى أفلاح يطلبون منه أن يتولى أمرهم من جديد . . وفكر هذا البطل المؤمن أن يمتنع عن قبول هذا العرض ، ويرفض الولاية التى نزعت عنه أمس دون سبب ، ولكنه نظر إلى مصلحة الأمة ، واستعرض حالة البلاد ، فوجد أن المؤمنين الأقوياء فى دينهم ، وعلمهم ، وخلقهم ، قد أكلتهم الحرب فى وقعة « مانو » ولم يبق إلا شيوخ يقعد بهم ضعف الشيخوخة عن تحمل هذه الأعباء الثقال ، أو رجال ليس لهم من العلم والكفاءة ما يؤهلهم لشغل هذا المنصب الخطير ، ولذلك فقد انتصر على نفسه مرة ثانية ، فرضى بما عرضه عليه أهل وطنه ، وقبل الولاية عليهم ، وسار بهم سيرة السلف الصالحين . . .

رحم الله تلك النفوس المؤمنة ، التى تدور مع الحق حيث دار . . .

لم أعترض الإباضية طريق ابن الأغلب

لكى تعرف السبب الذى حمل الإباضية فى ليبيا أن تمنع ابن الأغلب من المرور فى أراضيها بجيشه اللجب ، يجب أن نذكر حقيقتين تاريخيتين :

الأولى تتعلق بتاريخ مضى ، وتلك هى محاولة ابن طولون المرور فى أرض ليبيا ، فإن هذا الجيش الذى لا يخاف الله ولا يتقيه ، عندما كان فى ليبيا ارتكب من الفظائع ماتقشعر له أبدان المؤمنين ، ولم تسلم منه القرى الوادعة ، ولا الأحياء الضاربة بأنعامها وسط البرارى ، تنتجع الماء والمرعى ، ولذلك فما سمع الناس بتكون جيش آخر يزمع المرور بأراضيهم ، حتى كثر اللغط حول الموضوع ، و بدأوا يفكرون فى الفرار بأموالهم ، وأعراضهم ، ودينهم ، عن هذه الجيوش المخربة ، وعلى أثر هذه الحركه تكونت فكرة معارضة هذا الجيش ورده قبل أن يدخل البلاد . . .

أما الحقيقة الثانية فهى تتعلق بإبراهيم بن أحمد بن الأغلب نفسه ، وأرانى مضطرا أن أضع للقارىء الكريم صورة صغيرة عنه ، ليدرك شيئاً من طبعه وخلقه ، ويعرف بعضا من دينه وسيرته وعمله . ويفهم السبب الذى حمل الإباضية فى ليبيا ولا سيما نفوسة على معارضته ، ومحاولة منعه من الدخول إلى البلاد . . . يقول الأستاذ الزاوى فى كتابه « تاريخ الفتح العربى فى ليبيا » صفحة ١٥١ :« ولكن الناس طالبوا بإمارة إبراهيم بن الأغلب ، لما عرفوه فيه من الحزم وحسن السيرة » .

وينقل الأستاذ الزاوى بعد ذلك وفى نفس الكتاب صوراً رائعة من هذه السيرة الحسنة التى يتصف بها ابراهيم بن الأغلب ، فاستمع إليه أيها القارىء الكريم[١] . . يقول الزاوى :

« فسار إلى طرابلس — أى بعد وقعة « مانو » التى انتصر فيها على الإباضية — وكان بها ابن عمه أبو العباس محمد بن زيادة الله بن الأغلب فقتله . »

« وسار إبراهيم فى جيشه من طرابلس إلى تاورغه ، وهناك قتل خمسة عشر رجلا وأمر بطبخ رؤوسهم ، وأظهر أنه يريد أكلها هو ومن معه » .

« فكان يكثر القتل فى أقاربه وأبنائه وإخوته وخدمه وأنصاره ، فقد قتل ابنه بين يديه صبراً وقتل ثمانية إخوة له : ضربت أعناقهم بين يديه ، «وأخفت عنه أمه بناتٍ له ، حتى رأت منه ذات يوم انشراحاً فأرادت أن تزيده مسرة فأخبرته عنهن ، وقدمتهن إليه ، وما خرجت بهن حتى أمر بقتلهن جميعاً ، وكن ست عشرة بنتاً كالأقمار . »

هذه سيرة الرجل ، وهذا دينه وخلقه وعمله ، وعندما يكون أمثال هذا الوحش على رأس جيش من المرتزقة ، يخضعون له كل الخضوع ، ولاهم لهم من الحرب إلا الغنيمة والمتعة ، ثم يمر هذا القطيع من الوحش المتعطش على بلد من البلدان ، فإن الآثار التى يتركها لن تكون إلا الخراب والدمار . وكان الإباضية فى ليبيا وفى نفوسة على الأخص يعرفون هذا الرجل ، ويعرفون سيرته وسيرة جيشه الذى لم يهذبه الإسلام ، ولم يحترم فى يوم من الأيام الحرم التى صانها الدين ، وحفظها الخلق ، وقدستها الإنسانية . كانوا يخشون من هذا الجيش المرتزق الذى يقوده رجل مجنون أن يبسط يده بالأذى والخراب فى كل مكان يمر به .

---

(١) تاريخ الفتح العربى فى ليبيا ص ١٥٥

ولذلك أرادوا منعه والوقوف فى وجهه . . . إنه موجة عارمة من الحيوانية التى لا يتحكم فيها خلق ولا دين ولا ضمير ولا حياء ! . . . فلم لا يحاول كل عاقل أن يبعد هذا الخطر عن وطنه وأمته ؟ . . .

حاول الإباضية أن يقفوا فى وجه هذا الفساد ، ولكن الله أراد غير ذلك ، فقتل من قتل من أبطال الإباضية ، وانتصر ابن الأغلب ، انتصر هذا الوحش الذى وجد ناساً يأتمرون بأمره ، ويخضعون لسلطانه ، ومر على البلاد كما يمر الوباء ، لا يسلم منه قريب ولا بعيد ، لأنه لا يرى حرمة للنفس ولا للمال ولا للعرض ، . لا يقف عند حدود شريعة أو دين . . وحسبك وحشية وشراً من رجل يقتل أبناءه صبراً ، ويقطع رؤوس بناته دون أن يرتكبن إثما ، ويطبخ رؤوساً بشرية ليجهز منها عشاء له ولجنده . . . إنه عمل لم يرتكبه المتوحشون من بنى آدم منذ أقدم العصور . . . فهل أخطأ أولئك الذين دعوا إلى الوقوف فى وجهه ، وحبسه فى مكانه ، كما تحبس الأوبئة الفتاكة المعدية ؟ . .

لا ريب أنهم كانوا على حق ! . . .

عمروس بن فتح المساكنى (١)

قمة شامخة من قمم العلم ، يندر أن تجد له مثيلا ، ومؤمن مخلص فى إيمانه ، فهِمَ حقيقة الإسلام وأسرار تشريعه ، وبطل من أبطال الكفاح ، يتضاءل أمامه الأقران ، ويسوق الجموع فى الميدان كما تساق القطعان ، يملك إرادة بلغت من القوة مرتبة تذلل الصعاب ، وتسهل العقاب ، وتيسر الأسباب .

نشأ فى « قطرس » : هذه القرية الجاثمة على ضفة وداى تاله العميق من أرض الرحيبات . وفيها درس وبلغ هذه المرتبة السامقة من العلم ، ولقد كان — على هذا البعد عن مركز الاتصال والحركة — يستوردنفائس الكتب وغرائبها من كل مكان ، وتصل إليه فيدرسها دراسة المتعمق الفاهم ، فى أقل الأوقات ؛ وعندما يحس بالتعب أو السآمة كانت أخيه تتولى عنه القراءة أو الكتابة أو النقاش ، ، وكم شهد بناء ذلك المنزل العامر من نقاش واع لمشا كل العلم والاجتماع ، يدور بين ابنة فتح وأخيها ، بين هذه الصبية الحسناء الذكية المثقفة التى تمثل المرأة المسلمة حق التمثيل ، وبين أخيها الذى كان حجة من حجج العلم.

ويطول النقاش بين الأخوين العالمين حتى تقتنع بصحة رأيه فتسلم أو يقتنع بوجاهة نظرها فيرجع إليها ، وعندئذ يستمران فى الدراسة أو يستمر عمروس فى التحرير والكتابة ، بمساعدة هذه الأخت الفاضلة العالمة، التى تهيىء لأخيها العالم المصادر ، وتنسق له العمل ، وتعد له ما يحتاج إليه من أداة العلم : الكتاب ،

---

(١) ذكره أبو زكريا فى الطبقة السادسة : فهو من علماء النصف الثانى للقرن الثالث ، وقد تولى القضاء لأبى منصور الياس، واستشهد فى وقعة مانو .

أو القلم ، أو الورق ، أو الدواة ، وقد تتولى عنه إنجاز العمل إذا كان ذلك فى إمكانها . . .

ولقد بلغت هذه الصبيه هذا المبلغ من العلم دون أن تمزق الحجاب ، وأن تسعى بين الرجال عارية الصدر مكشوفة الرأس ؛ إن محافظتها على المظهر المحتشم لم يمنعها أن تبلغ ما لم تبلغه كثير من بنات اليوم، السافرات المتخلعات ، الخبيرات بالحركات والغمزات . . .

مر بقطرس ـ القرية التى أنجبت عمروس ـ العالم المحدث الفقيه « بشر بن غانم » يحمل معه مدونته ، واستقبله عمروس استقبال الأخ المسلم لأخيه المسلم ، وعندما أراد الرحيل ترك المدونة وديعة عند القاضى الأمين ، حتى يعود . .

لم يخطر للقاضى أن يستأذن المؤلف فى استنساخها ، ولكنه فكر فى نفسه ورأى أنه إذا لم يغتنم هذه الفرصة فإن هذه الثروة العلمية سوف تفلت من يديه ، واستعد للعمل . أحضرت له أخته ما يحتاج إليه من ورق وقلم ومداد ، وكانت تملى عليه وهو يكتب فى فناء الدار ، حتى إذا وصلتهما الشمس تحولا إلى الظل ، ولم يمض عليهما وقت طويل حتى أتما نسخها ، ورجع صاحب الوديعة « بشر ابن غانم » يطلب وديعته فأرجعها إليه عمروس ، ولكن بشراً كان يتوقع هذا العمل من عمروس ، ولذلك فما تصفحها حتى ظهرت له آثار النقل ، فى قطرات المداد، واستعمال الصحائف، فقال لعمروس وهو يبتسم: لقد سرقتها، وأجاب القاضى وهو جذلان : سمنى سارق العلم .

أخذ العالم الكبير بشر بن غانم الخراسانى مدونته وارتحل إلى المغرب ، وقصد عاصمة الإمامة فى « تيهرت » ؛ وزين مكتبتها « المعصومة » الشهيرة بكتاب

قيم جديد ، هو مدونة أبى غانم ، وكانت « المعصومة » من أعظم المكتبات الإسلامية ، حَوَتْ أقيم الكتب وأندرها .

وعندما استولى الحجانى مولى عبيد الله الشيعى على تاهرت، أحرق المعصومة بما فيها من نوادر الكتب ونفائسها ، واحترقت مدونة أبى غانم فيما احترق . ولولا حرص عمروس وخدمته للعلم وجده فى تحصيله ، لخسر العالم الإسلامى كنزاً نفيساً من كنوز الشريعة الإسلامية ، كما خسر من قبل ديوان جابر حين أحرقت مكتبة بغداد .

كان عمروس من أكبر أئمة العلم والدين ، وله أقوال انفرد بها . وحسب من أجلها إماماً . ألف فى علم الكلام وفى الفقه ، ولا يخلو موضوع فى علوم الشريعة من آرائه وأقواله . وقد وضع تصميما لتأليف موسوعة علمية على طريقة حديثة فى ذلك الحين ، فيبين فيها الأحكام التى استخرجت من الكتاب ، والأحكام التى استخرجت من السنة ، والأحكام التى استخرجت من الإجماع ، والأحكام التى استخرجت من القياس ، ولكن المنية أعجلته عن إنجاز هذا العمل العظيم .

بعث إليه العلامة عبد الخالق الفزانى أن . يؤلف له كتابا فى الأصول ، فبعث إليه كتابه المعروف بالعمروسى، ودرسه العالم الكبير، وكان قليل النظراء ، فاعترف فى صراحة المؤمن وصدقه بأن صاحب هذا الكتاب أغزر مادة منه فقال: « النفوسى أقوى منى »(١) وكانت للفزانى كتب قيمة فى هذا الفن ، ولكن الاعتراف بالحق ، والابتعاد عن الغرور ، كانت من الصفات التى يتحلى بها أولئك السلف الصالحون .

---

(١) راجع السير للشماخى : أخبار عمروس بن فتح ٣٣٥

حج فى جماعة من أهل الجبل ، وحضر مجلساً للإمام الكبير محمد بن محبوب رحمه الله ، وهو عمدة المذهب وإمامه حينئذ ، فوجه إليه عمروس سؤالا ، فقال الإمام: إذا كان أبو حفص فى شىء من هذا البلد فهذا السؤال منه، ثم أجاب عن السؤال، وتعارف العالمان الكبيران ، ووقف عمروس موقف الطالب النجيب من المدرس البارع ، فكان يسأل وكان الإمام يجيب ، حتى قال له الإمام : هذا من مكنون العلم ، ولا يصح النقاش فيه بحضور العوام .

وكان إلى علمه وذكائه وسرعة بديهته لا يخشى أحداً فى الحق .. سأله رجل بمحضر أبى مهاصر: عمن أخذ من مال ابن طولون خرجا فتاب ولم يعلم له صاحباً . فأجاب القاضى العالم : تسأل عن صاحبه ، فإن أعياك أمره فتصدق به . فغضب أبو مهاصر وقال : لا أقعد فى مجلس يفتى فيه بمثل هذا .

قال عمروس: إن شئت أن تقعد فاقعد، فإن من شأن المسلمين أن لا ييأسوا أحداً من رحمة الله ...

لقد كان أبو مهاصر شديداً ، وهو يرى أنه يلزم صاحب الخرج أن يبحث عن صاحبه أو ورثته مهما كلفه الأمر ، ولن يبرئه من التباعة غير ذلك .

أما عمروس فقد كان أعمق فهما لأسرار الشريعة وروح الإسلام ، والعمل بمقتضاه ، وقد أصبح قول عمروس هو القول المعمول به فى الأحوال المشابهة .

دعاه أبوه منصور إلياس ، وعرض عليه القضاء .

ومَنْ غير عمروس يمكن أن يلى القضاء لأبى منصور، إنهما نسخة مكررة من طبعة واحدة ؛ فى الإيمان ، والنزاهة ، وقوة الإرادة ، والشجاعة ، وليس

بينهما فرق فى غير غزارة العلم . هذه الغزارة التى يتحلى بها عمروس: العالم الذكى الذى انقطع للدراسة منذ صغره . بينما رجع إليها أبو منصور بعد أن صلب عوده واشتد ساعده ، ونضجت رجولته . فقال عمروس: « إن لم تأذن لى فى قتل مانع الحق ، والطاعن فى الدين ، والدال على عورات المسلمين فخذ عنى قطرك وخاتمك » (١) واستجاب الوالى لشروط العالم ، وتولى عمروس القضاء ، وسار فيه سيرة المؤمنين الأمناء ، الذين يحافظون على حقوق الناس ، ويخشون الله فى عباده ويتقونه ، وكان شديداً على الظالم ، قوياً عليه حتى يأخذ الحق منه .

اختصم إليه رجلان فى مجلس الحكم بمحضر أبى منصور ، وجمع كبير من المشائخ ، فأدلى المدعى بالحجة ، فاسترده المدعى عليه الجواب فسكت ، وأعاد فسكت ، ثم أعاد ، فبقى المدعى ساكتاً ولم يقل شيئاً ، فاستبان للقاضى لدد الرجل فى الخصومة ، فقام إليه فركله برجله ، فقال الجلساء للقاضى : عجلت على الرجل .

فالتفت القاضى الذكى إليهم ، وجمع أصابع يده وقال لهم : كم هذه ؟ فأجابوه : تلك خمسة !.. وتبسم القاضى وقال لهم : لقد عجلتم ، لماذا لم تبدأوا العد من الواحد ؟ ... إن الحق إذا استبان ، واتضحت براهينه لا يحتاج إلى الاطالة وتضييع الوقت وتعطيل الحقوق .

جاء قوم إلى أبى منصور يذكرون له : أن قطاع طرق غالبوهم على عير لهم ، ولما ذهب الوالى إلى محل العير ، وجد كل فريق من القوم يدعى أن العير له ، وأن الفرقة الثانية هم قاطعوا الطريق ، فحار وبعث إلى القاضى .

جاء عمروس ، فأبعد الطائفتين عن العير ، ثم فتش أمتعتهما حتى عرف أسرارها ودخائلها ، وعندئذ انفرد بكل من الفرقتين يسألهم عما فى متاعهم ،

---

(١) السير للشماخى: ٢٢٥

حتى استبان الفرقة التى تعرف كل شىء فى العير، والفرقة التى لا تعرف إلا الظواهر فقط ، وجاء بهم إلى الوالى وقال له — وهو يشير إلى أصحاب العير: هؤلاء أصحاب الرفقة ، ثم أشار إلى الغاصبين وقال لأبى منصور: وهؤلاء أضيافك ، يكنى بذلك عما يجب من حبسهم ، والتنكيل بهم .

قلت فى صدر هذا الحديث : إن عمروسا كان شجاعاً بطلافى ميدان الحرب كما كان عادلا فى ميدان القضاء ، وذكياً فى حل المشاكل ، وقوياً فى إثبات الحق . . .

حضر وقعة «مانو» بين نفوسه والأغالبة: تلك الوقعة الكبرى بين الإباضية فى ليبيا ، والأغالبة الزاحفين من القيروان . وكان لعمروس فرس فى مثل قوته و إقدامه ، فكان يحلق على العدو كما يحلق العقاب ، وعند ما يلحظ ضغطا على جانب من جوانب جيشه ، يطير إليه، فيفرج عنه الكروب ، و يشتت الجموع ، وحار العدو فى هذا البطل الذى ينزل بهم الضربات القاتلات فى جميع جهات الميدان ، فقال قائلهم : إنكم لن تحرزوا نصراً إلا إذا هوى هذا الشهاب ، فاعمدوا إلى الحيلة ـ والحرب خدعة ـ فثبتوا احبالافى مكان، ماووجهوا ثقلهم إلى تلك الناحية ، ورأى البطل الكبير مايقع فى ذلك الجانب لأبطال جيشه المغاوير، فاتجه إليهم ليخفف عنهم الضغط ، ولكن الحبال اختلفت بين أرجل الجواد ، فتعثر وسقط الفرس والفارس ، وتسارعت عشرات الأيدى والسيوف إليه فأخذ أسيراً ، وجىء به إلى أمير القوم ؛ إلى إبراهيم بن الأغلب ، إلى الرجل المسعور، الذى لم يرتكب فظائعه قائد حرب فى تاريخ البشرية الطويل ـ فيما أعلم ـ وأراد القائد المجنون أن يشمت بالبطل المؤمن ، فقال له : سلنى العفو فأعف عنك ، فأجاب البطل : إن الأعمار بيد الله ، وتلك كلمة لن تسمعها منى أبداً ! . . فقال

ابراهيم : إذن فارجع عما أنت عليه لنتركك . فقال : تلك كلمة لا أقولها حتى ألحق بالله (١) ! ...

وكانوا يوجهون إليه هذه الطلبات وهم يوالون تعذيبه ، أملا منهم أن يجدوا منه ضعفاً ولو فى آخر اللحظات ... فكانوا يقرضون يديه بمقاريض من الحديد ، شيئاً فشيئاً ، ويقدمون إليه عروضهم . وكان ثابتاً فى إيمانه ، ثابتاً فى عقيدته ، ثابتاً فى مبدئه ، ثابتاً فى شجاعته و بطولته ، حتى بلغوا بقطعهم ليديه إلى المرفقين ، ففاضت روحه ، رحمه الله ! ! ! وسجل التاريخ على إبراهيم المجنون صفحة أخرى سوداء ، مع الصفحات السوداء الكثيرة ، التى تركها فى حياته .

---

(١) انظر : (سير الشماخى : ٢٢٥ ، والأزهار الرياضية ٢ : ٢٨٢ — ٨٣)

حالة سياسية

كان أغلب المملكة الليبية تابعاً للدولة الرستمية فى تاهرت ما عدا المدينة ، حسب معاهدة عبد الوهاب وعبد الله بن إبراهيم بن الأغلب . وبعد وقعة مانو بقليل ، تغلب أبو عبد الله الشيعى على تاهرت وخربها ، وأحرق مكتبتها ، فانقرضت الدولة الرستمية ، وانقطعت الصلة السياسية بين ليبيا والجزائر ، فأصبح مركز الإباضية فى ليبيا جبل نفوسة ، وبسقوط تاهرت صار هذا الجبل وما يتبعه مستقلا عن جميع الدول الأخرى ؛ إنه لم يخضع لا بن طولون، ولم يخضع للأغالبة ، كما لم يخضع قط للدولة الفاطمية أو لغيرها من الدول التى تعاقبت على الحكم فى المغرب الإسلامى إلى الاحتلال التركى .

ولكنه مع هذا الاستقلال لم يعلن ميلاد دولة جديدة ، ولم يبايع إماماً وإنما كان يختار من رجاله الأكفاء حاكما يتولى شؤون الأمة؛ فيحل المشاكل، ويوصل الحقوق ، ويدافع العدو ، ويوجه الأمة باستشارة العلماء ، وبالجملة يقوم بجميع ما يقوم به الإمام دون أن يتسمى بذلك .

وفى الصفحات المقبلة سوف أحدثك أيها القارىء الكريم عن عدد من هؤلاء الحكام الذين تولوا أمر الأمة فى الجبل ، فساروا بها فى الطريق القويم ؛ الذى سار عليه السلف الصالح من أمة محمد عليه الصلاة والسلام .

وأنا حين حدثتك عمن ولى الحكم فى ليبيا ابتداء من عدوان العباسيين على الإباضية دون حدث ، وقتلهم للعلامة عبد الله بن مسعود التجيبى، إلى انقراض الدولة الرستمية ، أو حين أحدثك عمن ولى الحكم فى جبل نفوسه إلى الاحتلال التركى، لاأتبع سلسلة التاريخ ، ولا أتقصى الأشخاص ، ولم يكن عرضى شاملا

لجميع أولئك المؤمنين الذين ألقيت على كواهلهم أعباء الأمانة العظيمة ، أمانة القيام بأمور المسلمين ، ولكننى أحدثك عن بعضهم كأمثلة لما سار عليه الجميع.

وللقارىء الكريم أن يرجع إلى التاريخ المبسط المنصف ، وسوف يجد أمثال ما أعرضه عليه من الصفحات المشرقات فى أولئك الذين تولوا أمر الحكم ، سواء كان ذلك فى مناطق فزان المختلفة ، أو فى سرت ، أو فى زواغة ، أو فى قنطرار « تيجى » أو جبل نفوسة ، إنه لن يجد فى حكم هؤلاء وفى سيرتهم وفى أخلاقهم وفى دينهم إلا ما يرضى الله ، ويرضى رسوله، ويرضى صالحى المؤمنين، ويشرف الإنسانية المعتزة بالحق والعدل ، اللهم إلا إذا لم يفرق بين الإباضية والنكار ، أو بين الإباضية والصفرية ، أو بين الإباضية والشيعة ، أو بين الإباضية وغيرهم من الفرق ، فينسب إليهم ، ما ارتكبه أولئك من الفظائع ، أو ينسب إليهم ما يرتكبه أعداء الأمة من أعوان السلاطين الظلمة ، الذين لم يحترموا حكماً من أحكام الله .

أبو محمد عبد الله بن الخير (١)

نشأ فى قرية صغيرة من قرى الرحيبات تسمى «تيوِنْزِيرِف» والحرف (تى) فى اللغة البربرية معناه : آل ، أو أهل ، وقد يستعملون (آت) بدلا من (تى).

تقع « وِنْزِرْفْ » هذه على قمة جبل شامخ ، وتطل على واد سحيق العمق ، يفصل بينها وبين « تميجار » (أولاد بوجديد) اليوم ، وهى مركز الرحيبات فى هذا العصر ، وتبعد عنها نحو أربعة أميال .

فى هذه القرية الصغيرة الجميلة ، وعلى ضفة هذا الوادى العميق الأخضر ، وفوق تلك القمة الشاهقة ، نشأ أبو محمد عبد الله بن الخير . واستقبل أول ما استقبل من حياة العمل : مدرسة القرية ؛ فحفظ كتاب الله ، وتأدب بآداب المسلمين ، ودرس مبادىء الدين الحنيف على مشائخ القرية الفضلاء ، فلما وجد أنهم لا يُشبعون نهمه ، انتقل إلى مدرسة نذير زمانه العلامة أبان بن وسيم ، ومن تلك المدرسة العامرة تخرج ، فكان موسوعة علمية متحركة حتى ضرب به المثل فقيل : من ضيع كتاباً كمن ضيع خمسة عشر عالماً مثل عبد الله ابن الخير . . .

وهذا المثل كاف فى الدلالة على ما للرجل من شهرة فى العلم .

رجع من بقى من الإباضية بعد وقعة مانو ، وقد قتل فيها أكثر العلماء ، وبعد زمن يسير من هذه الوقعة تغلب الشيعة على الدولة الرستمية فى الجزائر ،

---

(١) ذكره أبو زكريا فى الطبقة السادسة: فهو من علماء النصف الثانى للقرن الثالث: تولى الحكم على جبل نفوسة وما يتبعه باتفاق أولى الأمر من علماء الجيل .

وخربوا تاهرت ، وأحرقوا المعصومة ، وبذلك أصبح جبل نفوسة وما يتبعه شرقاً وغرباً مستقلا عن الدول المجاورة ، غير مرتبط بواحدة منها ، كما أن الإباضية فى ليبيا لم يشأوا أن يبايعوا أحداً بالإمامة ، أو يدعوا إلى إقامة دولة . ولـكنهم كانوا يكتفون بحكم خاص بهم .

يجتمع أهل الرأى والمشورة ، فيختارون أكفأهم ؛ يسندون إليه أمورهم ، ويضعون بين يديه شئونهم ، فيتولى القضاء بين متنازعيهم ، والفصل فى مشاكلهم ، ومدافعة العدو بهم ، وكل ذلك لا يتم إلا باستشارتهم ، فإن سار على النهج وأعجبهم منه السلوك ساعدوه ، وإلا عزلوه واختاروا لمـكانه غيره ، وفى أكثر الأحيان يتم هذا الاختيار بين مستشارى جبل نفوسه كلهم ، وتـكون صلاحيات الحاكم الذى يختارونه جارية على جميع الإباضية فى الجبل وتوابعه ، ولـكن قد يقتصر حكم أحدهم على ناحية من نواحى الجبل ، بينما يتولى غيره رعاية شـئون الأمة من الناحية الباقية ؛ وحينئذ تـكون العلاقة بينهم علاقة تعاون ومشاركة فى السراء والضراء ، وليس توزيع الحـكم بينهم إلا تقسيما للعمل ، كى يتيسر القيام به على أهون سبيل ، أما الأمة فهى لا تزال أمة واحدة ، مرتبطة المصالح ، لا تفرقة وخلاف ، وعندما ينقضى هذا الوضع ، تعود الأمة إلى ما كانت عليه من وحدة السياسة والهدف والحـكم .

لست أعنى بذكر الحالة السابقة ، أن نزاعا على الحـكم ، أو اختلافا فى الرأى ، أو تفرقة بين أبناء الأمة قد جرى فى زمن من الأزمنة ، التى تقع بين سقوط الدولة الرسمية ودخول تركيا إلى ليبيا . إن شيئاً من ذلك لم يكن فى حفظى ، ولا فى المصادر التى بين يدى من كتب التاريخ ، ولا استثنى من ذلك إلا الخلافات الفردية العادية ، التى تقع عند كل أسرة .

ذهب أبو محمد عبد الله بن الخير فيمن ذهب إلى مانو ، وكان من الأفراد القلائل الذين قدرت لهم الحياة بعد هذه الوقعة ، فرجع سالما إلى قريته الصغيرة، وهو يتحسر ألما على الخسارة التى منى بها الجبل ، وعندما توفى أفلح بن عباس هرع بقية المشائخ إليه ، يعرضون عليه طلبهم، ولم يشفع له كبر سنه ، فإن الحاجة إليه شديدة ، إذ لم يبق من الأعلام الكبار بعد تلك الوقعة غيره، وغير أبى القاسم البغطورى ، وكان أكبر منه سنا ، وأوهن عظما ، فاسندوا إليه الحكم عليهم ، والقضاء بينهم ، فسار بهم سيرة أولئك الأعلام الذين عرفت تقواهم لربهم ، ولزومهم لهدى محمد صلى الله عليه وسلم، وتمسكهم بدين الله القويم ، ورأيت نماذج من حكمهم : مساواة فى الحق ، وعدالة فى الحكم ، وسهر على مصلحة الأمة ، ينبعث كل ذلك عن فهم عميق لأسرار الشريعة ، وإيمان خالص بدين الله . . ومحبة صافية للمؤمنين . . .

كان الإباضية فى جبل نفوسة من أحرص الناس على اتباع السنة ، والعمل بها ، فكانوا لا يولون أمر الصلاة بهم إلا من تجتمع فيه شروط الصلاح الكاملة ، ما وجدوا إلى ذلك سبيلا ، وكان أبو عبد الله ممن اجتمعت فيه هذه الشروط ؛ فهو أعلم القوم ، وأحفظهم لكتاب الله ، وأشدهم استمساكا بدين الله ، وأكبرهم سنا ؛ ولذلك فقد كان يتولى أمر الصلاة بالناس ، وغلب عليه الكبر ، وأثقل طول الزمان سمعه ، فكان يجهر بصوته فى القراءة السرية حتى يسمعه من خلفه فقال له يحيى بن يونس السدراتى يوما : ما تسعنا الصلاة خلفك وأنت تجهر بالقراءة حتى نسمعك . فقال الإمام العالم : لم أكلف سماعك يا ابن يونس ؟ . . وكان هذا الجواب كافيا أن يعرف ابن يونس وغيره أن تكليف الله لعباده إنما يتعلق بما عندهم من قوى ، لا بما عند غيرهم . إنه عندما يقرأ فى صلاة السر لا يراعى إلا أذنيه، فإذا كان صوته عاليا بحيث سمعه من خلفه — لأن فى أذنيه ثقلا — فلا يعنى أنه

قرأ جهراً فى موضع السر ، لأنه مكلف أن يسمع أذنيه فى قراءة السر .

جلس للتدريس والفتوى بعد وقعة مانو ، وبذل من الجهد فى نشر العلم ما يعجز عنه من كانوا فى عنفوان الشباب ، ولم يحل دون قيامه برسالة التعليم المقدسة لا كبر السن ، ولا ضعف البدن ، ولا الانشغال بمهام الحكم ، ولقد استطاع بما بذل من جهد أن يعيد فى مدة ليست بطويلة ما خسرته الأمة فى معركة مانو الطاحنة ، ولم يسانده فى هذا العمل إلا أبو القاسم البغطورى ، الذى بذل من الجهد العلمى أكبر مما بذل أبو محمد عبد الله ، لأن أبا القاسم لم يشغل بالحكم . وكأن حكمة الله أرادت أن يكون هذان الرجلان هما دعامة النهضة ، فأتاحت لهما من العمر الطويل ما لم يتح لغيرهما ، فقد عاش أبو محمد مائه وعشرين سنة ، أمضى أولها فى الكفاح من أجل التعلم ، والاغتراف من مناهل الثقافة الواسعة . وأمضى آخرها فى كفاح الجهل والظلم والباطل . حتى قبضه الله إليه . فرحمه الله رحمة واسعة .

أبو يحيى زكرياء الأرجاني [1]

«أرجان» اليوم، أطلال قرية قريبة من «مَزُّو» ، تقع إلى الشرق منها على نحو ميل، وهى فوق ربوة عالية تشرف على مايجاورها من الأرض، وعلى قمة تلك الربوة يجثم اليوم فى وقار وخشوع مسجد فسيح ، ينسب إلى أبى زكرياء الأرجانى ولد أبى يحيى . ولا يزال هذا المسجد إلى اليوم مقصد المسلمين عنـد صلوات الاستسقاء والاستغاثة .

وفى هذه القرية التى تقتعد قمة ربوة عالية كالحصن المنيع ، يحيط بها آلاف من شجر الزيتون كما يحيط الإطار الجميل بالصورة الرائعة ، فى هذه القرية المتفتحة للحسن نشأ أبو يحيى زكريا الأرجانى ، وفيها درج . و بين رياضها الغناء وقممها الشامخة الشماء وضفة واديها العميق سرح ، وفى شلال ماصِر و بحيرة الزرقاء عبث وسبح . فى هذه المناظر الجميلة الساحرة تـكونت المواهب الأولى للطفل ، ثم انطلق إلى معاهد العلم ينهل منها بذهن متفتح ، ويغترف من المنابع الغزيرة التى كانت متوفرة فى ذلك الحين ، فبلغ فى المعرفة أسمى الدرجات ، وتحلى بما يتحلى به أولئك المؤمنون من الخلق الرفيع ، وسار سيرتهم العطرة ، التى لا توجد إلا عند الصفوة من أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

وعكف بعد ذلك على دراسة كتاب الله وسنة رسوله ، وتفهم أسرار الشريعة . حتى كان فى ذلك مرجعاً ، وعرف فيه المسلمون هذه الصفات النادرة ، من العلم ، والعمل ، والخلق ، فأولوه ثقتهم ، وولوه أمرهم ، و بايعوه إمام دفاع ،

---

(١) من الطبقة السابعة من علماء النصف الأول للقرن الرابع : أسند إليه حكم الجبـل وما يليه باتفاق أهل الحل والعقد من مشايخ جبل نفوسة .

على أن يتولى شؤونهم حتى فى حالة السلم ؛ فيفصل مشاكلهم ، ويحكم بين متنازعيهم، ويأخذ الحقوق من أغنيائهم ليضعها فى فقرائهم ، إلى آخر ما هنالك من شؤون أمة يوجه سياستها الداخلية مؤمن أمين . . .

وقد قبل ما عرضوه عليه ، وتحمل هذه الأعباء الثقال بما عرف فيه وفى أسلافه ، من أمانة ودين وحرص على مصلحة الأمة . . .

عندما تشاور المسلمون فى أمر الحكم ، وعرضوه عليه ، واتفقوا على إسناده إليه ، لم يتهرب من المسؤولية ، وقبلها مستعينا بالله على القيام بواجباته . كانت أمه وأخته وهما من العالمات الصالحات خائفتين عليه من هذا العبء الثقيل ، وعندما كانت النساء مقبلات عليهما للتهنئة بهذا المنصب الرفيع ، وبهذه الثقة ، وهذا الاختيار، كانت الأم والأخت تنتحبان، وتذرفان الدموع ، وتجيبان المهنئات : أنهم قدموه إلى النار: أنهم وضعوا على كاهله أعباء ثقالا ينوء بها : أنهم اختاروه ليفصل مشاكلهم ويفرز بين حقوقهم ، فيبوء الناس بالمشاكل المفصولة ، والحقوق المتاحة ، ويؤوب بالحساب العسير ، والغرم الكبير .

وانتصب الحاكم المدافع للقيام بهذه المهمة الثقيلة رغم معارضة أمه الرءوم ، وأخته الحنون ، ولم يتردد فى التضحية بنفسه عندما احتاجته أمته ، فكان مثلا للمؤمن الذى يرعى الأمانة ويتبع الحق، ويفصل المشاكل ، ويستميت فى الدفاع، وهو فى كل ذلك معرض عن متاع الحياة وزخرف الدنيا .

ولد له ولد ، فجاءه الناس للتهنئة ، وقدم فيمن قدم جماعة من اليهود ، جمعوا له أربعين ديناراً هدية للمولود الجديد ، فقال لهم : لو كنت أقدر على صيانتكم لأخذتها منكم جزية ، ولكننى لا أقدر على صيانتكم ، فخذوا

أموالكم[١] . وعبثا حاولوا أن يقدموها إليه هدية ، إنه لا يقبل الهدايا وهو فى منصب الحاكم أو الأمير ، ولعله كان يذكر فى ذلك الحين حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : [أما بعد : فانى أستعمل رجالا منكم على أمور مما ولانى الله ، فيأتى أحدكم فيقول : هذا لكم ، وهذه هدية أهديت إلى ، فهلا جلس فى بيت أبيه وأمه فينظر أيهدى إليه أم لا ؟ والذى نفسى بيده لايأخذ منه شيئاً إلاجاء به يوم القيامة يحمله على رقبته ، إن كان بعيراً له رغاء ، أو بقرة لها خوار ، أو شاة تيعر] ، ثم أطعم هؤلاء اليهود عنباً ، وانصرفوا وهم يعجبون . كانوا يتحدثون وهم يقولون: عجباً : «مارأينا مثل هذه البلاد ، لايطمع سلطانها فى أموال الناس » . وحق لهم أن يعجبوا . فهم يعرفون ما يرتكبه أصحاب السلطان من الجرائم للحصول على المال من أى طريق ، فكيف يمتنع هذا عن قبول هدية طابت بها النفس ، واستراح لها الضمير . . .

كان بين بنى زمور[٢] وطرميسه سوء تفاهم وعناد ، يؤدى فى كثير من الأحيان إلى المشاغبه والنزاع عندما يتلاقون فى أسواق جادو — مركز الحكم ، ومدينة جبل نفوسة فى ذلك الحين — فخص كل واحد من الفريقين بسوق واحدة فى الأسبوع ، لايجوز للفريق الآخر حضورها ، حتى لا يقع هذا الشغب الذى طال مداه ، وكان ذلك كافياً ليسود الهدوء بينهم .

بين جادو مركز الحكم وأرجان بلد أبى يحيى مسافة تبلغ ميلين أو تزيد ، وكان أبو يحيى يقدم كل صباح إلى مجلس الحكم ، وكان أول عمل يقوم به : أن يتجه بهذا الدعاء إلى ربه فى إيمان و إخلاص: « اللهم اعط الحق لذى الحق ، ياذا الحق ، ولا حجة لمحتج إذا احتج بلا حق » .

---

(١) راجع السير: ص ٢٤٣ .

(٢) القرى التى يسكنها الرجبان اليوم .

وبعد هذا الدعاء الحار يستقبل الناس بوجهه ، ويستعرض مشاكلهم حتى يفرغ منها ، وقد أنهكه التعب ، تعب البدن وتعب الفكر ، فيرجع إلى قريته الجميلة على قمة الربوة ، وقد يستريح فى الطريق عدداً من المرات قبل أن يبلغ إليها ، لما ناله فى مجلسه ذلك من النصب والعناء . . .

قلت فى صدر هذا الحديث : أن الأمة بايعت أبا يحيى إمام دفاع ، فقام بمهمته هذه خير قيام ، وكم حاول أبو عبيد الله الشيعى أن يحتل الجبل ، فيقف له هذا البطل بالمرصاد ، ويرده محطم الآمال ، خائب المسعى . . .

أغارت جيوش أبى عبيد الله الشيعى بقوة عظيمة على الجزيرة — وهى قرية حصينة على قمة جبل شامخ فى جهة الحرابه — فتصدى له الإمام أبو يحيى ، وألحق به شر هزيمة . وسولت للشيعى نفسه أن يعيد الإغارة على قرية بعيدة من مركز الحكم ، لعله يستطيع الحصول على شىء قبل أن يتمكن حاكم الجبل برد العدوان ، فهجم على « تيركت » وهى قرية أخرى تقع فى الحوامد ، بين « نالوت وكاباو » ، فتصدى له إمام الدفاع القوى ، وألحق به هزيمة أخرى شراً من الأولى ، وهكذا استطاع أن يحمى حوزته ، كما يحمى الأسد عرينه ، رغم كثرة المعتدين ومحاولات المستغلين ؛ الذين غرتهم الدنيا ، وسولت لهم أنفسهم ، لقد كان رحمه الله صورة رائعة للمؤمن القوى ، الحريص على إيمانه ، الوثيق الصلة بربه ، المحب لأمته .

استشهد فى « تيركت » — بعد أن هزم الشيعة وطردهم شر طردة — بطعنة غادرة ، امتنع رحمه الله أن يسمى صاحبها ، وفوض أمره إلى الله . . .

واجتمع رأى المسلمين بعده على تولية أبى عبد الله بن أبى عمرو ، حفيد أبى منصور ؛ فقام بالأمر مدة يسيرة ، لكن أهل الشورى اتفقوا على عزله ،

وولوا مكانه أبا زكريا بن أبى يحيى الأرجانى ، لاعتقادهم أنه أكفأ من أبى عبد الله ، وأقدر على مجابهة الأحداث ، ولم تطل به المدة ، فقد هجمت جيوش العباسيين على الجبل ، فتصدى لهم أبو زكرياء . ووقعت مقتلة كبرى بين الفريقين ، ورجع «المسودة» جيوش بنى العباس دون أن ينالوا من الجبل منالا ، وعندما كان أبو زكرياء راجعاً ، أصابته طعنة غادرة ، كالتى أصابت أباه ، واجتمع إليه المشايخ يسألونه عن رأيه فيمن يتولى أمورهم ، فأجابهم وهو يعالج سكرات الموت ، ويستعد للقاء ربه : أرى لكم زيد بن أفصيت الدرفى .

وهكذا لم يألهم نصحاً حتى فى آخر لحظات الحياة ، إنه موقف شبه بموقف الفاروق رضى الله عنه ... ومواقف المؤمنين تتشابه فى الإخلاص والنصيحة للمسلمين . . .

إننى اختصرت الحديث عن هذين البطلين ، ولم يكونا أقل علما ودينا وجدارة وخلقا من أولئك الذين تحدثت عنهم بشىء من الإسهاب والتفصيل ، لأن هذا الكتاب ليس كتاب تاريخ يتقصى الأخبار والأحداث ، وإنما هو مجموع صور لحياة أمة متمثلة فى أعمال يقوم بها أفراد أو جماعات ، وكثيرا ما اكتفى بصورة ما عن مجموع من الصور القريبة منها ، أو المشابهة لها ، ولو أردت الاستقصاء لما كفانى الزمان والجهد الذى قدرته لإخراج هذا العمل الضئيل ، وهذه الصورة الباهتة ، التى فارقتها حياتها وجمالها عندما تناولتها بريشتى الهزيلة ، وأسلوبى الضعيف .

الأعلام الثلاثة

أبو يحيى سليمان بن ماطوس الشرْوَسى ، وأبو هارون موسى بن يونس الجلالى ، وأبو الربيع سليمان بن زرقون النفوسى : ثلاثة أعلام يتسابقون إلى المكارم فلا يتفاضلون ، ويتنافسون على بناء الأجيال لإعداد الرجال فلا يتأخر أحدهم عن أخويه . ترنو الأبصار إلى الواحد منهم فلا تنحدر عنه ، حاسبة أنه الغاية التى لا مرمى بعدها لكمال الشخصية وصفات البطولة ، فإذا علقت بزميله ، رأت منه ما ينسيها مظاهر العبقرية الأولى . . .

جدوا وراء الدراسة حتى بلغوا الشأو الذى تقصر دونه مدارك الكثير ، ولا يبلغه إلا النزر اليسير ، ممن وهبتهم عناية الله مواهب تكاد تكون خارقة للعادة . ثم ركنوا للعمل .. العمل بما علموا . . . فبلغوا أيضاً الغاية التى لا يبلغها إلا النادر القليل من الأبطال الصابرين . الذين يهبون ما يملكون من قوى مادية ومعنوية لأممهم . .

● ابن ماطوس[1] وثق المشايخ بأبى يحيى بن ماطوس ، فاسندوا إليه حكم الجبل ، وقبل العالم الكبير هذه المهمة ، كما قبلها أسلافه من قبل ، فكان من خير من أسند إليه حكم ، فتولاه عن دراية وعلم ، وطبَّقه بحذق وفهم ، وحل المشاكل المتشابكة بحق وعدل ، ولم يشغل ابن ماطوس بهذا العبء الثقيل عن الرسالة التى خلق من أجلها ، رسالة التعليم . فكانت مدرسة ابن ماطوس من أعظم المدارس التى نشرت العلم فى جميع الربوع ، وورد إليها الطلاب من كل مكان . لم يكن

---

[1] ذكره أبو زكريا فى الطبقة السابعة من علماء النصف الأول للقرن الرابع : تولى الحكم باتفاق المشايخ .

ابن ماطوس مجرد مدرس يلقى النظريات العلمية ويشرحها للطلاب حتى تصل إلى أذهانهم ، وإنما كان مع ذلك مربيا يحسن التربية ، وقدوة صالحة للاقتداء ، فكانت دروسه مشبعة بروح الإسلام ، وكان خلقه الكريم بين الطلاب داعيا لتهذيب النفس ، وكانت سيرته القويمة مضرب الأمثال . وإلى هذه الشخصية القوية فى أخلاقها ودينها وكفاحها ، كانت غزارة العلم من أعظم الأسباب فى تكوين هذه الشخصية ، فلم يخل كتاب من كتب الإباضية عن أقوال ابن ماطوس ، ولم يبق بلد من بلدانهم لم تدخله فتوى ابن ماطوس . قال أبو يحيى الفرسطائى : اجتمعت ببعض العلماء بناحية « زويله » فقال : إن فتوى ابن ماطوس كلها حسنة، إلا أنه يرى أَنْ لاالشفعة ليتيم، ولا لغائب . قال أبو يحيى : فلما قدمت أتيت ابن ماطوس فأخبرته ، فقال : قل له : ذلك تعطيل الحقوق .

إن هذه القضية البسيطة توضح انتشار فتوى هذا العالم العظيم ، ومبلغ تقدير رجال العلم له . كان الطلاب يلتحقون بالمدارس المنتشرة فى المغرب الإسلامى ، ثم يعودون فيصححون ما درسوه على هذا العالم العظيم .

درس الطالبان النجيبان : أبو صالح وأبو موسى فى بعض المدارس بالجنوب التونسى ، ولما أتما دراستهما قررا الرجوع إلى جبل نفوسة ، ليعرضا ما درساه على ابن ماطوس ، فالتقيا بالعلامة بكر بن أبى بكر الفرسطائى ، وكان فى دور التعليم حينئذ ، فرافقهم ، وفى طريقهم وجهت إليهم عدة أسئلة ، وكان جواب بكر خلاف ما درس الشيخان .

وعندما وصلا إلى العالم الكبير ابن ماطوس ذكرا له قصتهما ، والخلاف بين فتواهما وفتوى ابن أبى بكر ، فقال الشيخ لهما : الفرسطائى عالم . . .

أنها شهادة ممن يحق له أن يعطى الإجازات الدراسية ، فيفخر بها الطلاب .

وموضوع الأسئلة موضوع فقهى ، وجواب الشيخين هو الجواب الآلى الذى تجده عند المختصرات الفقهية ، أما جواب ابن أبى بكر فهو جواب العالم الذكى الذى يتغلغل بفهمه العميق إلى أسرار الشريعة ، ويغوص إلى الحقائق التى يكتشفها العقل المستنير فى أحكام الإسلام ، ويكفى أن أذكر لك إحدى هذه المسائل التى عرضت لهؤلك الطلاب ، لتعرف مقدار الفرق بين المتشبث بظواهر النصوص لعلماء الفقه ، والمتفهم لسر الحكم الشرعى . سألهم سائل فقال : رجل تيمم لعذر شرعى ويده نجسة ، فما الحكم فى اليد والتراب المستعمل للتيمم ؟ . أجاب الشيخان أن اليد طاهرة والتراب نجس . ولكن ابن أبى بكر قال : إن اليد والتراب طاهران ، فقيل له : أين ذهب النجس ؟ ! فقال : ذهب بين الضربات ! ولك أيها القارىء الكريم أن تتأمل هذه المسألة على أحكام الشريعة السمحة . التى وضعت التيمم فى مقام الوضوء أو الاغتسال ، لترفع الحدث ، حتى لا تكلف المسلم شططاً ، وتحمله ما لا يستطيع ، لك أن تتأمل ذلك ثم تقف فى صف من شئت من هؤلاء الطلاب ، أما أنا فقد اخترت موقفى ووقفت إلى جانب ابن أبى بكر ، ما لم تكن النجاسة التى فى اليد ذات عين باقية الأثر فى التراب الذى استعمل فى التيمم . . .

كان رجل من أهل بلده غائباً ، ورجع فى ليلة من الليالى لعمل ضرورى سريع ، وأخبر زوجته أنه سيعود إلى عمله فى الصباح الباكر . وفكرت الزوجة الصالحة فيما يترتب على هذا المجيء المفاجىء الذى حضر فيه الزوج ، صاحب الحقوق المعينة ، دون أن يراه أحد أو يسمع به ؛ فكرت وهى تنظر إلى المستقبل القريب ... فصنعت طعاماً لزوجها ، ثم بعثت إلى ابن ماطوس تدعوه أن يرافق زوجها فى العشاء ، وحضر العالم الحاكم ، وأكل الطعام مع الزوج الذى غادر البلد مع غبش الفجر ، وقدر لها أن تحمل من تلك الليلة ، وأن يقع ما توقعته ،

وتحدث الناس أن فلانة حامل ، مع علمهم بأن زوجها غائب. و بلغتها قالة السوء فآلمتها ، فإذا جنها الليل ، وأوى الناس إلى مضاجعهم ، تستقبل هى عالم الأسرار والخفايا ثم تقول : يا ملائكة السحر ذكروا ابن ماطوس ، و بلغ مسامع الشيخ ما يتهامس به الناس عن المرأة الفاضلة الذكية الحازمة ، فأمر بضرب الطبل ، وعندما اجتمع الناس أخبرهم بما عرف ، حتى لايقذفوا امرأة مؤمنة غافلة بما حرصت أشد الحرص أن تبعده عن نفسها .

ولعله يكفى أن نختتم حديثنا عنه بهذه الشهادة القيمة من عالم لايلقى الكلام جزافاً قال البغطورى : « إن ابن ماطوس قادة بعد أبى القاسم و بورك فى علمه ، فبلغت فتواه شرقاً ومغرباً ، وهو أحد فروع مانوا »! راجع سير الشماخى(١) ص٢٧٦.

● أبو هارون موسى بن يونس الجلالى : —

درس على أبى القاسم البغطورى أحد الشيخين اللذين بقيا بعد معركة مانو ، وبرع أبو هارون فى الأصول والمنطق و الرياضيات ؛ أما علم الفقه فقد كان يسميه هو وزملاؤه من الطلبة الأذكياء « علم العجائز » .

اهتم هذا العلامة الكبير بمثل ما اهتم به صديقه ابن ماطوس ، من نشر العلم ، وبث الخلق الحميد ، وبث روح الإسلام الصافية فى نفوس الطلاب والمجتمع . وأسس مدرسته العظيمة التى تعتبر مثالية فى ذلك الحين ، وندر من لم يستفد من تلك المدرسة التى خدمت العلم خدمة صادقة ، وخرّجت فحولا وأعلاماً كان لهم الأثر الكبير فى حياة الأمة ، ومع شدة إقبال الناس على هذه المدرسة ، كان ابن ماطوس يرى أن الناس مقصرون فى الاغتراف من هذا المنهل العذب ،

---

(١) ذكره أبو زكريا فى الطبقة السابعة فهو من علماء النصف الأول للقرن الرابع .

فكان يقول : « لو علم الناس ما ينفعهم لازدحموا عند باب داره كما يزدحمون عند باب دار أبي عبيدة فى البصرة . » جمع أبو هرون بين غزارة العلم ، ووفرة المال ، فقد كان دائم الكفاح ! .. الكفاح المتواصل الذى لا يعرف الراحة أو الاستجمام ، فلن تجد أبا هارون متى جئته إلافى إحدى حالتين: نشر العلم ، وبث المعرفة ، وتثقيف العقول . أو جمع المال من طرقه المباحة التى يعرفها حق المعرفة ، وفى رأس السنة الماليه لميزانيته يقسم موارده إلى ثلاثة أقسام :

يخصص القسم الأول للنفقة على نفسه وعائلته ومن تلزمه مصاريفه ، ويخصص القسم الثانى للضيوف وأبناء السبيل ، والحقوق التى تجب عليه أو على بلده من هذه الناحية .

ويخصص القسم الثالث للإنفاق على الأقسام الداخلية فى مدرسته العامرة ، التى يؤمها عدد غير قليل من الطلاب البعداء ، فتتكفل المدرسة بإيوائهم والإنفاق عليهم . وكان إلى هذه المكانة السامقة من العلم والمال ؛ شديد التواضع ، لين الخلق ، سهل المعاشرة ، يوقر أصحاب الفضل والعلم ، ويستشيرهم حتى فيما يعرفه حق المعرفة .

زاره أبو محمد عبد الله بن الخير « بالجزيرة » ، وبينما كان الشيخان يتحدثان إذ ارتفعت صيحة عن غارة موجهة إلى القرية فوثب أبو هارون إلى سلاحه ثم اندفع إلى الميدان .. ثم تذكر أن فى ضيافته العلامة أبا محمد عبد الله بن الخير ، الحاكم والقاضى على الجبل ، وأنه يجدر به أن يلتمس منه النصح والإرشاد قبل أن يبدأ العمل ، وإن كانت السبيل واضحة أمامه وحكم الله جليا فى مثل هذه القضية . ورجع إلى الضيف الكبير يستشيره ويستنصحه فيما يجب أن يفعلوا إن أدركوا العدو . فقال القاضى العادل ، والحاكم العالم : « إن قتلوا الأنفس

وحازوا الأموال فقاتلوهم ، وإن أخذوا الأموال خاصة فاقصدوا أموالكم ، فإن حالوا بينكم وبينها فقاتلوهم »(١) .

تلك السيرة الرائعة التى تتبع تعاليم الإسلام فى تنظيم الهجوم والدفاع ، اتباعا لأمر الله ، لايحيد بهم غضب ، ولا يستفزهم كيد ، ولا يوصلهم إلى الطغيان عدوان .

إن العلماء الأعلام الذين درسوا على أبى هارون ، وتخرجوا من مدرسته ، أكثر من أن يحصيهم العد ، أما آراؤه وفتاواه وأقواله ، فلا يخلو منها كتاب من كتب الفقه والأصول والكلام . وكثيراً ما يكون رأيه أرجح الآراء ، ومعتمد المذهب . . .

● أبو الربيع سليمان بن زرقون(٢) النفوسى من نفوسة « تاديوت » ، درس فى «سجلماسه» على العلامة ابن الجمع(٣) . وقد كانت «سجلماسه» فى ذلك الحين ، من المراكز العلمية التى يؤمها الطلاب من جميع النواحى ، لاستكمال الدراسة ، وعندما توفى الشيخ العالم ، أوصى بثروته العلمية إلى تلميذه النجيب الذى خدمه بإخلاص زمنا غير قصير .

وأصبح هذا الطالب النجيب بعد أن استكمل دراسته شيخاً عملاقا تنحنى

---

(١) راجع السير ترجمة أبى هارون الجلالى .

(٢) ذكره أبو ذكريا فى الطبقة السابعة من علماء النصف الأول للقرن الرابع .

(٣) ابن الجمع : من علماء المشرق وتجارها الأغنياء . نزل توزر وبقى فيها مدة من الزمن ، وفيها التقى به الطالب النجيب سليمان بن زرقون ، فلزمه لزوم الظل ، وكان يخدم الشيخ ليكون اتصاله به أكثر ، واستفادته منه مستمرة ، فكان يتلقى عنه دروسا فى جميع الأوقات . وانتقل ابن الجمع الى سجلماسة ، فانتقل معه الطالب النجيب . وعندما حضرت الشيخ الوفاة أوصى بجميع كتبه إلى طالبه النجيب .

أمامه الرقاب ، وتذوب بين يديه شبه المشاغبين ، ولما رجع من سجلماسة إلى الجنوب التونسى وجد أن النكار قد نشروا بدعهم فى كثير من تلك البلاد . وأصبح لهم أتباع ومريدون ، ولم يزل يتنقل من بلد إلى بلد ، ومن مجمع إلى مجمع ، حتى قضى على تلك البدع التى كادت تفتك بدين الناس ، وسكت أولئك المشاغبون ، فلم تعد تنطلق آراؤهم المنحرفه لتزيغ عقول البسطاء من الناس عن دين الله .

كان قوى الحجة ، فصيح اللسان ، غزير المادة ، شديداً فى دين الله . .

رأى تبرجا من نساء « قصطالية » فقال : ما أكثر إماء أهل هذا البلد ، فحملهن على غير الحرائر . وقد كان فى هذه الكلمة من التوبيخ والزجر ما يدفع الضمائر الحية إلى العمل ، كان مسافراً فى شتاء شديد البرد ، ومعه شيخان ورعان ، فمروا بغدير وقت الظهر ، فاختلفوا فى وجوب الوضوء ، فتيمم ابن زرقون ، وتوضأ أحد الشيخين الورعين ، فأصيب من شدة البرد ، فقال ابن زرقون لصاحبه : لم تجز لنفسك أن تتيمم لصلاة واحدة ، فتيمم الآن لصلوات عدة . إن فهم روح الشريعة والمقاصد السامية من تكاليفها هى حقيقة الورع ، وإن الجمود على ظواهر النصوص قد يؤدى إلى عكس المطلوب . فقد فر صاحب ابن زرقون من تيمم واحد ، ولكنه اضطر — لقصور فهمه حكمة الطهارة فى الإسلام — إلى التيمم لعدد من الصلوات .

كان ابن زرقون فى صغره : ذكيا ، ظريفاً ، نجيباً ، وكثيراً ما كان أستاذه « ابن الجمع » يمازحه بتوريات غامضة ، فينتبه لها الطالب الذكى ، ويجيب على البديهة . قال له يوما : إلك ولد فى الطين ، يوهمه أنه يصفه

بالفطنة ، فقال الطالب النجيب : إنه غير منزلق ، ليبرهن لأستاذه أنه فهم التورية .

وقام يوما من الأيام بعمل يستحق عليه الشكر ، فقال له الشيخ : الزيت خير ، يوهمه أنه قال له : جزيت خيراً ، ولكن الطالب النجيب فهم أيضاً هذه الدعابة من أستاذه وقال له على البديهة : يصلح للخبز . وهكذا كان الفتى الظريف مع أستاذه الكبير ، يتلقى عنه العلم ، ويتلقف منه الدعابة ، ويقتبس منه الهدايه والرشد .

أبو عمرو ميمون بن محمد[1]
الشروسي

علم اشتهر بكفاح الرذيلة حتى بلغت أخباره أقاصى البلاد . سمع يوماً أن جماعة يشربون الخمر «بالفحص» ، وبين هذا المكان «وشروس» مركز حكمه وإقامته ما لا يقل عن ستة أميال ، فذهب إليهم ، وأراق شرابهم، وكسر آنيتهم، وأقام الحد على من يستحقه منهم .

جمع إلى الورع الشديد ، العلم الغزير ، وإلى رقة القلب ، قوة الإرادة ومتانة الدين ، ولهذه الصفات وغيرها من الصفات التى يتحلى بها المؤمنون المخلصون ، وثق فيه الناس فولوه أمرهم ، كان شديد الخوف من حقوق الناس ، فكان يرتعد كما ترتعد السعفة فى مهب الريح إذا وضعت بين يديه قضية للحكم ، وكانت دموعه تنحدر دون أن يملك حبسها ، إذا قال له الخصم أعطنى حقى ، خوفاً أن يكون مال عن الحق ، ولم يعرف الصواب ، وحسبك ديناً وأمانة وعدلا لرجل يلى الحكم ، أن تكون هذه أخلاقه وسيرته . . .

أخذ جانياً فحبسه فى بيته موثقاً ليستشير فى أمره بعض المشائخ ، وينزلوا به العقاب الذى يقرره قانون الله ، وفى الليل قام أبو عمرو إلى الصلاة، فوجد الجانى فرصة للإفلات ، ففك قيوده ثم هجم على أبى عمرو بسكين كانت فى يده وجرحه، ولكنّ أبا عمرو — وكان شجاعا وقوياً وشديداً فى أمر الله — رجع إلى الجانى وقبض عليه من جديد ، ونزع منه الموسى ، ثم أوثقه وعاد إلى صلاته ، ولم يرد

---

(١) ذكره أبو ذكريا فى الطبقة الثامنة ، فهو من علماء النصف الثانى للقرن الرابع . تولى الحكم على جبل نفوسة وما يليه بأمر المشايخ بعد أبى سليمان التندملى .

أن ينزل به أية عقوبة حتى حضر المشائخ ، خوفاً أن يؤثر عليه الغضب ، أو أن يكون قد انتصر لنفسه . وحضر المشائخ ، ورأوا فيه رأيهم الذى لايتجاوز الحق والعدل .

ذهب إلى جادو لبعض الشئون ، وعندما كان فى الطريق وهو راجع إلى شروَس ، سمع أن جيشاً عظيما يريد الغارة على الجبل ، فتوقف فى الطريق يفكر فى الأمر ، إنه لم يستعد للحرب والقتال ، وهو بعيد عن مركز حكمه ، فما العمل؟ وبات ليلة وهو يفكر : هل يبدأ بالدعوة إلى الدفاع من مكانه ، أم يرجع إلى مركز حكمه أولا ، ثم يجهز الجيش ويعد العدة ، ولكن قد يقع الهجوم قبل أن يصل هو إلى مركز الحكم وإعداد ما يلزم للدفاع . وقضى ليلة مؤرقة فى غار توكيت (تمْزده) اليوم ، وهو يقلب الرأى .

وعلم الجند أن أخبارهم سبقتهم إلى حاكم الجبل أبى عمرو ، وأن الرجل موجود فى وسط الجبل ومعمعة العمران ، وأنه لايلبث أن يلاقيهم بجموع يحرصون على الموت فى سبيل الدفاع عن حرماتهم ، كما يحرصون هم على الحياة . فلم يجدوا خيراً من أن يؤخروا هذه الغارة إلى فرصة أخرى ، و بكروا بالرحيل . . .

كان أبو عمرو إلى هذا الحزم ، وهذا العزم ، وهذه القوة ، مثلا للتواضع واللين بين المؤمنين ... كان يسير ذات يوم ومعه ولد له صغير ، فالتقى بأبى سليمان التندميرتى ، فنزل عن فرسه إجلالا لأبى سليمان وتعظيما ، وعجب الولد الصغير من سلوك أبيه ، فلم يعلم فى الجبل رجلا أعظم من الحاكم مقاماً ، ولذلك سأل أباه قائلا : من هذا الرجل الذى تنزل له عن فرسك يا أبى ؟ . .

فقال الأب : أولا تعرفه ؟ : إنه أبو سليمان ، الرجل الذى أنزل الحمل الثقيل عن ظهره وحملته أنا . . . هكذا كانوا يرون الإمارة . . إنها حمل ثقيل يفرح

المؤمن عندما يتخلص منها ، ولا يتقبلها إلا وهو مضطر . وقد بذل أبو عمرو مجهوداً جباراً ليلقى عن ظهره هذا الحمل الثقيل ، حتى تخلص منه فى يوم من الأيام ، وجاء بعض المشائخ يلومونه على ذلك ، فقال لهم : إننى أرغب أن أخلص إلى عبادة ربى قبل الموت ، ولو لمدة قصيرة ، وإننى أريد أن لا يشتغل فكرى بغير عملى فى آخر حياتى . .

قلت فى صدر هذا الحديث إن أبا عمرو قد اشتهر فى جميع البلدان بسيرته الحميدة ، وخلقه الفاضل ، ودينه الكامل . جاء من السودان جماعة من التكرور يحملون بضاعة وافرة للتجارة ، ولما يسمعون عنه من علم وعدل ، طلبوا مقابلته ، فلم يضن عليهم بها ، واجتمع بهم : « فملأ أعينهم وافئدتهم علماً وأدباً وحياء » فجمعوا له أربعمائة دينار ، وقدموها إليه من أصدقاء معجبين ، فامتنع عن أخذها ، وترك لهم أموالهم ، وفتح أمامهم الأسواق ، ودعا الناس إلى التعامل معهم .

إنه مثل سام من أمثلة النزاهة والشرف والفضيله ، لا يجده الباحث كثيراً فى كتب التاريخ ، تاريخ الأمراء الظلمة الذين يزهقون الأرواح ، وينتهكون الحرمات ، للحصول على مبلغ قد يكون أقل من هذا المبلغ بكثير . .

ولعله يكون من المناسب أن اختتم هذا الفصل بالكلمة البارعة ، التى وصفه بها أبو العباس :

« وكان ميمون الناصية على نفوسه مدة ولايته » .

أبو الفضل سهل [1]

هذا رجل لا أريد أن أطيل عنه الحديث ، وحسبه أن ولى الحكم على الجبل فى وقت بلغت فوضى الحياة فى ليبيا مبلغاً يؤسف له ، فقد اختاره الناس وغارات الأعداء من الدول الظالمة متوالية ، وقبائل البداة الضاربين حول الجبل من الجنوب والشمال لاينفكون عن السرقة والعدوان . إنهم أقوام لم يتمكن الإيمان من قلوبهم ، فلا يستمسكون بحق ، ولايتعبدون بدين ، ولايردعهم خلق عن أموال الناس ، وكانوا يتباهون ويتفاخرون بأنواع العدوان الذى يقومون به ، ومقدار الأموال التى يغتصبونها أو يسرقونها من أصحابها ، الآمنين المسالمين .

وتولى أبو الفضل سهل الحكم فى الجبل ، فشمر للكفاح ، وقابل العدوان بالصبر والنضال ، ورتب فى كل جهة من الجهات المعرضة للسطو حامية ترد الضربات ، وتقف للمغيرين بالمرصاد ، ولم يلبث إلا قليلا حتى أمن الناس على أموالهم وحرماتهم ، وانتشر السلام فى كامل الجبل وما يتبعه ، بل لقد سار الأمن فى جميع نواحى الجبل إلى «غدامس» .

بلغه يوماً أن فساداً يقع فى «غدامس» ، وأن قوماً من هؤلاء الذين اعتادوا ابتزاز الأموال بالباطل ، يرتكبون من الموبقات فى «غدامس» مالايرضاه الحر الكريم ، فجرد حملة توجه بها إليهم ، ورغم معارضة المشائخ له خوفاً عليه ، فقد

---

(١) ذكره أبو زكريا فى الطبقة الثامنة فهو من علماء النصف الثانى للقرن الرابع ، تولى حكم الجبل وما يليه بأمر المشايخ .

أصر ووصل إلى « غدامس » وضرب على الأيدى العابثة ، وأصلح الفساد ، ونشر الأمن بين الناس .

هاب الناس هذا الحاكم الحازم ، فتوقف عن الجبل عدوان المعتدين ، وغارات المغيرين ، وسرقات أولئك الذين لا يخافون فى الله إلاً ولاذمة . . وإن رجلا يستطيع أن يقمع الفساد ، وأن يرد كيد أعداء يتكالبون دون أن يتقيدوا بدين ، أوضمير ، لذو فضل . . .

أبو محمد ويسلان بن أفصيت الدركى (١)

جد عائلة توارثت العلم والحكم والاستقامة ، وإن تفاوتوا فيه على درجات ، حسبما وصفهم صاحب السير فقال : « إن أبا محمد: الآخرة دون الدنيا ، وأبا يحيى يوسف بن محمد : الدنيا والآخرة ، وأبا داود سليمان بن أبي يحيى : الدنيا دون الآخرة » . وليس معنى هذا أن أبا داود أعرض عن دين الله وأسلم قياده للهوى ، وزاغ عن الصراط المستقيم ، وسلك الطريق الذى سلكه الظالمون ، فإن أمثال هؤلاء لايمكن أن يلوا أمرا للمسلمين فى ذلك الحين . ولكن معناه : أن أبا محمد زهد فى الدنيا ، فلا يقيم لها وزنا ، لايهتم بطعام ولا لباس ، وأن أبا يحيى إذا اجتمع عنده الردىء والجيد من الطعام واللباس استطرف . أما أبو داود فكان يتأنق فى لباسه ، ويستطيب لطعامه ، « **قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق** » ويؤكد هذا المعنى ما ورد فى السير : « وكان أبو محمد إذا قام من مجلس القضاء أكل ما حضر ، وأبو يحيى يأكل ما خبز ، وربما استطرف ، وأبو داود يأكل اللحم والقمح وتمر فزان فى أكثر أوقاته ، وكانت أيام أبى دواد سليمان مباركة على نفوسه . »(٢)

تولى أبو محمد ، ثم ابنه أبو يحيى الحكم على جادو ، أما أبو داود وأبو محمد عبدالله ولدا أبى يحيى فقد توليا الحكم على أهل زمور — قرى الرجبان اليوم — وقد كانت أحكام الجميع وسيرهم سير من سبق من السلف الصالحين .

إن كل واحد من هؤلاء الأعلام يستحق أن يشغل من وقت الدارس فراغا

---

(١) ذكره أبو زكريا فى الطبقة السابعة : فهو من علماء النصف الأول للقرن الرابع : تولى الحكم على جبل نفوسه وما يليه باتفاق أهل العلم والرأى فى الجبل .

(٢) السير ٢٨٨ .

لمن أراد أن يتتبع أحداث التاريخ ، ولكنى فى هذه الفصول إنما أعرض صوراً ، وقد يجمع الإطار الواحد مجموعة من الصور ، ولمن أراد الاستقصاء أن يرجع إلى كتب التاريخ ، وفيها يجد مايشبع نهمه عن كل واحد من هؤلاء الأعلام.

وحسبى هنا أن أذكر للقارئ الكريم: أن شهرة هذه العائلة فى العلم والعمل لا تزال على ألسنة الناس اليوم ، وإن دارهم التى أطلق عليها دار بنى عبد الله، كانت مأوى للأخيار من كل مكان ، وملجأ للمضطهدين ، وقد كان واسطة عقد هذه العائلة : العلامة أبو يحيى ، من أعلام الإسلام ؛ درس على العلامة أبى محمد الكباوى ، وقال عن نفسه : لقد جمعت العلم بالقصعة ، وفرقته بالأقداح ، وهذه العبارة على اختصارها ، تبين الفرق الواسع بين مواهب الناس ، وما تمنحه إرادة الله لخواص عباده .

وفى زمن حكم أبى يحيى هجمت زناته بجيش قوامه ألف محارب على قصر « أدرف » ، فخربوه ، ولكن خراب القصر وخراب قرية « أدرف » كلها لم تهدم البناء الشامخ الذى أقامته عائلة بنى عبد الله . وفى الحين الذى يذكر التاريخ فى إجلال عظمة أبى يحيى وأسرة بنى عبد الله ، يلعن هذا الجيش الذى يهجم على قرية آمنة مطمئنة على حين غفلة من أهلها ، فيقتل سكانها ، ويخرب بنيانها .

أبو زكريا (١)

يحيى بن سفيان اللالوتي

نشأ فى «لالوت» هذه المدينة التى كانت مقراً للعلم، ومثابة للعلماء، وحسبه تعريفاً شهادة العلامة أبى العباس حيث يقول: «وكان حاكماً عادلا، وعالماً فاضلا.» وقد ذاع صيته، واشتهر بعلمه ودينه، وعدله، حتى عرفه الناس بذلك واعترفوا له، فكان يقدمه فى الصلاة حتى المخالفون له فى المذهب. وكان فى مرتبة من التواضع واللين، لا يصل إليهما إلا الندرة القليلة من عباد الله المؤمنين...

كان حاكماً، ولكنه لم يكن من الطراز الذى يعرفه الناس هذه الأيام، إن الحكم عند أبى زكرياء وأضرابه يعنى التضحية بالوقت والجهد والمال، دون أخذ شيء، إنه أداء واجب لاشكر عليه، ولا مقابل له. إلا ماعند الله، ولذلك فإن الحكم على أولئك الذين يلون أمراً من أمور الأمة، فيتخذون ذلك وسيلة إلى ابتزاز أموال الأمة والانتفاع بجهود أفرادها. إن هؤلاء قد خانوا الله، وخانوا الناس فى أماناتهم.

كان أبو زكرياء يعمل كأى فرد من الناس، لا يرى لنفسه حقاً عليهم، فكان يقوم بزراعته كما يقوم بها أى شخص آخر، وذات يوم حصد الزرع، واحتاج إلى جمل يحمل عليه ما جمع من زرع، وكان له جار قد هيأ جمله ليحمل عليه زرع نفسه، فلما سمع بحاجة الشيخ أراد أن يؤثره على نفسه، وذهب إليه بجمله، فانتهره الشيخ، ولم يقبل منه هذا الإيثار، الذى طاب به الجار الكريم نفساً، وخشى العالم الحاكم أن يكون الجار أقدم على ذلك بدافع الخوف، أو بدافع الحياء، فلم يرد أن يتقبل مساعدة الناس عل أحد الدافعين.

وتقلب الزمن، وتغير وجه التاريخ، وتوفى الشيخ، فجاء ولده إلى نفس

(١) ذكره أبو زكرياء فى الطبقة السادسة: فهو من علماء النصف الثانى للقرن الرابع، تولى حكم الجبل باتفاق أهل الحل والعقد من علماء جبل نفوسة.

المكان ، وحصد زرعه ، واحتاج إلى جمل يحمل عليه ، فذهب إلى جاره ، وكان هو نفس الجار الذى انتهره الشيخ لمَّا آثره على نفسه ، وكان الرجل قد أعد زرعه وأعد الجمل ليحمل عليه ، فطلب ابن الشيخ منه الجمل ليحمل عليه ، فاستمهله الجار الطيب حتى يوصل حمله ثم يرجع إليه الجمل . فغضب الشاب ، لأن الرجل لم يؤثره على نفسه . فقال العامل الساذج الطيب : « إن ذا لمن العجب !.. الشيخ يغضب إذا آثرناه على أنفسنا ، وابنه يهددنا إذا لم نؤثره . »(١)

إن الفارق بين الأب والإبن فارق عظيم ، فلقد كان الأب من أولئك الأبطال الذين ينتصرون على أنفسهم قبل أن يلتحموا بالمعارك الحاميه بعيداً عن أنفسهم ، والمؤمن إذا انتصر على الشيطان فى معركة النفس ، سهل عليه أن ينتصر فى كل ميدان ، ولكنه إذا انهزم فى المعركة الأولى ، فإنه لن ينتصر فى بقية المعارك ، مهما بذل من جهد ، وقدقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ؛ جهاد النفس] . لقد وثق المشائخ بأبى زكرياء فولوه شئون الأمة ، وكان إلى قيامه بهذا العبء الثقيل ، لا يرزأ الأمة فى شيء من مالها ، وإنما كان يمون نفسه وأسرته بعمل يديه ، كما يقوم بذلك أى فلاح عادى ، ولم يشغله هذا العبء الثقيل عن مشاكل الناس ، ولا هذا الكفاح الطويل فى إعالة الأسرة ، لم يشغله كل ذلك عن ممارسة أحب عمل إليه ، وإلى كل عالم يتجه بعلمه إلى الله ، ويقدم جهوده للأمة خالصة . ذلك العمل الحبيب إلى كل عالم يقدس المعرفة ، والتعليم ، ونشر الثقافة ، وتربية الأجيال ، ولقد خصص أبو زكرياء زمنا من وقته الثمين للتعليم ، وهداية الناس ، وإرشاد أبناء الأمة ، وكان الطلبة يتسابقون إلى الارتشاف من هذا المنهل العذب ، ويتزاحمون عليه تزاحم العطاش على الصافى النمير ، ولقد كانت له دروس لا تقتصر على صغار الطلبة والمبتدئين ، بل يحضرها كثير من العلماء الأجلاء . فإن مجالسه

(١) راجع أسير ترجمة أبى زكرياء .

العامرة بالموعظة الحسنة والدعوة إلى سبيل الله ، فحليقة أن يحضرها كل من تهفو نفسه إلى المزيد من الاطلاع على أسرار الشريعة السمحة ، وكان فى أحد هذه الدروس التى يتخذها لشرح وجهات النظر المختلفة ، ويكشف فيها وجوه الرأى وآراء المجتهدين ، ويعقب بذلك على تلك الآراء ، ويرجح منها ما يوافق التيسير على الناس ، وكان أبو الربيع حاضراً هذا المجلس ، فغضب من هذا الترخيص للشيخ ، وترجيحه ما يقوم على اليسر والخفة من آراء العلماء وأقوالهم ؛ فقام وهو يقول : لا أحضر مجلساً يفتى فيه بمثل هذا ... فأجابه العالم الأستاذ الذى يعرف من أسرار الشريعة ، ومن طبائع الناس ، ودخائل نفوسهم ، ما لا يعرفه كثير من أصحاب العلم ، ويفهم من طبيعة الحياة ، ومن دواعى العمل ؛ وما يناسب ذلك فى مختلف الأزمنة والأمكنة ، ما لا يفهمه الكثير ، أجابه يقول : إن لم ترد فقم . . . وقام أبو الربيع الغاضب وفارق مجلس الشيخ على هذه الحال ، ولكنه ما توارى من الباب حتى قال الشيخ لطلابه : ردوه ؛ إن لم يفهم هو ، فلا يفهم غيره ... وتواثب الطلاب فى خفة ليدعوه ، فلاقوه راجعاً ، فقد فكر واقتنع بوجاهة رأى الشيخ ، وبعد نظره ، ومعرفته بأحكام الدين ، والأصول التى تبنى عليها الفتوى ، وعرف أن العالم الذى يفتى للناس ، يقوم بعمل يشبه عمل الطبيب ، فقد يفتى لرجل بفتوى لا يفتى بها لشخص آخر فى سؤال مشابه ، كما يناول الطبيب شخصاً ما دواء لا يعطيه لمريض ثان له أعراض ذلك المرض .

وقد رأى كثير من حذاق العلماء ، أن الغنى الذى يتوفر لديه المال ، وتجب عليه كفارة ، لا يفتى له بالإطعام ، وإنما يفتى له بالصوم .

وأبو زكرياء من أخلص الناس إيماناً ، وأشدهم ورعاً ، وأغزرهم علماً ، فهو حين يقدم على عمل ، أو يصرح بقول ، يكون قد فكر قبل ذلك ، فأخلص العمل لربه ، واستبرأ لدينه وعرضه .

وخلاصة القول : أنه أحد أولئك الأبطال الذين انتصروا على الشيطان فى أنفسهم ، وقدموا أعمالهم لله خالصة ، وقادوا أمتهم إلى الخير ، دون أن يرزءوها فى مال أو دم ، وقد كان مثلا للمسلم القانع الراضى بما قسم الله له ، والعارف بحقيقة الدنيا وزخرفها .

زاره المشائخ يوماً فأكثر لهم اللحم ، وكان الطعام قليلا ، فاعتذر لهم بضيق الحال ، وزاروه مرة أخرى فأكثر لهم الطعام وقدم لهم زيتاً ، ولم يقدم لهم لحماً ، ولم يعتذر ، فقيل له فى ذلك ؟ فقال : لا تقصير مع الطعام والزيت .

إنه رجل لا يعرف المظاهر الجوفاء ، وإنما يعرف الحقائق التى تنبنى عليها الحياة ، وحقيقة الغذاء الذى تقوم عليه الحياة فى الجبل إنما هو الطعام والزيت ، وليس اللحم مادة ضرورية فى ذلك الحين .

ولعل فى قصة أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها وزوجة معاوية بن أبى سفيان عبرة وموعظة لهؤلاء الذين يسرفون فى اتباع الشهوات ، فقد قيل : إنه قدّم لأم المؤمنين عائشة عشاؤها الذى يتكون من خبز وزيت ، وكانت زوج معاوية حاضرة ، فدعتها أن تشاركها هذا الطعام ، لكن الزوجة التى ربيت فى بيت معاوية ، وبين موائد الشام ؛ اعتذرت لأم المؤمنين ، وأخبرتها أنها تعودت أن تأكل أرق من هذا وأشهى ، فرفعت إليها أم المؤمنين عينين متعجبتين وأخبرتها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات ولم يشبع من الخبز والزيت ، ولو أراد رسول الله لكانت له موائد أحفل مما يقدم لكسرى وقيصر ... وصدق الذى أوصى فقال : لا تجعلوا بطونكم مقابر للحيوان .

درس أبو زكرياء على العالمين الكبيرين : أبى محمد خصيب التَّمَصْمِصِى ، وأبى عبد الله محمد بن جَلدا سِنْ .

أبو عبد الله محمد بن جلداسن اللالوتى (١)

نشأ فى « لا لوت » بلد الأشياخ والعلم كما قال أبو العباس ، وقد تحدث عنه وقال فيه : « وكان بحر العلم الزاخر ، وإمام الحكام الفاخر ، قيل له : فى بعض أحكامك ضعف ، قال : اقعدوا على طريق الحطابة ، فإن رأيتم معهم عوداً يابساً فصدقتم أننى ضيعت شيئاً من الحق » .

وتكفى هذه الشهادة للدلالة على علم الرجل ، وعلى عدله ، وعلى قوة إرادته ، وصلابته فى الحق ، إنه يحكم ويعدل ، وحين يتهم بالضعف فى أحكامه يتحدى — فى ثقة الرجل الذى يزن قوته ، ويعرف سطوع حجته — أولئك الذين يتهمونه بضعف الأحكام ، أن يظهروا له هذا الضعف الذى انتقدوه عليه فى نتائج الأحكام ، وما يعقبها من آثار ، ويصمت المعارضون ، لأنهم لا يجدون ما يردون به على هذا التحدى ، فهذه نعم الله تسبغ عليهم ظاهرة وباطنة ، وهذه الخيرات مبثوثة على الطبيعة ، وهذا الأمن منتشر ، والسلام يسود الربوع ، والناس مشتغلون بأعمالهم ، راضون عن حياتهم ، وحقوقهم مكفولة ، لا يضيع منها حق ، ولا يطغى قوى على ضعيف .

وكان إلى هذه القوة فى الحق ، والمعرفة بالعدل ومجاريه ، عالماً بأسرار الشريعة ، يحارب الوسوسة والجمود ، والتشدد فى دين الله .

كان يوما « بشروس » وقد نزل مطر غزير ، فذهب إلى المسجد ، ومشى

---

(١) ذكره أبو زكريا فى الطبقة السابعة : فهو من علماء النصف الأول للقرن الرابع : تولى الحكم على الجبل باتفاق أهل الرأى والعلم معاً .

بخفيه حتى دخل المسجد ، وصلى بالناس ، ليزيل من أفكار الموسوسين المتشددين ما يظنونه نجساً مما يتطاير من ماء المطر فى الشوارع .

وقف له بعد الصلاة أحد المؤمنين الذين يعرفون من أحكام الإسلام مثل ما يعرف ، ويعرف من طبائع النفوس البشرية بعض الجوانب التى غفل عنها العالم الكبير ، فقال له : « إن متولى الناس مثل اللبن ، يغيره أدنى ما يقع فيه » وفهم الشيخ ما ترمى إليه هذه الملاحظة الدقيقة ، واقتنع بوجاهتها ، فلم يعد لمثلها ، فإن بعض الناس قد يفسرونها بالتهاون وعدم الاحتياط والاستهتار ، وهؤلاء الناس قد لا يجسرون على إبداء آرائهم هذه ، ومناقشتها بالحجة ليعرفوا حكم الله ، ولكنهم يجعلونها مادة الحديث والتعليق ، وتنسى القضية نفسها ، لكن الحكم المترتب عليها من التهاون والاستخفاف ينتقل من أذن إلى أذن ، حتى يشيع و ينتشر . . .

كانت أم سحنون اللالوتية من فضليات العجائز ، مؤمنة ، عالمة ، ناصحة ، وكانت مزاراً للمشائخ والعلماء ، تفيض عليهم من أدبها ، وعلمها ، وخلقها ، ودينها ، ونصيحتها ، وسار يوماً أبو عبد الله فى جماعة من المشائخ لزيارتها ، فلما كانوا ببعض الطريق ، وقد قربوا منها ، سمعوا أن حدثاً وقع « بجادو » ، فاضطروا إلى الرجوع ، واضطر أبو عبد الله بوصفه حاكم الجبل أن يعود ليرى هذا الحدث الذى وقع بجادو ، مدينة نفوسة ، ومركز الحكم فى أكثر الأحيان ، غير أن أبا هارون لم يرجع معهم ، وأتم ما عزم عليه من زيارة هذه المرأة الصالحة ، فلما أخبرها برجوع المشائخ قالت : « يا أخى أخشى أن أكون ممن قيل فيهم : إذا زارت الأخيار فاسقاً سد الملائكة عليهم الفجوج ، و إذا

زار الأشرار صالحاً قيدتهم الملائكة[١] » .

لقد كان أبو عبد الله من أولئك العلماء الذين امتلأت الكتب بأقوالهم وآرائهم وسيرهم ، أما الصورة الكاملة لحياة هذا الرجل ، فهى تشبه إلى حد كبير ما تقدمها من الصور التى عرفتها لأولئك الأعلام الذين وثقت بهم الأمة ، فحملتهم أعباء الحكم . . . وساروا بتلك الأعباء الثقال ، لا يتعثرون ، يعملون لله والأمة ، لا يغرهم السلطان ، ولا تخدعهم المظاهر البراقة ، ولا يلتفتون إلى نعيم الدنيا .

---

(١) السير ٢٩٨ .

أبو زكريا يحيى بن أبي عبد الله التندميرتي [1]

شخصية من تلك الشخصيات التي تحتاجها الشعوب في أوقات الوهن والضعف، ولاّه المسلمون أمورهم بعد أبيه أبي عبد الله ، حفيد أبي منصور ... أبو منصور الذي عرفه التاريخ في أنزه موقف وقفه محارب ، و بأشرف سيرة سارها أمير . أما حفيده عبد الله ، فيكفي فيه ما قاله عنه أبو العباس : « أما أبوعبد الله ، فلم الشعث ، وكشف اللبس ، ورتق الفتوق ، ورقع الخروق » ومن هذه الأسرة الـكريمة التي شرفها الإسلام ، وشرف بها المسلمون ، انحدر أبو زكرياء .

ولاّه المسلمون أمورهم بعد أبيه أبي عبد الله ، فبقي في هذا المنصب الخطير ، منصب الأمير أو الإمام ، ستين سنة ، لم يتغير فيها خلقه ، ولم يفسد طبعه ، ولم يتغلب عليـه الطمع ، ولم يداخله الغرور الذى يعبث بالنفوس من أصحاب السلطان .

دأب منذ أسند اليه حكم الجبل ، أن يحاسب نفسه كل ليلة ، ولا يأوى إلى مضجعه حتى يزن ماقام به من أعمال ، ثم يميز جميع من يدخل تحت حكمه ، فيعرف من يستحق الأدب ، ومن يستحق المواساة ، ومن له الحق ، ومن عليه الحق .

دأب على هذه السيرة طول مدة إمارته خوفا من التقصير ، وخشية من العيّ عن الجواب يوم الحساب ، إذ كل راع مسؤول عن رعيته .

---

(١) ذكره أبو زكريا في الطبقة السابعة : فهو من علماء النصف الأول للقرن الرابع ، تولى الحـكم على الجبل وما يليه باتفاق المشايخ .

هكذا كان أبو زكرياء يقضى وقته وهو أمير على جبل نفوسة ، شغل متواصل طول اليوم ، ينسى فيه نفسه وأهله وماله ، فإذا أوى إلى بيته فى الليل ، ليجد قليلا من الراحة ، حسد نفسه عن أن تنال هذا القسط الضئيل من الراحة ، ونأى بروحه عن أهله وأبنائه ، لأن للمسلمين بقية حقوق تترتب بذمته لم يتأكد أنها وصلت إلى أصحابها كما يوجب الحق والمروءة .

وفى هذه العزلة الروحية ، وهو فى بيته ، بعيد عن ضجيج الناس ، يستعرض شريط اليوم ، ليرى فيه هذه المملكة التى يتولى أمرها ، فيمر بين عينيه ذلك الشريط بما يحمل من صور الناس فى الحياة .

ويتذكر أبو زكرياء من غفل عنهم فى زحمة الحياة ، وأنساه إياهم الدوى الصاخب .. فيمر بين عينيه فى ذلك الشريط : القوى الذى اعتمد على قوته فأخذ من حقوق الناس ، ويمر به الضعيف الذى قعد به الضعف حتى عن الوصول إلى الحاكم ، ويمر به الغنى الذى تجرى الثروة بين يديه ومن خلفه ، فيحيا حياة الرغد والرفاهية ، ويمر الفقير الذى يتغلب على الحياة بالقناعة وينتصر على الجوع بالصبر ويستر العرى بالتوارى عن مجامع الناس .

وبعد أن يصفى حسابه مع الله ومع نفسه فى يومه الماضى ، ويضع خطوط العمل ليومه المقبل ؛ بعد ذلك يعود إلى إعطاء حقوق أهل البيت من أولاد وزوجة وغيرهم ، ويصبح إنساناً كسائر الناس ، يتكلم مع أهله وأبنائه ، ويستعرض شئونه الخاصة وموارد رزقه الطيب .

وعند ما يقوم فى الصباح ليتولى العمل من جديد ، يكون أول ما فى مخططه اليومى استخراج الحقوق ممن لم تستخرج منه ، وإنزال أحكام الله على من يستحقها

كان شديداً فى الله ، يتعقب الجناة والمجرمين ، ولا يتهاون فى ذلك أبداً .
ذُكر له : أن جانيا فى قرية « جناون » آوى إلى أهله ، وبات عندهم . فهجم عليه صبيحة العيد ، بعد أن صلى صلاة الصبح فى مسجد أبى عبيدة ، وطلب من العزابة تسليم المجرم ، وإيصاله إلى السجن فى « جادو » حتى يحكم فيه بحكم الله .

وذكر له : أن جانيا آخر بات فى «ويفات» وهى قرية تبعد عن جادو مركز حكمه ما لا يقل عن عشرة أميال ، فهجم عليه هو وأصحابه ، وأنفذ عليه الحكم وقد حاول الجانى أن يعتدى على الأمير الشديد فى أمر الله،وهم أن يطعنه بخنجر، فتلقى عنه الضربة أحد الحاضرين الواقفين بجنبه ، فقال أبو زكرياء : يقال فى المثل : أحبك ولا كنفسى ، وهذا الرجل أحبنى فوق نفسه .

تخاصم إليه رجل وامرأة على مال ، وكان أبو يوسف الأجفرى حاضراً ، وهما من بلده ،فقال له : ما تقول يا أبا يوسف ؟ قال أبو يوسف : إن جزت على المرأة أسلِّم، وأسأل لها العون ؛ وإن أطعمتنى أكلت . . . وإن مررت على الرجل لا أسلم ، ولا أسأل له العون ، ولا آكل إن أطعمنى .. قال أبو زكرياء للرجل: اسمع ما يقول أبو يوسف يا أبا فلان . . . قال الرجل : مالى يا شيخ ؟ قال أبو زكرياء : اسمع يا فلان ما يقول أبو يوسف ، قال الرجل : مالى يا شيخ ؟ قال أبو زكرياء : يا مرعون إن ذهبت إليه لأجعلنها فى جنبك ؛ يعنى السياط .

إن الرجل الذى يتمادى على الباطل ، ويستمسك بحق الناس ، حقيق أن توضع فى جنبيه السياط .

كان أبو زكرياء عالما من أفذاذ العلماء ، ولكنه مع سعة علمه أراد أن يطمئن فى أحكامه إلى فتاوى من مشائخ يوثق بعلمهم وفهمهم ، فاستنصح

أبا محمد الدرفى ، فنصحه أبو محمد أن يستفتى فى نوازله ، والمشاكل التى تعرض عليه الشيخين العالمين : أبا محمد الكباوى ، وأبا يحيى الفرسطائى ، فيحكم بما اتفقا عليه ، ويتوقف فيما يختلفان فيه ، فكان يستفيتهما ، غير أن أبا يحيى كان يجيب إجابة العالم الواسع الاطلاع ، فيناقش الموضوع مناقشة طويلة ، ويبحثه من جميع نواحيه ، ويستعرض الأقوال الواردة فيه ، دون ترجيح ، أما أبو محمد الكباوى ، فكان يقصد إلى أرجح الأقوال ، ويحدد الموضوع فى إيجاز وتلخيص ، وهذا ييسر العمل على الأمير الكثير الأشغال ، فاعتمد على فتوى أبى محمد ، ولما توفى أبو محمد ، حضر جنازته وشيعه إلى مقره الأخير ، وعندما أراد مغادرة المقبرة ، قال : سلام عليك يا كاباوى ، ولما مر بقرب منزله قال : لقد أصبحت أيها المنزل كغيرك من المنازل .

ثم استفتى بعده أبا محمد خصيباً .

حاول عدة مرات أن يتخلص من أعباء الحكم ، وأن يلقى عن كاهله هذا الحمل الثقيل ، ولكنه لم يتمكن من ذلك ، لأن أهل الشورى من المشائخ لم يوافقوا على ذلك أبداً .

وبعد : فما هو المبلغ الضخم الذى جمعه هذا الأمير الذى حكم الجبل ستين سنة ؟ وما هى القصور التى شادها ؟ والجنان الفسيحة التى امتلكها ؟ إنه لا شك جمع ثروة طائلة ، تركها لأبنائه ، وسوف ينعمون بها طيلة أجيال متعاقبة . أما هو وأسرته فلا بد أن يكونوا قد نعموا بالمال ، وعاشوا فى رغد ورفاهية .

ولعل فى القصص الآتية شواهد تدلنا على مبلغ ما كنز هذا الرجل من مال ، وجمع من ثروة .

ولد له ولد فبعثت إليه زوجه تطلب كمية من الزيت للاستصباح ودهن الطفل ، فكم يا ترى يستطيع أن يبعث إليها فى هذه المناسبة السعيدة ؟ إن أى موظف بسيط أو شيخ قبيلة ، يمكن أن يبعث لزوجه فى مثل هذه الحالة ما يكفيها أسبوعاً ، أو شهراً ، وإذا لم يكن هذا المقدار عنده ، استطاع أن يحصل عليه بأى وسيلة من الوسائل ، أما هذا الأمير الذى يتصرف فى مال الجبل كله ، ويتحكم فى تصريف ما فى « نفوسه » من زيت ، لم يستطع أن يبعث إلى زوجه الحبيبة ، وهى نفساء ، وإلى طفله الوليد وهو يستقبل الحياة ... لم يستطع أن يبعث إليهم شيئاً ، لأنه لم يجد فى ملكه الخاص ما يبعث به ، أما أموال المسلمين ، وزيوت الأوقاف التى تصرف تحت رعايته ، فلم يستطع أن يمسها ، لأنها أمانة فى عنقه ، وهو أخشى لله من أن يخون الأمانة ، وأبلغها أنه ليس لديه زيت ، وما دام لا يجد فى ملكه الخاص زيتاً ، فعليها أن تستصبح بالحطب ، أما الوليد فيكفيه التنظيف بالماء . وعلى زوجة الأمير أن تقنع بهذه الحياة إن كانت مؤمنة ترجو خير الآخرة ، وإلا فإن هذا الرجل ليس برجل الدنيا الذى تغره الحياة بالنعيم الزائل . .

وفى القصة الآتية مثل آخر يبين لنا كيف يستطيع أن يجمع مثل هذا الأمير ثروته الطائلة ، التى لا تنبض :

مر على بعض الأحياء فاستضافوه ، ولكنه اعتذر ، فجاء صاحب الحى بعدد من الكباش ، وقدمها للأمير وهو يقول له : هذا غذاؤك وغذاء أصحابك حيث لم توافق على البقاء ! . . فهل فرح لهذه الكباش ؟ وأمر بسوقها ليضمها إلى ما جمع من ثروة ؟

لم يفعل شيئا من ذلك ، ولكنه أجاب صاحب الكباش بهذه الكلمة التى يجب أن توضع بين عينى كل صاحب سلطة من أولئك الذين يجمعون الرشاوى ، ويبتزون أرزاق الشعوب ، ولا يعفون عن أموال الدولة ، قال : « لو كلفت بحمل قرونها ما قدرت ، فكيف بحملها جميعاً يوم القيامة[١] » وترك الكباش لصاحب الكباش ، وعاش الطفل على نور الحطب ، وضرب أبو زكرياء لعبيد الدنيا المثل الرائع الذى يجب أن يتعظ به أولئك الذين تسند إليهم أمور الناس ، ويؤتمنون على ثروات الشعوب ، لقد فنيت جميع الثروات التى جمعها الجبابرة ، ولكن هذه الثروة الخلقية التى تركها هذا المؤمن الصابر لم تفن ، ولن تفنى ، وما عند الله خير وأبقى . . .

حضر إليه بعض المشائخ فى أواخر أيامه ، وسأله عن رأيه فيمن يولونه أمورهم ، ويسندون إليه حكمهم من بعده ، فاختار لهم : إما أبا زكرياء اللالوتى ، أو أبا يعقوب البغطورى ، أو أبا داود سليمان الدرفى .

لما اشتد عليه المرض رأى جماعة أن يرجعوا به إلى بلده تندميره ، فحملوه ، فلما أفاق من غشيته وجد نفسه محمولا ، فسألهم عن ذلك ؟ فأخبروه أنهم يريدون به بلده « تندميرة » فأمرهم بإنزاله فى موضعه ، وكان قرب « تمزده » وهنالك فاضت روحه الطاهرة ، رحمه الله ، ولا يزال قبره مشهوراً معروفا هناك .

واجتمع المشائخ بعد وفاته ، فولوا مكانه أبا موسى عيسى — فاتبع خطاه ، وسلك مسلكه ، وسار بسيرته . قوة فى دين الله ، وغلظة على العصاة والمجرمين

---

(١) السير ٣١٨ .

وإيصال للحقوق إلى أهلها ، وعدل بين الناس يستوى فيه الكبير والصغير ، والجليل والحقير .

أدَّب رجلا على عمل ارتكبه ، فتألم ولم يصبر .. فقال له أبو موسى : أبلغتك حرارتها يا عدو الله ؟ فقال المضروب : أو لم تذقها ؟ فقال الحاكم القاضى العادل : ذقتها وكانت لى رشداً وصلاحاً . . .

ترتب الحق يوما على داود بن على ، وكان من العظماء أصحاب الثروة ، مهيباً بين الناس ، صاحب قدر ومقام . فلما أراد الحاكم أبو موسى إقامة الحق عليه ، أعرض ونأى بجانبه ، وازور عن الحق ، وثنى عطفه تكبراً أن يؤخذ منه الحق ، ويقام عليه الحد ، وقام من مجلس الحكم . .

أمر أبو موسى برده ، فلم يجد بين الحاضرين من يقوى على رده . .

وفكر داود بن على فى الموضوع ، ثم رجع إلى مجلس الحكم ، وطلب من أبى موسى إقامة الحق ، وقال له : رجعت إلى مجلسك لتقيم على الحد لثلاثة أسباب :

الأول : لا أريد أن أترك التكبر عن أخذ الحق سنة يتبعها كل متكبر .

الثانى : تواضع مثلى لمثلكم لا يزيده إلا رفعة وعزاً .

الثالث : أن فى أبناء الأمة غيرى ، ومن هو أعظم منى .

وطلب أبو موسى من جديد إلى الحاضرين أن يقوم أحدهم بتنفيذ الحكم فلم يجد أحداً ، فقام وهو يقول : « تعلم ربى أنه لو لم يكنْ رضاك إلا فى نزع نفسى لنزعتها[1] » ونفذ الحكم .

---

(١) راجع السير للشماخى .

ولست أدرى أيها القارىء الكريم وأنا أقص عليك هذه القصة هل تعجب مثلى بهذا الخلق المتين ، من الحاكم والمحكوم ، بل إنى لحائر بين الرجلين ، لا أعرف أيهما أعظم ، أهذا الذى يصر على تنفيذ حكم الله مهما كانت النتائج ، أم هذا الذى يحكم عليه ، ثم تعجز سلطة الحكم عن تنفيذ قرارها ، وبعد أن يتيقّن أنه لا أحد يقوى على تنفيذ الحكم عليه ، يجىء إلى الحاكم مستسلما خوفا من أن يترك سنة سيئة يقتدى بها الناس ، فيما إذا ركبتهم الحقوق ، وتعلقت بهم الواجبات . . . إنه خلق لم يوجد إلا فى الرعيل الأول من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . .

أبو هارون موسى بن هارون (١)

نشأ أبو موسى هارون بن هارون في « تمْـلوشا يتْ » وأخـذ مبادىء العلم عن مدارسها العامرة ، ثم التحق بأبي محمد التمصمصي ، وفي هذه المدرسة التي أعدت أعلاما ، وخرجت فحولا ، تخرج أبو هارون ، علماً من أعلام الإسلام ، وبطلا من أبطال المؤمنين ، وجدّاً لأسرة متسلسلة في العلم والإيمان والـكفاح من أجل المثل العليا التي حارب من أجلها محمد صلى الله عليه وسلم ، وناضل عنها المؤمنون في كل زمان ومكان .

كان رحمه الله عامر القلب بالإيمان ، براً ، تقيا ، عفيف اليد واللسان ، وكان مع ذلك ذا قوة وصمود في النضال عن الحق ، وحمايته من أطماع الطامعين .

كان أبو محمد خصيب هو مفتي الأمير أبي زكرياء التندميري بعد أبي محمد الـكباوي ، وكان أبو هارون يحرص على حضور مجالس أبي محمد خصيب ، لما يستفيده منه من علم جديد ، ونزل أبو زكرياء يوماً إلى جناون ، ونزل إليها أبو هارون ، ولـكن أبا محمد خصيباً لم يتمكن من النزول ، لأن ضعف الشيخوخة حال دونه ، واحتاج أبو زكرياء إلى فتوى ، فطلب من أبي هارون أن يتقدم لها ، ومن ذلك اليوم أصبح أبو هارون يفتي لأبي زكرياء ، حتى لحق أبو زكرياء بالله ، وتشاور المشائخ فيمن يلي أمورهم ، فأسندوها إلى أبي موسى عيسى ، ثم أسندوها من بعده إلى هذا العالم الذي أحسن القيام بها ، ورعاية شؤونها ...

في قرية «إِبْنَـايَنْ» التي لم يبق منها اليوم إلا أطلال دوارس، كانت إحدى

---

(١) ذكره أبو زكريا في الطبقة السابعة ، فهو من علماء النصف الأول من القرن الرابع : تولى الإفتاء ، ثم اختاره مشايخ الجبل حاكما على جبل نفوسة وما يليه .

العجائز التى يسميها المشائخ الجدة ، وكانت تقية صالحة عالمة مؤمنة ، تفيض على جلسائها بالخير والصلاح ، واعتاد أبو هارون أن يزور هذه العجوز ، فيقتبس من خلقها وعلمها ودينها ، ولما أسند إليه الحكم ، وألقى على كاهله هذا العبء الثقيل ، نقل مركز حكمه إلى هذه القرية الجميلة التى تحضنها الجبال الشم ، وتنبسط عند أقدامها الوديان الخضر ، ليكون قريباً من هذا العقل البشرى المستنير ، وهذا القلب المؤمن الصافى ... نصحه بعض المتملقين أن يشترى الأملاك الثابتة ، حتى تبقى لأبنائه من بعده ، فأجاب هذا الناصح بقوله : « من يتبع أمنهم طريق الهدى لا يعدم من الله خيراً ، ومن نبذه وراء ظهره فلا أعدمه الله جوعا » .

وقارن أيها القارىء الكريم بين أمير لا يترك لأبنائه غير الله ، وأمير يجمع المال من كل سبيل ، لايفرق بين حلال وحرام ، ثم يتركه لأبنائه يعبثون به ، ويلقى الله بالحساب . .

سار أبو هارون بأعبائه الثقال من شئون الأمة ، كما سار بها أولئك الذين سبقوه بالحسنى ، أقام الحق بين الناس ، وحمى الوطن من عـــدوان المعتدين وغارات المغيرين . .

وكانت زوجة أبى هارون امرأة صالحة يحبها وتحبه . وكانت عالمة ذكية ، ولكنها غير ولود .

ونصحه المشائخ أن يتزوج غيرها عسى أن يرزقه الله أولاداً صالحين ... ففوض إليهم أمر الاختيار ، ووكّلهم على القيام بهذه المهمة ، وكل ما اشترط عليهم : أن يختاروا له امرأة يتوفر فيها الصلاح والتقوى .

وتشاور المشائخ ، ودرسوا الموضوع ، واستعرضوا عقائل الجبل ، فاتفق رأيهم ، ووقع اختيارهم .. من تكون هذه المرأة التى يتفق المشائخ على اختيارها زوجة لأعظم رجل فى ذلك الحين ؟

لقد كانت جدة المشائخ السيدة « تابركانت » أعظم امرأة فى الجبل وأصلحها ، وكانت لها بنت ربتها على الخلق الكريم والدين القويم . وثقفتها الثقافة التى تصلح للمرأة فى ذلك الزمن الذى تشارك فيه المرأة الرجل فى أهم الميادين بالرأى والنصحية والإرشاد من وراء الحجاب ، وقبلت الفتاة ، ورضى الشيخ ، وزفت العروس الصالحة إلى العالم المؤمن ، ورزق أبو هارون بعدد من الأولاد أقروا عين والدهم الشيخ ، وخدموا الأمة بإخلاص .

كان قبل أن يتولى حكم الجبل ، يقوم بالتدريس ، وكان يقوم بالرحلات العلمية مع طلابه ، فيدرسون البيئة ، ويعلمهم أدب السلوك ، ويعرفهم بالناس ، ويوضح لهم طريقة الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، ويدربهم على القيام بدروس الوعظ والإرشاد ، وكثيراً ما كان ينزل بهم على أم ماطوس ، المرأة التى استطاعت أن تتغلب على إرادة أهلها فى سبيل الدراسة ، حتى بلغت مرتبة تتقاصر عنها أعناق الأبطال . .

أبو الربيع سليمان بن أبي هارون [1]

غلب عليه لقب الشيخ ، حتى أصبح علماً عليه ، أخذ العلم عن أبي يحيى زكرياء بن سفيان اللالوتي ، وابي سهل البشر بن محمد التَّنْدَمِّيرْتِي ، وأبي يوسف وَجْدَ لِيشْ بن فِي اليُجْلاَنِي وأخذ عنه بَشَر كثير .

سافر إلى الحج مع مجموعة من العلماء الأعلام ، فترافقوا اثنين اثنين ، فكان رفيقه أبا يعقوب البرني ، وطال الطريق بهم ، كان الرفاق يفترقون ويجتمعون ما عدا أبا الربيع وأبا يعقوب ، فقد أمضيا الطريق كله في صحبة ممتعة ، بين مذاكرة في فنون العلم وتعاون على ذكر الله .

وكان الركب إذا سئلوا عن عالمهم قالوا : أبو الربيع وأبو عبد الله الدَّرَفي . وإذا سئلوا عن عابدهم قالوا : أبو موسى الدّجّي ، وإذا سئلوا عن سخيهم قالوا : زكرياء بن عمار الشروَسي ، وإذا سئلوا عن أفضلهم قالوا : أبو يعقوب البرني . وعلق ما شئت أيها القارئ الكريم عن ركب يجتمع فيه هؤلاء الأعلام . .

جمع أبو الربيع إلى العلم الواسع ، والدين القويم ، والخلق الكريم . شدة في الحق لا تلين ، ومحافظة على دين الله لا تفتر ، وسيرة صالحة لا تضعف . .

اشتهر طلوع هلال شوال فأفطر الجبل وبلغه أن بعض المتنطعين الجامدين أمسكوا عن الإفطار ولم يوافقوا الأمة في عملها بالشهرة فتتبع هؤلاء المتنطعين

---

(١) ذكره أبو زكرياء في الطبقة الثامنة : فهو من علماء النصف الثاني للقرن الرابع : تولى حكم الجبل باتفاق أهل الرأي والعلم من مشائخ جبل نفوسة .

حتى بلغ جادو، وهو يلزمهم الإفطار ويكسر عليهم هذا الصوم الذى يخالفون فيه الدين والأمة ويغير هذا الحدث الذى كان خليقاً أن يحدث شغباً وخلافاً بين الناس .

وكان قوياً فى العبادة شديداً على نفسه يعتقد أن فى طوق جميع الناس أن يعملوا مثل ما يعمل .

صام مرة فى جادو وكان حاكم الجبل حينئذ أبا عمرو وكان أبو الربيع إما أن يكون فى مجلس العبادة أو فى مجلس العلم لا يعرف النوم والراحة ، فقال للأمير : حجر على الناس أن يناموا بالليل مدة صيامهم ، ومن كسر الحجر فالسجن أولى به . . . ولكن الأمير لم يعمل بهذا الطلب ، وسار الزمن وأسندت الإمارة فيما بعد إلى أبى الربيع ، ويظهر أنه ازداد خبرة بطبائع الناس ومعرفة بالضعف البشرى ، فلم يحجر على الناس النوم بالليل ، وإنما كان يدعو إليه من كان يقوى على إحياء الليل ، فيحيونه يعبدون الله ، أو يتذاكرون فنون العلم .

كان داود بن تيتيس طاغية متجبراً مثل جلدين بن فلاوسن ، ولم يستطع المشائخ فى جادوا أن يلقوا عليه القبض وينفذوا فيه حكم الله ، فجاء أبو الربيع وبصحبته أبو عمرو وأبو موسى الدجى وطلبوا من أبى داود الدرفى أن يرافقهم ، فهجموا على ابن تيتيس وألقوا عليه القبض وأودعوه فى السجن حتى حكم عليه المشائخ ، ونفذوا فيه الحكم . .

استحق يوسف بن عبد الله من أهل إكَرَّايَنْ الأدب ، فأوثقه أبو الربيع فى سلسلة حتى يجرى عليه الحكم ، وقدم بعض الكبراء يتشفعون فى يوسف هذا ، فقال أبو الربيع لو أمكن أن أنزع السلسلة عن يوسف

بمائة دينار لدفعتها عنه وأطلقت سراحه ، ولكن الحق أولى . وهكذا لم تشفع محبته لهذا الرجل ، ولا رجاء الكبراء فيه ، لأن الحق أحق أن يتبع ...

وهو إلى هذه الشدة والحزم فى معاقبته الجناة وتتبع العصاة جم التواضع كثير الحياء ، أواب إلى الحق .

ذهب هو وبعض أصحابه وطلابه إلى تندّميرة فاستضافه رجل دخلت الشبهة إلى بعض ماله ، فامتنع أحد طلابه عن الأكل تورعا ، فغضب أبو الربيع غضباً شديداً على هذا التلميذ ، ولما كان بالطريق وهو راجع إلى مركز حكمه وإقامته — إيبناين — قال لأبى محمد بن عبد الله التميجارى : مره فليلحق ببيت أبيه — يعنى الطالب الذى تورع عن الأكل . . . فقال له أبو محمد : إن لم تأثم أنت فلم يأثم هو ، فطاطأ الشيخ رأسه حتى كاد يصل قربوس السرج ، وأذعن للحق ، واستمع إلى النصيحة المخلصة ...

وكان إلى هذه الشدة فى دين الله ، وهذا التواضع والحياء ، وهذا الرجوع إلى الحق ، كثير البر ، جم الصدقة ، متواصل العباده ؛ وفى رمضان يجمع إليه خيار المسلمين مثل العلامة طاهر بن يوسف وغيره ، فيصومون عنده ويتعاونون على مذاكرة العلم ؛ والتعرف على أحوال المؤمنين ، والقيام بأنواع مختلفة من العبادة .

جمع بين الإمارة والقضاء والتدريس ، وكان يوزع وقته بين هذه المهام فلا يؤثر قسما منها على القسم الآخر ..

إذا صلى العشاء الآخرة وتنفل بما شاء الله ، افتتح مجلس الدرس للطلاب إلى هون من الليل ، ثم يذهب إلى داره ، ويصطحب معه محمدا ابن زكرياء

البغطورى ومحمد ابن يفون فيقرأ عليه أحدهما حتى يفتر ، ثم يقرأ الآخر إلى آخر الليل ، فيقوم إلى الاشتغال بالصلاة ، فإذا صلى الفجر اشتغل بالدراسة حتى تطلع الشمس ، فيفتتح مجلس التدريس ، فإذا أتم التـدريس جلس للقضاء والأحكام إلى الزوال ، فيقوم ليشتغل بالصلاة ، حتى قال بعض خواصه المتصلون به : « لا ندرى متى ينام » ؟

أبو يحيى زكريا بن إبراهيم البارونى (١)

علم من أولئك الأعلام الذين يهتدى بهم الضال ، ويثبت الحيران ، ويلجأ إليهم الضعيف ، جمع إلى غزارة العلم ، وقوة الإراده والشدة فى دين الله ، كرما مطبوعاً ، وحبا للخير متأصلا ، ورغبة ملحة فى نشر العلم ، وهداية الناس إلى دين الله السوى ، فقد اجتمع فى تلك النفس المؤمنة الصادقة كل الصفات والمزايا التى يودعها الخالق فى بعض خواص خلقه لآداء رسالة فى التاريخ، لا يؤديها كل أحد ، وقد تحمل أعباء تلك الرسالة ، واستجاب له حتى أولئك الذين شذوا عمن قبله فى أغلب المملكة الليبية ، ودانت له الدنيا ، وأعطى بسطة فى العلم والمال(٢) .

نعم لقد أعطى بسطة فى المال حتى استطاع أن يفيض به على جميع الجبل، ولم يبق بيت من « كـكلة » إلى « وازن » لم يدخله مال أبى يحيى زكرياء .

فهل تحصل على هذا المال بالطرق التى يعرفها الحكام فى التاريخ القديم والحديث ؟: وسائل غير شريفة ، وطرق ملتوية ، واستغلال نفوذ ، ورشاوى وهدايا . . . إلى آخر ما هنالك من وسائل الابتزاز التى يعرفها ذوو السلطة المنحرفون عن سبيل الله .

---

(١) ذكره أبو زكريا فى االطبقة الثانية عشرة : فهو من علماء النصف الثانى من القرن السادس : تولى الحكم على جبل نفوسة وما يليه ، باتفاق أهل الرأى والعلم من المشايخ ، ويقول الشيخ يوسف بن الحاج أيوب البارونى : إنه بويع بالإمامة الكبرى وقام بها ، فهو لم يكن حاكما فقط وإنما كان أميراً للمؤمنين .

(٢) عن سير الشماخى وكتاب سليمان باشا البارونى فى أطوار حياته للشيخ أبى اليقظان بتصرف .

إن أبا يحيى لم يأخذ مليما واحداً عن طريق غير شريف ، ولم يرزأ الأمة فى قليل ولا كثير ، ولم يحد قيد أنملة عن طريق أولئك السلف الذين لم ينحرفوا عن الطريق اللاّحب الذى تركه محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، ثم سار فيه أبو بكر فعمر ، فالصفوة المختارة من عباد الله المؤمنين .

كان أبو يحيى ينفق على الأقسام الداخلية فى مدرسته العامرة التى تشتمل على عدد من الطلاب ، يتراوح بين الخمسين والمائة طالب ، وكان لا يزوره زائر ولا يسمع بأحد ابتلى بضيق الرزق ، وأصيب بالحاجة ، إلا نفحه من كرمه ، وواسى جرحه بماله ، وكان الناس إلى مشاهدتهم لهذه الأفعال الكريمة والنفقات الباهظة المتتابعة يعرفون سيرته واستقامته وعفته ، فلذلك كانوا يختلفون فى طريقة حصول الشيخ على هذه الأموال الوافرة ، يقول بعضهم : إنه عثر على كنز جاهلى ، ويقول بعض : إن معه الإسم الأعظم ، فهو يستطيع أن يرد الحجر ذهبا ، ويرى آخرون ؛ أنه عالم فى الكيميا — على حسب ما يظن فى الزمن القديم أن الكيميا تستطيع أن تستخرج من النحاس أو غيره من المعادن ذهبا وهاجا — أما أكثر القوم واقعية فقد سأل الشيخ عن مصدر ثروته ؛ فأجابه بالحق الصراح :

لقد قال له : إنه اكتسب هذا المال من التجارة ، ولا سيما فى أيام الشدة ، فهو رجل يعرف كيف يعمل ، ويعرف موارد الكسب الحلال ، إنه لم يعثر على كنز ، وليس معه اسم أعظم ، ولا علم بالكيميا ، ولا شعوذة يستغل بها الأفكار الساذجة .

كان يقوم بمهمة التدريس إلى جانب قيامه بمهام الحكم والفتوى ، وكان بمدرسته ما يزيد على ثمانين طالبا ، وفى إحدى سنوات الجفاف التى كثيراً ما تصيب ليبيا ، بلغت فيها الشدة مبلغاً أثرت على طلابه الذين ينفق عليهم فى

مدرسته العامره ، وتذاكر الطلاب النجباء هذه الحال ، وظنوا أنهم اثقلوا على شيخهم فى هذه السنوات العجاف ، فقرروا أن يتفرقوا ، وأن يلحق كل واحد منهم بأهله وبلده ، حتى تنقضى هذه المحنة ، وتبدل هذه الحال، ويغدق الله نعمته على العباد . .

وسمع الشيخ بما اتفق عليه طلابه ، فأمر أن يقدم إليهم طعام من غير زيت، وحين حضر الطعام ، أمر أحد الطلاب أن يأخذ إناء و يحضر الزيت من المخزن، وذهب الطالب النشيط وفى يده وعاء الزيت — وكان فى المخزن مجموعة من الأزيار، فكشف عن الأول ليأخذ الزيت ولكنه وجد الزير مملوءاً مالا ، وكذلك انتقل إلى الثانى ، حتى كشف عن مجموعة منها ، ثم خرج إلى زملائه ، فقال له الشيخ : أخبر رفاقك عما رأيت ، فلما أخبرهم ، قال لهم الشيخ : لقد سمعت بما قررتم من الافتراق ، وهذا المال الذى أخبركم عنه زميلكم إنما جمع لينفق به على طلاب العلم من هذه المدرسة ، ولو ذهبتم أنتم ، لأنفق به على غيركم ، كما أن بقاءكم هنا لا يثقل علىّ ، ولا يؤثر على حياتى . واطمأن الطلاب إلى ما رأوا وما سمعوا ، واستمروا فى كفاحهم العلمى .

وكما كان عالما ومؤمناً وكريماً وقوياً فى الحق ، كان حريصاً على المحافظة على أمته ووطنه ، يذود عنها فى شجاعة واستبسال . حاول أبو يحيى بن اسحاق الميورقى عدة مرات أن يحتل الجبل ، بعد ما احتل أغلب شمال أفريقيا ، وخرب ما وصلته يده من عمران ، ولكنه رجع فى جميع تلك المحاولات بالفشل الذريع ، وكل ما استطاع أن يفعل فى بعض تلك الهجمات ، هو التخريب ، وذلك العمل الذى لا يقوم به إلا المتوحشون من الناس . كون مرة جيشاً كبيراً ، وقصد مدينة الجبل « جادو » وكان يريد أن يحتلها من مدخلها الطبيعى : من جهة الشمال ، هذا المدخل الذى تستلقى عليه فى فتنه وجمال مدينة « جناون » الرائعة ،

فلاقاه الأبطال المغاوير ، الذين أعدهم أبو يحيى لمثل هذه المهمة ، فرجعت جيوش الميُّـورقى منهزمة ، ولـكنه رغم هزيمته استطاع أن يوقد النار فى تلك الحدائق الغناء التى تسقيها عين «تموقَتْ» الغزيرة ، التى تندفع إليها مع شلال «القصب[1]» الفاتن الجميل .

واحترق فى هذه الحدائق ما يزيد عن اثنى عشر ألف شجرة زيتون خاصة ، وعدد غير قليل من الأشجار الأخرى ، وأصبح مكان تلك الحدائق يسمى بالمحاريق ، إلى يومنا هذا .

ووجه « الميُّـورقى » حملة أخرى إلى عاصمة جبل نفوسه منذ عصور قديمة ، إلى المدينة العظيمة — مدينة « تَـرْوَس » التى لا تزال آثارها تشهد بعظمة الإسلام فى تلك العصور ، وتوجه إليها مع مدخلها الشمالى ، كما توجه إلى « جادو » وكان يعتقد وهو يندفع بجيوشه وسط هذا المدخل بين الجبال، أن المدينة العظيمة أصبحت بين يديه ، ولا سيما وهى تنبسط على السفح ، فتصلها الخيل دون عناء ، ولـكن الأبطال المغاوير الذين كانوا يترصدون حركات العدو من المدينة الجاثمة على القمة العالية الشرقية للوادى التى تسمى « الجزيرة » انقضوا فى خفة الليوث على هذه الجيوش ، التى بدأت تتعثر بين مسالك الجبل ، وامتلأت قلوب هؤلاء المهاجمين بالرعب ، فولوا الأدبار، لا يلوون على شىء .

وكم كانت ظريفه تلك الحيلة التى لجأ إليها سكان هذه القرية الضاربة فى الهواء تطاول النجم وتغازل القمر .

لقد خطر للميُّـورقى أن يعاود الـكرة ، وأن يهجم هذه المرة على هذه القرية

---

(١) يطلق عليه اسم (إيغانيمن) وهى كلمة بربرية معناها (القصب) .

التى تسمى الجزيرة ، والتى روعت جنده فى يوم من الأيام ، فيضربها الضربة القاضية ، يستطيع من بعدها أن يستمر فى حروبه دون خوف ، فجهز جيشاً ، وجاء به إلى سطح هذا الجبل الذى تقع فى قمته الجزيرة الصغيرة الضاحكة ، وأطال الحصار ، واجتمع شباب القرية يتداولون الأمر ، وفكروا فى حيلة لعلها تعتبر أبرع حيلة قام بها المحاربون فى التاريخ ، وفى ليلة شديدة الظلام انفلت جمع من شباب القرية ، وأخذوا مجموعة من الجمال وحملوها حطباً ، ولما اقتربوا من جيش العدو الهاجع آمنا مطمئنا إلا عددا من الحرس منبثين هنا وهناك ، يداعب النوم أجفانهم ، ويلوى أعناقهم ، وجه أولئك الفتية أعناق الإبل إلى معمعة الجيش ، وفى خفة ولباقة أشعلوا النار فى الحطب الذى على ظهورها ، ثم انفلتوا هاربين ، وأحست الجمال بالنار تلسع ظهورها ، فاندفعت بما يملك من قوة محدثة جلبة ورغاء فى ذلك الظلام الحالك ، واستيقظ الجيش على هذا الدوى العظيم ، والاندفاع العنيف ، والنار المشتعلة ، فظن القوم أنهم أحيط بهم ، واندفع كل واحد منهم إلى سلاحه ، يقتل من لاقاه أو أحس به ، ويركن إلى الفرار . . .

وأصبح الصباح ، فإذا بعدد غير قليل من جثث القتلى ، وإذا بأموال وسلاح وعتاد خلفه الجيش المنهزم الذى قضى على نفسه بنفسه ، وجاء أبو يحيى زكرياء وفتيانه فدفنوا الموتى من الأعداء ، أما ماترك العدو من أموال ، فهى لاتحل لهم ، ولذلك فقد رأى أكثر المشائخ فى ذلك الحين : أنه يجب أن تحرق ، وأن لايتركوا شيئاً من المال الحرام يدخل إلى جبلهم ، هذا الجبل الذى لا يزال يحتفظ بطهارة الإسلام .

لست أدرى هل استوحى شباب هذه القرية حيلتهم البارعة من سيرة

الرسول صلى الله عليه وسلم فى غزوة الخندق ، أم أنها خطرت لهم دون أن يرجعوا إلى تاريخ الإسلام الحافل بالعظمة والبراعة والفكرة ...

صمد أبو يحيى زكرياء البارونى لهجمات الميُورقى ولغيرها من الهجمات ، ورد بعضها بالعنف ورد بعضها بالحيلة . ورد بعضها بالصلح ، إنه حافظ على هذا الوطن العزيز الأبى ، فلم تدنسه أقدام البغاة الذين لا يتقيدون بدين ولا خلق ولا ضمير ...

وذهب الميُورقى إلى ربه بما قدمت يداه ، وحفظ التاريخ هذه الأمجاد ..

أمجاد الإيمان والشهامة والعفة لهؤلاء الناس الذين وضعت فى أيديهم أمانة الله فرعوها حق رعايتها ، وأمانة الأمة فحفظوها من أنفسهم ، وحفظوها من عدوان المفسدين .

عدالة الإسلام في حكم الحكام

حدثتك أيها القارىء الكريم في الفصول السابقة عما يقرب من ثلاثين بطلا من أبطال الإسلام، من الذين تولوا الحكم في ليبيا، أو في بعض أجزاء ليبيا. ولم أقصد بالحديث عن هؤلاء الأبطال، أن أقص عليك تراجم حياتهم، أو أن أعرفهم لك تعريف المؤرخ الذى يعنى بكل شأن، ولا أن أربط بين تسلسل الأحداث التاريخية، لست أقصد شيئاً من ذلك، لأن هذا الكتاب لم يوضع للتاريخ، وإنما قصدت أن أعرض عليك صوراً من تاريخ الإسلام، في سير أبطاله، تجد فيها العلم والبطولة، وتجد فيها الإيمان والشهامة، وتجد فيها الاستقامة والعفة، وتجد فيها التضحية والإيثار، وتجد فيها صوراً من حياة المسلمين كما كانوا في الصدر الأول، وتجد فيها الوقوف عند حدود الله.

تلك الصور الرائعة التي تمثل العدل المطلق، والمساواة المطلقة بين أبناء الأمة، لا يرتفع فيها شخص إلا بإيمانه، ولا ينحدر فيها إلا بعصيانه.

ولقد كنت أنقل هذه الصور على بساطتها وأنا آمل أن يقرأها اثنان من الأمة:

الأول رجل وجد منصبا في الدولة، وكرسيا للحكم، وأعطى له حق التصرف في شأن من شؤون الشعب، وأملى في هذا الرجل الذى وضعت في عنقه أمانة من أمانات هذه الأمة — سواء كانت صغيرة أو كبيرة، وأملى في هذا الرجل أن يجد في هؤلاء الناس قدوة حسنة، فيتخذ منهم مثلا يحتذيه، ويجعل من سيرتهم منهاجاً يسير عليه.

أما الثانى فرجل يقف في مصاف الشعب العادى، ليس له من الحياة والسلطان أو المال، ما يرفعه في أعين من يزنون الرجال بالمادة، وأملى في هذا

الرجل أن يتخذ هو الآخر عبرة ، وأن يعرف أن كرامة الإسلام تمنعه أن يرضى الظلم ، وأن يسكت عن الانحراف عن جادة الله ، وأن الحق يخوله أن يحاسب أولئك الذين يعبثون بمقدراته ، وأن الإسلام يجعله فى صف واحد مع أكبر ذى سلطة فى الدولة ، وأعظم ذى ثروة فى الأمة ، لا يفضلانه بشىء أبداً إلا أن يكون تقوى لله وعملا بدين الله .

وتاريخ صدر الإسلام فى زمن النبوة والخلافة الرشيدة ليس فقيراً من أمثال هذه الصور التى أنقلها لك ، من تاريخ جانب من جوانب الأمة ، فى جزء صغير من الوطن الإسلامى الفسيح ، ولكن دعانى إلى أخذ هذه الشواهد من غير ذلك العصر الحافل بالمجد والعظمة سبب بسيط ، وذلك أننى كثيراً ما أتحدث مع الناس عن سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيجيبنى البارعون فى النقاش منهم : « ذلك شخص عصمته الرسالة ، وأولئك قوم شاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستمعوا إلى الوحى وهو ينزل من السماء ، فالمسافة بين طبيعة الحياة عندهم وطبيعة الحياة عندنا شديدة البعد .

ولقد يخيل لبعض الناس أن فى هذا المنطق ظلا من الحجة ، ولكى يذوب هذا المنطق ويضمحل ذلك الظل ، أوردت هذه الشواهد التى تنتثر خلال عشرة قرون من تاريخ الإسلام ، وبين كثير من ظلم الحياة ومعاكسات الزمن .

وكما استطاع بعض هؤلاء الأبطال أن يسيروا بسيرة الإسلام النقية فى أى عصر من عصور التاريخ ، يستطيع اليوم أى رجل يتولى شأنا من شؤون الأمة ، أن يؤدى أمانته بإخلاص ، فلا يعبث بمالها ولا بوقتها ، ولا يستغل جاهه ولا مركزه ، إلى آخر ما هنالك مما يجب أن يكون عليه الحاكم القويم الذى يؤمن بشريعة الإسلام ، ويتحلى بما دعا إليه من خلق كريم .

وكما يجب أن يكون صاحب الأمر قويما ، يجب أن يكون رجل الأمة — أى الفرد العادى — مؤمنا بدينة ، مؤمنا بحقه الذى خوله له فاطر السموات والأرض ، فلا يرضى المهانة ، ولا يسكت على ذلة ، ولا يوافق على ما يخالف أمر الله ، فإن بدا لصاحب الأمر أن ينحرف ، وجب أن يقف له رجل الأمة بالمرصاد، يقوِّم أعوجاجه بالنصيحة والإرشاد ، فإن لم يجْد النصح قومه بالسيف كما قيل لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب .

إن هؤلاء الأبطال الذين حدثتك عنهم ، حكموا ليبيا أو جزءاً من ليبيا ، وكان فيهم من بويع بالخلافة ، فدان له ما بين «القيروان وسرت» ، وكان منهم من كان عاملا لخليفة ، وكان منهم من تولى الحكم باختيار أصحاب الرأى والشورى ، ولكنه لم يبايع بالخلافة ، ولم يكن تابعا لدولة من الدول الأخرى ، فهو أمير مستقل ، يحكم أغلب البلاد الليبية أو بعض أجزائها ، فهم يتفاوتون تفاوتا عظيما فى مدى السلطة المخولة لكل واحد منهم ، ولكنهم جميعا يتفقون فى شىء واحد . . . يتفقون فى هذه السيرة العطرة التى يعطى فيها صاحبها أكثر مما يأخذ .

لقد عرف هؤلاء الذين تولوا الحكم فى ليبيا من رجال الإباضية ، أنه لم يسند إليهم الحكم ليستغلوه لأنفسهم ، ولا ليتخذوا منه سلطانا ، ولا ليجمعوا به ثروة ، ولا ليتعالوا به على الناس الذين أولوهم ثقتهم ، ووضعوا بين أيديهم هذه الأمانة الغالية .

وحافظ أولئك الحكام على هذه الثقة ، فبذلوا من جهدهم ، ومن تفكيرهم ، ومن حبهم للمسلمين ، ومن وقتهم الثمين ، ومن مالهم الخاص الذى اكتسبوه من الأعمال الحرة — قبل أن يشتغلوا بأمور المسلمين أو ورثوه عن الجدود —

بذلوا من ذلك كله ما يطلبه الإسلام من المؤمنين الصادقين ؛ ولم يأخذوا من هذه المراكز الهامة يوم انفصلوا عنها بالاستقالة أو الموت غير الذكرى العطرة عند الناس . وعند الله الجزاء الأوفى . . .

إنك مهما تتبعت حياتهم فلن تجد لأحد منهم ذلك النعيم الذى يتقلب فيه أصحاب السلطة الظالمون ، ولن تجد عندهم هذه الحواشى التى تخون الله والحاكم والأمة ، فتقلب الحقائق وتشوه وجه الحق ، وتنفخ الكذب والزور فى أذن الحاكم ليغتر ويحيد عن سبيل الله ، فإذا حاد فقد وجدوا ما يطلبون ، وحققوا ما كانوا به يحلمون ...

ولن تجد عندهم القصور الشامخة ، والجوارى الحسان ، إنهم كانوا يعيشون على شظف من العيش كما عاش خير الخلق عليه السلام ، وكما عاش خلفاؤه الأتقياء من بعده ، لا يشبع الواحد منهم فى حياته الطويلة وكفاحه المستمر ، بالخبز والزيت ، وليس ذلك للحاجة والفقر ، ولكنه لقوة الإرادة والتغلب على وسوسة الشيطان والهوى . .

ولقد يسأل القارىء الكريم عن أسباب هذه الاستقامة التى وجدت فى جميع حكام الإباضية تقريباً ، لا يشذ عنهم إلا النزر اليسير ؟ وللجواب عن ذلك نحيله إلى القواعد التى اعتمدها المذهب الإباضى فى قضية الحكم ، غير متأثر بعواطف الشيعة ، ولا عنصرية الأموية ، ولا ربكة الشعوبيين ؛ فالمسلم الإباضى لا يعترف بحق الوراثة فى الحكم ، ولا يصدق بقضيه العنصرية ، فى اختيار الحاكم ، ولا يطيع من لا يطيع الله ويقيم حدوده ويحكم بما أنزل . .

ولذلك فهو أولا يختار من يضع بين أيديهم مقدرات الأمه ، وينبنى هذا الاختيار على الكفاءة المطلقة ، الكفاءة العلمية والكفاءة الدينية ، والكفاءة

الخلقية ، والكفاءة العقلية . ثم هو لا يقر على الحكم من ينحرف عن صراط الله المستقيم : الذى سار عليه النبي صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون ، والسلف الصالحون المصلحون .

فكان أولئك الناس الذين يقع عليهم الاختيار لتحمل أعباء الحكم ، يجهدون أنفسهم للقيام بالواجب ، والمحافظة على السيرة المرضية ، وهم مع هذا الحرص يخشون عذاب الله من التفريط ، ويخافون نقد الأمة من التقصير ، فإن الحاكم الذى يعجز عن القيام بالمهام التى أسندت إليه — إما ضعفاً عنها ، أو انحرافاً عن سبيل الله — يجب عليه أن يتخلى عن هذه المسئولية التى لم يستطع تحملها ، فإذا خطر له أن يستمسك بها على هذا القصور أو التقصير ، وجب قتاله وقتله ، وإسناد الأمر إلى من هو أهله . . .

حدثتك أيها القارىء الكريم عن هؤلاء الرجال الذين أسند إليهم الحكم فى هذا الوطن الكريم ؛ ولم اخترهم لشرف الحكم كما قد يتبادر إلى ذهن بعض القراء الكرام . فأنا لا أرى فى الحكم مظهراً للشرف ، ولا مدعاة للفضل ، إن الحكم فى نظرى ينقسم إلى قسمين : —

أحدهما : هذا المظهر البراق الذى يسعى إليه . بعض الناس ، ويعتزون به ، ويتسابقون إليه . وهذا المظهر هو أحقر عمل يسعى إليه إنسان يؤمن بدينه ، ويؤمن بخلقه ، ويؤمن بانسانيته . . أما أولئك الذين يزدحمون عليه فى إصرار فهم حمقى ، أعوزتهم العظمة فى أنفسهم ، فراحوا يلتمسونها فى سلطة الحكم ، ومهما بلغ أولئك الرجال من العظمة فى ظنهم ، فهم أحقر من أن ينظر إليهم التاريخ الحق نظرة التقدير والتعظيم . فإن العظمة لن تكون أبداً بمبالغ وافرة من المال ، تؤخذ من الشعوب ، ولا بأرواح كثيرة تزهق ظلماً وعدواناً ، ولا بقهر وجبروت وطغيان مسلط على الضعاف ؛ ولقد وصل الفراعنة إلى ما وصلوا إليه

من جمع الثروة واستعمال السلطة ، ولكنهم لم يكشفوا بكل ما فعلوه إلا عن أنفس مريضة تتطلب الخلود فى دنيا الفناء . .

ولقد انحط الفراعنة إلى أن ادعوا لأنفسهم الألوهية ، فزعموا أنهم قادرون على الإماتة والأحياء . وإذا ساغ للعقل الفرعونى أن ينحط إلى هذه الدعوى التى يعرف هو نفسه أنه كاذب فيها ، فإن العقل الذى يحترم نفسه بعد هدايات الله المتواليات على طرق انبيائه ، وبعد استنارة العقل البشرى بما يجد كل يوم من الحقائق ، يجب أن يرتفع عن الأوهام والأضاليل ...

على أن هذا العقل الفرعونى السخيف الذى يضفى على نفسه عظمة المظهر لأنه يفتقد فى نفسه عظمة الحقيقة . . لا يزال يحيا فى هذا العصر ، عصر العلم والمعرفة . . ومن المؤسف أن عدداً غير قليل من هذه الأشكال الجوفاء لا تزال تسيطر على مقدرات الأمة الإسلامية فى بعض دولها .

ولست أدرى والله ما هى الأعذار التى يلجأ إليها هؤلاء الناس ؟ وهم يؤمنون برسالة محمد ، ويتلون كتاب الله ، ويدرسون سنة رسوله عليه السلام ، ويعرفون سيرة السلف الصالحين .

ما يقول هؤلاء — وهم يحيدون عن النهج القويم لذى سار عليه أمناء هذه الأمة ؟

ومايقولون — وهم يبتزون أموال الأمة — التى جعلهم الله قيّاماً عليها — بغير حق ، ويتصرفون فى دمائها بغير عدل ، ويفصلون مشاكلها بغير علم ؟ . . .

ما يقول هؤلاء الحكام المسلمون ؟ الذين وضعت بين أيديهم مقدرات الأمة ، فأراقوا كرامتها فى مجالس السكر ، وموائد القمار ، ودور البغاء الظاهر والبغاء الخفى ؟ . .

ماذا يقولون حين يأخذون من مرافق الدولة ليضعوا فى مرافقهم ، ويسرقون من مال الأمة ليضعوا فى أموالهم ، ويعبثون بمصلحة الأمة لخدمة مصالحهم ؟

ماذا يقول هؤلاء الحكام الذين منحوا الثقة ليحافظوا على أمانة الله ، وعلى دين الله ، فإذا بهم أول من يحارب أحكام الله ، ويعطل حدوده ، ويعبث بالأمانة التى بها أسندت إليهم مراكز الحكم ؟

ماذا يقول ذلك القائد الذى ينعق فتتبعه مجموعة بشرية من مصاصى الدماء ، ثم يهجم على بلد مسلم آمن ، فيتلف الأموال ، ويزهق الأرواح ، لا لشىء إلا ليتمرغ فى كراسى الحكم ، ويعيث أعوانه فى البلاد فساداً ؟ ! .

ماذا يقول هؤلاء الذين لا يفتأون يدبرون الانقلابات ، لا للاستقرار والتنظيم ، واتباع أمر الله ! ولكن للتحكم فى الأموال والأرواح ، فإذا ما أتيح لأحدهم النجاح ، حكم حكم فرعون ، فاستذل عباد الله ، وسرق مال الله ، وسمح لأعوانه بارتكاب الفظائع ، وأطلق يده فى الانتقام ، فقتل الأرواح دون حساب ، وسجن الأبرياء دون جريرة ؟

ماذا يقول هؤلاء المرضى ، الذين لم يجدوا العظمة فى أنفسهم ، فراحوا يبحثون عنها فى المظاهر ؟ . . .

وإنه لحق على الأمة المسلمة فى مجموع وطنها أن تطيح بهؤلاء الخونة ، الذين خانوا الله ، وخانوا رسوله ، فلم يرجعوا إلى دين الله فى أعمالهم ؛ وأن تحاسبهم حساب الخبير القدير ، فلا تمنح كراسيها إلا للأقوياء على اتباع الحق ، ولا تضع أموالها إلا بين أيدى الأمناء على شريعة الله ، ولا تحكّم فى مصيرها إلا المخلصين

الذين يبرهنون على إخلاصهم ، وأن تجبر هـذه الشراذم — التى تنعق فى كل ركن من أركانها باسم دولة — على التخلى عن هذا الاسم ، لتُصهر هذه الدول الهزيلة المتناطحة فى دولة إسلامية قوية ، لا ترهب عدواً ولا تتملق أقلية كافرة تعيش فى وسطها كما تعيش الجراثيم ، وتعمل كما تعمل الطوابير الخامسة فى اصطلاح السياسة .

أما الثانى : فهو هذه التضحية الـكاملة التى يقدمها الحاكم للأمة ، إنه الشعور بالواجب المقدس الذى يتعالى فيه الشخص عن مكاسبه المادية ، ومصلحته الشخصية ، وينسى فيه نفسه وماله وأهله ، ليقدم للأمة ما يملك من جهد وفـكر ووقت . والمؤمن حين يتولى الحـكم من هذا السبيل ، يجب أن يزيل من ذهنه أول ما يزيل : المتعة والراحة والسلطة والمال ، لأنه خادم أمين مخلص ، وخادم القوم سيدهم .

فالسعادة التى يملـكها حاكم الأمة المسلمة ، إنما هى فى نفسه لا فى مهنته ، والسيادة النفسية لا تتنافى مع خدمة الناس ، بل لعلها لا تـكون سيادة حقاً إلا عندما تتجلى فى هذا الجانب من الأعمال المبنية على التضحية ونكران الذات :

ولذلك فما من مؤمن حريص على إيمانه ، حريص على كرامته ، يسعى إلى أن يلى أمور الناس أو يقبلها إذا عرضت عليه — اللهم إلا فى الحالة التى تحتاجه الأمة ، ويكون قبوله لهذا الأمر ضرورياً ، وفراره منه يؤدى إلى أضرار تلحق بها ، فحينئذ يكون واجباً من الواجبات التى لا يحل له أن يتخلى عنها ، وفى تاريخ الأمة الإسلامية أمثلة رائعة من ذلك ، فقد قبلها الصديق رضى الله عنه مكرها ، بعد أن حاول أن يفر منها ويضعها على كاهل الفاروق أو أمين الأمة .

وقبلها على بن أبى طالب مكرها وهو يقول للقوم : لأن أكون وزيراً خير

لكم من أن أكون أميراً . وقبلها أبو الخطاب عبد الأعلى بعد أن خير بينها وبين القتل ، وقبلها أبو عبيدة عبد الحميد الجناوني بعد أن أقنعته العجوز أن إعراضه عنها سيكون سبباً لدخوله النار .

وقد تحمل الصديق أعباء الإمامة وهو يحاول أن يعمل كأى فرد فى السوق ، ليعول أفراد أسرته الكبيرة ، و بقى الفاروق اثنتى عشر سنة فى الخلافة فلم يتجاوز بذخه فى الطعام الخبز والزيت ، وكان أمير المؤمنين على بن أبى طالب يكنس بيت المال كل جمعة ، وعند مااستعارت ابنة حلية من خازن بيت المال تتزين بها لمناسبة عارضة ثم تردها ، غضب علىٌ على الخازن وهم بقطع يد ابنته وقال : لولا أنها استعارتها لكانت أول هاشمية تقطع يدها .

وكان عمر بن عبد العزيز يعيش فى زمن الرغد الذى لا يوجد فقير تدفع له الزكاة ، ومع ذلك فقد كان يطفئ السراج إذا انتقل الحديث إلى شأن غيرشؤون الأمة ، مخافة أن يرزأ الأمة فى قطرة من الزيت . وتوفى عبد الوهاب بن رستم الذى كان يحكم الجزائر وتونس وليبيا بعد عشرين سنة من الحكم ، فأحصيت تركته فبلغت سبعة عشر ديناراً ، وحكم أبو زكرياء ستين سنة ، وولد له طفل فلما طلبت منه زوجته النفساء أن يبعث إليها بقليل من الزيت للاستصباح ودهن الطفل ، اعتذر بأنه ليس لديه زيت ورجاها أن تستصبح بالحطب ، وتغسل الطفل بالماء .

هؤلاء الأبطال ، ومن سار بسيرتهم ، وانتهج طريقتهم ، هم أمراء الإسلام ، ولم ينقص من الصديق أنه كان يعمل فى السوق كما يعمل أى فرد آخر من الأمة ، ولم ينقص من عظمة الفاروق أنه لم يتجاوز فى أكله الخبز والزيت ، ولم ينقص من عمر بن عبد العزيز أنه لم يتخذ عرشاً كما اتخذ بقية ملوك بنى أمية ، ولم يلغ فى أموال الناس ودمائهم ، كما ولغ غيره من طلاب الدنيا .

إنى أكتب هذه الكلمة ، وأنا أرجو أن يجد فيها القراء الكرام بعض العبرة و بعض القدوة ، وأن يدرك أولئك الذين وضعت أمور المسلمين بين أيديهم فى مختلف مرافق الحياة أن العظمة إنما تكون فى النفس لا فى المظهر ، وأن متع الحياة مهما كانت مصادرها وشيكة الزوال ، وأن يتساموا بأخلاقهم وأعمالهم عن دنس الأنانية ، ورجاسة المادية ، ووضر الانتهازية والانتفاعية ، فإن تلك الأخلاق بقايا من الصفات الحيوانية التى علقت بالإنسان ينمّيها النظر القصير .

إنه يجب على كل من ولى أمراً من أمور المسلمين أن يعرف أنه إنما يأخذ مرتباً مقابل أن يدفع للأمة كل طاقاته ، بما يملك من علم وقوة وعمل ، لا يدخر وسعاً ، ولا يبقى جهداً ، وأنه ليس له أى حق فى أن يضيف إلى مرتبه الذى جعل أجراً له على جميع قواه ، لا يحل له أن يأخذ شيئاً من الأمة بأى وسيلة من الوسائل زيادة على ذلك ، وأن أى تقصير فى البذل ، أو أى زيادة فى الأجر — بعد الأجر المقرر — إنما هو خيانة وسرقة ...

فإذا لم يستطع الإنسان أن يقوم بمهمته ، أو أن يصون يده ، فيجب عليه أن يتخلى لمن يستطيع ذلك ..

كفاح الإباضية للظلم فى ليبيا

تنقل الكتب ، كتب التاريخ ، أن الإباضية قاموا بعدة حروب ، وعدة ثورات ، فيما بين القرن الأول والقرن العاشر الهجرى ، فلماذا أشعلوا نيران هذه الثورات ، وقاموا بتلك الحروب ؟

وفى هذا الفصل أريد أن أعرض على القارىء الكريم أهم تلك الحروب وتلك الثورات ، وأعرض عليه أسبابها ونتائجها والغاية منها .

١ — عين عبد الرحمن بن حبيب أخاه إلياس عاملا على طرابلس ، فقبض إلياس على عبد الله بن مسعود التجيبى وقتله خوفا من الإباضية،فغضب الإباضية وثاروا لهذا الظلم ، فبايعوا الحارث بن تليد إماما ، وأخرجوا عمال بنى العباس ، وكل ما فعلوه أن قتلوا رجلا واحداً مقابل صاحبهم عبد الله التجيبى .

٢ — أرسل عبد الرحمن بن حبيب من اغتال الحارث بن تليد وقاضيه عبد الجبار المرادى ، فغضب الإباضية لهذه الخيانة ، وبايعوا أبا الخطاب عبد الأعلى بالإمامة ، وقلبوا نظام الحكم ، دون أن يريقوا قطرة دم واحدة ، وكل ما فعلوه أن خيروا عامل العباسيين بين البقاء فرداً من الأمة ، أو السفر آمنا موفوراً .

٣ — تغلبت « ورفجومة » على « القيروان » وقتلت حبيبا بن عبد الرحمن عاملها ، وارتكبت من الفظائع ما يبرأ منه الإسلام ، فانتهكت الحرمات ، وربطت الدواب بالمساجد ، واعتدى المعتدون على النساء فى الطرقات ، فاستغاث بعض أهاليها بالإمام أبى الخطاب ، فجهز جيشاً طهر به مدينة عقبة من عبث العابثين .

٤ — ارتكب ولاة الأغالبة ما يبرأ منه الإسلام فى ليبيا ، فكانوا يأخذون الأموال دون حساب ، ويريقون الدماء فى إسراف ، ويتنقلون بين الأحياء المسلمة الضاربة فى المراعى الشاسعة ، فينتهكون حرمة الصبايا الحرائر والغيد المصونات ، دون رادع من خلق أو دين ، وغضب الإباضية من هذه الجرائم وهى ترتكب فيهم ، فبايعوا أباحاتم الملزوزى بالإمامة ، فطرد هؤلاء المعتدين ، وأزاح عن الأمة ذلك الكابوس الثقيل ، ولما تفقد الإمام القتلى بعد انتهاء أول معركة له مع أولئك البغاة الظالمين ؛ وجد بعض القتلى من جيش العدو قد سلبوا ، فجمع جيشه ثم قال لهم : إن لم تردوا الأسلاب تركت أمركم ، وسارع الناس إلى رد الأسلاب ، وأعلنوا التوبة . .

إن هذه الحرب لم تشرع للغنيمة ، وإنما شرعت دفاعا عن النفس والعرض والمال . .

٥ — ارتكب الولاة الظالمون فى القيروان من الإرهاب والقتل وأخذ الأموال ما يستفز الحليم ، فاستغاث بعض أهلها بأبى حاتم ، فجاءهم وحاصر القيروان مدة تزيد عن السنة ، وحينما دخلها بعد الحصار الطويل أمن الجميع ، أما الجنود المرتزقة الذين كان يجمعهم الأغالبة من كل مكان ليعيثوا بهم فى الأرض فساداً ، فقد أطلق أبو حاتم سراحهم ، ليرجعوا إلى أهاليهم ، وزود كل خمسة منهم بعصا وموسى وقربة ماء ، وأعطى لكل واحد منهم رغيفا من الخبز ؛ وهذا الموقف لم أسمع بمثيل له فى تاريخ البشرية .

٦ — هاجم العباسيون أئمة الإباضية عدة مرات من الشرق ، فلم يزد أولئك الأئمة عن دفاعهم فى الميدان ، وكلما انتصر الإباضية وقفت أعمالهم الحربية عند انتهاء المعركة، وكلما انتصر أولئك المهاجمون المعتدون ارتكبوا من الفواحش

ما تقشعر منه الأبدان ، فلم يسلم منهم مال ولا عرض ، ولم ينج منهم فارّ ولا مسالم ، ثم تعدوا ذلك إلى المثلة بالقتلى ، فاحتزوا الرءوس ، وبعثوا بها إلى القاهرة أو بغداد .

٧ — كان للأغالبة جند وافر من المرتزقة الذين لا دين لهم ولا ضمير ، وهم خليط من شذاذ العرب والبربر وغيرهم ، وكانوا تعودوا النهب والسلب والغنائم فى حروبهم ، وعندما تطول مدة السلام يسأمون ، لأن السلام لا يزيد فى ثروتهم الحرام ، فخرجت شرذمة منهم إلى الأحياء الضاربة حول طرابلس ، وارتكبوا ما تعودوا أن يرتكبوه ، فاستغاث المظلومون بالإمام عبد الوهاب الرستمى ، وكان حينئذ مقيما فى «ميرى» إحدى قرى بنى زمّور «الرجبان اليوم» فجهز جيشاً وحاصر طرابلس حتى لان عمال الأغالبة للحصار ، وعقدوا مع عبد الوهاب صلحاً بأن تكون طرابلس المدينة والبحر للأغالبة ، وأن يكون ما عدا ذلك تابعاً للإمام عبد الوهاب .

٨ — سرق ابن طولون أموال الدولة من خزانة أبيه ، وكون جيشاً من مواليه ، واتجه إلى المغرب ، فمر ببرقة ، وجاء إلى طرابلس ، وارتكب من الفواحش مايبرأ منه الإسلام ، فاستغاث الناس من ظلمه بأبى منصور إلياس ؛ على أنه لم يكتف بما ارتكب ، فبعث رسالة إلى أبى منصور يأمره فيها بتقديم الطاعة ، ويهدده إذا هو لم يسارع بذلك ، بأن يوطىء الخيل بلاده ويستبيح حرمه .

وجهز أبو منصور جيشاً ، والتقى مع هذا الفتى المغرور فى قصر حاتم ، وانهزم المعتدون ، وطار ابن طولون على فرس سابق ، تاركا وراءه عدداً من القتلى وثمانمائة حمل من الذهب منتثرة فى الميدان ؛ فلم يأخذ منها أبو منصور

وجيشه ديناراً واحداً يحتفظون به للذكرى ، أو يضعونه فى دار الآثار ، وترك المال لمن يسعى إلى جمع المال ، ورجع شهماً شريفاً ، كما جاء شهماً شريفاً .

٩ — قرر ابراهيم بن الأغلب القائد المجنون الذى — لا يتورع عن أكل الرؤوس الآدمية أن يمر بالأراضى الليبية ليغزو مصر ، وتوقع الناس المصائب التى تنجر عن مرور هذا المجنون ، والجراد الذى يقوده ، فاعترضه الإباضية بقيادة أفلح بن العباس فى قصر « مانو » وحاولوا رده عن المرور بأراضيهم ، ووقعت بينهم حرب طاحنة انتصر فيها الطاغية المجنون .

١٠ — سعى خلف النكارى أن يستقل بجبل نفوسه ، فلم يتمكن من ذلك ، فجهز جيشاً وهجم به على أبى عبيدة عبد الحميد فى مركز حكمه بجادو ، وانتصر أبو عبيدة ، فلم يزد أن منع جنده من أخذ الغنائم والإجهاز على الجرحى واتباع المدبرين .

١١ — بعد وفاة أبى عبيدة تولى الإمارة على ليبيا « ما عدا المدينة » العباس بن أيوب ، وفكر خلف النكارى أن يعيد الكرة ، فجهز جيشاً وهجم به على العباس ، فانتصر العباس أيضاً ، ولم يزد على أن أخرج العدو من الحوزة أو من حدود المملكة . لم يحتز رأساً ، أو يغنم مالا ، أو يجهز على جريح ، أو ينتقم من برىء إنها سيرة أسلافه المؤمنين ، لا يحيد عنها .

١٢ — وقعت بعد ذلك عدة حروب لا تزيد عن غارات توجه إلى جبل نفوسه الذى حافظ على استقلاله ، غالباً ما يكون القصد منها الاستيلاء على ما أمكن من الأموال . فكان أولئك الأبطال يردون تلك الغارات ، ويصمدون لتلك الحروب ، فينتصرون ، وحينئذ لا يجد منهم أعداؤهم أى سوء بعد انتهاء المعركة ، وقد ينهزمون فيجدون من أعدائهم كل عنف .

هذه أهم الحروب والوقائع التى قام بها الإباضية فى ليبيا ، وهى فى جملتها وتفصيلها كفاح ضد عدوان يرتكبه عمال ظالمون لملوك ظالمين . ولو رجعت إلى هذه المعارك واحدة واحدة لوجدت أن الإباضية لم يشهروا سيفاً إلا دفاعاً عن نفس بريئة تقتل ، أو حرمة مصونة تنتهك ، وأنهم فى جميع هذه المواقف التى دافعوا فيها الظلم ، وردوا العدوان لم يبدأوا أحدا بقتال ، ولم يرتكبوا شيئاً مما يخالف سيرة العدول من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فما حفظ التاريخ عنهم أنهم غنموا مالا ، أو خانوا عهداً ، أو أراقوا قطرة دم بعد أن تنتهى المعركة ، وترجع السيوف إلى أغمادها ، أو اتبعوا مدبراً ، أو أجهزوا على جريح ، أو احتزوا رأساً من الرؤوس التى بغت عليهم فظفروا بها ، أو هتكوا حرمة لمسلم ، رغم ما يرتكبه فيهم محاربوهم من طغيان وتجاوز لأحكام الإسلام .

ولعل الحرب الوحيدة التى بدأوا بها وأعلنوا فيها القتال قبل أن يبدأهم أحد ، هى الحملة التى وجهها أبو الخطاب عبد الأعلى إلى القيروان ، ولكن الظروف التى حملت أبا الخطاب على هذه الحرب جديرة أن تحمل كل قلب ينبض بالإيمان أن يقوم ، وأن تحرك كل سيف يدافع عن دين الله أن ينطلق إليها . فقد احتلت « ورجومةُ » القيروان بعد أن قتلت حبيب بن عبد الرحمن ابن حبيب ، وليس هذا بالسبب الذى يحمل الإباضية على محاربتهم ، ولكن ربط الدواب فى المساجد ، وارتكاب الفواحش علناً فى الشوارع ، واصطياد الحرائر أمام أعين الناس واغتصابها .

أعمال لا يقوم بها حتى المتوحشون من أعداء الله ، فكيف بقوم ينتسبون إلى الإسلام ؟ فلما بلغت هذه المناكر التى تقع فى مدينة وضع حجرها الأساسى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يصبر أبو الخطاب عن دفع هذا المنكر ، وتطهير المدينة الصحابية من هذا الرجس . . .

أبو موسى عيسى : ١٨٥ ، ١٨٩
أبو موسى الدجى : ١٩٣ ، ١٩٤
أبو منصور إلياس : ١١٥، ١٢٨، ١٤٠، ١٤١
أبو هارون موسى الملوشائى: ١٥٧، ١٦٤ ١٨٩ ، ١٩١
أبو يحى زكرياء بن ابراهيم: ١٩٧، ٢٠٢
أبو يحى بن اسحاق الميورقى: ١٩٩، ٢٠٠ ، ٢٠٢
ابو يحى زكرياء الأرجانى: ١٥١ ، ١٥٦
أبو يحى زكرياء بن سفيان : ١٩٣
أبو يحى زكرياء الفرسطائى: ١٥٨، ١٨٣
أبو يعقوب البرنى : ١٩٣
أبو يعقوب البغطورى: ١٨٥
أبو اليقظان محمد بن أفلح : ١١٧ ، ١١٨
أبو يوسف الأجفرى : ١٨٢
أبو يوسف وجدليش بن فى : ١٩٣
أفلح بن العباس: ١٢٩ ــ ١٣٢ ، ١٤٩، ٢١٦
الياس بن حبيب: ٣٣ ، ٤٥ ، ٢٠٣
أم الخطاب: ١١٠
أم سحنون: ١٧٨
أم ماطوس: ١٩١

(ب)

بشر بن غانم : ١٣٨
بكر بن أبى بكر الفرسطائى : ١٥٨
بكر بن عيسى : ٣٥

(ت)

تابركانت : ١٩١

(ج)

جابر بن زيد : ٢١ ، ١٣٩
جلدين بن فلاوسن : ١٩٤
جميل السدراتى : ٥٢ ، ٥٣

(ح)

الحارث بن تليد: ٣٦ ، ٤٥، ٤٨ ، ٥٠ ، ٩٥ ، ٢١٣
حبيب بن عبد الرحمن: ٢١٧
حمزه بن عبد المطلب : ٧٠
حميد بن عبد الله العكى : ٤٥

(خ)

خالد اللواتى : ٥٣
خلف بن السمح : ٩٤، ٩٧، ١٠٥، ١٠٩
خوفو : ٧

(د)

داود بن تيتيس : ١٩٤
داود بن على : ١٨٦
دمرا بنت درجو الحمدانية : ٤٠

(ر)

الربيع بن حبيب : ٧٨

(ز)

الزاوى والطاهر أحمد : ٣٣، ٣٦، ٥٥، ٥٨، ٦٧، ٧٤، ١٢٦، ١٢٨، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ٢١٨
زكرياء بن عمار الصروى : ١٩٣
زيد بن أفصيت الدرفى ١٥٥ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٨٣ ، ١٩٣

(س)

سعد بن أبى يونس :١١٧ ، ١٣٠
سلمة بن سعد : ٢٥ ، ٢٨ ، ٤٣ ، ٤٤
السمح بن أبى الخطاب: ٧٧ ، ٨٠ ، ٨٧، ٨٨ ، ١٢٩

(ط)

طاهر بن يوسف : ١٩٥

(ع)

العباس بن أيوب : ١٠٥، ١١٢ ، ١١٦، ١٢٩ ، ٢١٦
عبد الجبار المرادى : ٣٤ ، ٤٥ ، ٥٠ ، ٢١٣
عبد الرحمن بن حبيب: ٣٣، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٢١٣
عبد الرحمن بن رستم: ٤١ ، ٥٣ ، ٧٧ ، ٨٠ ، ٨٧
عبد الله إباض : ٥٩
عبد الله بن الأعلب : ١٢٩
عبد الله بن مسعود التجيبى : ٣٣ ، ٣٥ ، ١٤٥ ، ٢١٣
عبد الله الشيعى: ١٣٩ ، ١٤٥ ، ١٥٤
عبد الوهاب بن عبد الرحمن ٢٩ ، ٣٠ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٣، ٨٤ ، ٨٧، ٩٣ ١٠١ ، ١٤٥ ، ٢١١ ، ٢١٥
عبد الوهاب القيس : ٧١
العربى الدرقاوى : ٧٢
على بن أبى طالب: ٣٢، ٦٤، ٢١٠، ٢١١
عمر بن الخطاب: ١٨، ٧٣، ٢١٠، ٢١١ ، ٢٠٥
عمروس بن فتح : ١١٨ ، ١٣٨، ١٤٣
عمر بن عبد العزيز ٦٤ ، ٢١١
عمرو بن يمكتن: ٣٩، ٤٤ ، ٥١

(م)

مارن : ٩٢
محمد بن أحمد الطرابلسى : ٧١
محمد بن الأشعث: ٤٢ ، ٥٣ ، ٥٦ ، ٥٨ ٦١ ، ٦٣
محمد بن زكرياء البغطورى ١٩٥
محمد بن محبوب: ١٤٠
محمد بن يفون : ١٩٦

(ى)

يحى بن يونس السدراتى: ١٤٩
يوسف بن عبد الله: ١٩٤
يوسف بن أيوب البارونى : ١٩٧

(ش)

شروس : ١٣١ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٧٧ ، ٢٠٠

(ط)

طرابلس : ٤٩ ، ٥٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٨٧ ، ١٢١ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٤ ، ٢١٥
طرميسة : ١٥٣

(غ)

غدامس : ١٦٩ ، ١٧٠

(ق)

قابس : ٥١ ، ١٣٠
قصرحاتم : ٢١٥
قصطاليه : ١٦٣
قطرس : ١٣٧ ، ١٣٨
القيروان : ٤١ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٥٦ ، ٦٣ ؛ ٨٧ ، ١٢٠ ، ٢٠٥ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٧

(ك)

كباو : ١٥٤
كـكله : ١٩٧

(ل)

لالوت : ١٥٤ ، ١٧٣ ، ١٧٧
لبدة : ١٢٠

(م)

مانو : ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٤ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٦٠ ، ٢١٦
ماصر : ١٥١
مزو : ٩٣ ، ١٥١
مغمداس : ٣٩
ميرى : ٧٨ ، ٩٣ ، ١٠١ ، ٢١٥

(و)

وازن : ١٩٧
ونزيرف : ١٤٧
ويفات : ١٨٢

فهرس الموضوعات

مقدمة ٣
تمهيد ٥
التاريخ بين الدولة والأمة ٧
الوطن الإسلامى ١١
دخول المذهب الإباضى إلى ليبيا ... ٢١
سلمة بن سعد ٢٥
ابن مغطير الجناونى ٢٧
كفاح الإباضية ضد الطغيان ٣١
ثورة الإباضية على الياس بن حبيب ٣٣
عمرو بن يمكتن ٣٩
الحارث بن تليد ٤٥
أبو الخطاب عبد الأعلى ٤٩
مواقف غير عادلة ٥٥
أبو حاتم الملزوزى ٦١
الزاوى وكرامات الأولياء ٦٧
انتقال القيادة من ليبيا ٧٥
السمح بن أبى الخطاب ٧٧
أبو الحسن أيوب بن العباس ... ٨١
أبو عبيدة عبد الحميد ٨٩
العباس بن أيوب ١٠٦
أبو ذر لبان بن وسيم ١١٣
أبو منصور الياس ١١٦
الزاوى وأبو منصور ١٢٥
أفلح بن العباس ١٢٩
لم اعترض الإباضية طريق ابن الأغلب؟ ١٣٤
عمروس بن فتح المساكنى ١٣٧
حالة سياسية ١٤٥
أبو محمد عبد الله بن الخير ١٤٧
أبو يحى زكريا الأرجانى ١٥١
الأعلام الثلاثة ١٥٨
أبو عمرو ميمون بن محمد ١٦٥
أبو الفضل سهل ١٦٩
أبو محمد زيد بن أفصيت الدرفى ... ١٧١
أبو زكريا يحى بن سفيان اللالوتى ١٧٣
أبو عبد الله محمد بن جلداسن اللالوتى ١٧٧
أبو زكرياء بن أبى عبدالله التندميرتى ١٨١
أبو هارون موسى ١٨٩
أبو الربيع سليمان بن أبى هارون ١٩٣
أبو يحى زكرياء بن ابراهيم الباروتى ١٩٧
عدالة الإسلام فى سير الحكام ... ٢٠٣
كفاح الإباضية للظلم فى ليبيا ... ٢١٣
كلمة الختام ٢٢١
الفهارس ٢٢٢
جدول الخطأ والصواب ... ...

جدول الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٦	—	للمؤمنين	للمؤرخين
٧	٨	يشتهون	يشبهون
٢٧	٢	وثنيون	وثنيين
٣٠	١٧	تستتخاص	تستخاص
٥٠	٥	استمرقت	استمرت
٥٠	٢١	وقت	وتمت
٤٥	٩	مسعود	ابن مسعود
٨٢	١٥	مجبهه	تجبهه
٩٢	٤	قريبان	قريتان
١٠٢	١٦	الأحب	اللاحب
١٣٧	١٩	وبين	جبين
١٤٨	١٥	وخلاف	ولا جلاف
١٤٨	١٩	الرسمية	الرستمية
١٦٥	٢٠	التندميرلى	التندميرتى